واحدة بمساعدة رجل أو ولد واحد أن تطبع من البفتة بأربعة ألوان مقداراً فى الساعة يساوى ما كان يطبعه من قبل ٢٠٠ رجل[١] . وقبل اختراع آلة هويتنى للغزل سنة ١٧٥٣ كان فصل رطل من القطن عن البذور يتطلب عمل يوم فى المتوسط ، ولكن بفضل هذه الآلة تستطيع زنجية أن تنظف ١٠٠ رطل من القطن يومياً ، ثم زادت كفاية عملية الحلج بعد ذلك . لقد كان إنتاج رطل من القطن الشعر يتكلف ٥٠ سنتاً فأصبح يباع الآن بعشر سنتات ويدر ربحاً أكبر (أى ينطوى على مقدار أكبر من العمل الذى يؤدى بدون مقابل) . وفى الهند يتم الحلج بآداة يقال لها churce ونصفها آلة والنصف الآخر عدة يدوية ، ويستطيع بها رجل واحد وامرأة واحدة تنظيف ٢٨ رطلا فى اليوم . ومنذ سنوات قلائل اخترع الدكتور فوربس « شوركا » جديدة يستطيع بها رجل وطفل تنظيف ٢٥٠ رطلا . وإذا استخدمت الثيران أو القوة البخارية أو قوة الماء لإدارة هذه الآلة لاستطاعت ست عشرة منها تجرها الثيران أن تؤدى فى اليوم عملا كان يقوم به من قبل ٧٥٠ شخصاً[٢] . والمحراث البخارى الذى يتكلف ٣ بنسات فى الساعة يقوم بعمل ٦٦ رجلا يتكلفون ١٥ شلن فى الساعة . وإنى أعود إلى هذا المثال لكى أوضح لبساً فى الأمر . إن الشلنات الخمس عشرة أبعد من أن تكون تعبيراً بالنقود عن جميع العمل الذى يقوم به ٦٦ رجلا فى الساعة . فاذا كانت نسبة العمل الفائض إلى العمل الضرورى ٣٠٠٪ لأنتج هؤلاء فى ساعة واحدة قيمة قدرها ٣٠ شلناً مع أن معادل أجورهم أى ١٥ شلناً يمثل عمل ٣٣ ساعة فقط . لنفرض أن آلة تتكلف مقدار الأجور السنوية التى يتقاضاها ١٥٠ عاملا تحل محلهم أى ٢٠٠٠ جنيه مثلا فان هذا المبلغ ليس التعبير بالنقود عن عمل هؤلاء العمال المائة والخمسين والذى يضيفونه إلى الشىء الذى يتناولونه بعملهم . إن هذا المبلغ يعبر فقط عن ذلك الجزء من عمل السنة وهو الجزء الذى اشتغلوا خلاله لأنفسهم وتقاضوا عنه أجوراً . ومن جهة أخرى فالقيمة النقدية للآلة وهى ٣٠٠٠ جنيه تعبر عن كمية العمل المبذولة فى إنتاج الآلة بغض النظر عن النسب التى تمثل كلا من أجور العمال والعمل الفائض الذى يستحوذ عليه الرأسماليون . ونتيجة لذلك فبرغم أن الآلة تتكلف نفس المقدار من قوة العمل المتجسم فيها أقل بكثير دائماً من مبلغ العمل الحى الذى تحل محله[٣] .

---

(١) تؤدى الطباعة بالآلات إلى التوفير فى مواد الصباغة .

(٢) A paper reae by Dr . Watson, repoeter on products to the qovernment of India, pefore the Society of Arts, April 21, 1860 .

(٣) هذه العوامل العمياء (الآلات) ينتجها عمل أقل بكثير من ذلك الذى تحل محله ، حتى ولو كانت لها نفس القيمة النقدية » (ريكاردو ص ٤٠) .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

إذا نظرنا إلى الالات على أنها وسيلة لاغير لترخيص المنتج لكان حد استعمالها أن إنتاجها يتكلف أقل من العمل الذى يحل استخدامها محله وهـذا التحديد أضيق فيما يختص برأس المال وبما أن رأس المال لا يدفع ثمن العمل المبذول وإنما يدفع قيمة قوه العمل فان فائدة الالات بالنسبة لرأس المال يحد منها الفرق بين قيمة الآلة وقيمة قوة العمل التى تحل الآلة محلها . وبما أن تقسيم يوم العمل إلى عمل ضرورى وعمل فائض يتباين فى البـلاد المختلفة ، بل إنه ليختلف فى البلد الواحد فى فترات مختلفة أو يختلف أثناء الفترة الواحدة فى فروع مختلفة من الصناعة ، وبما أن الأجور الحقيقية التى يتناولها العامل قد تكون أحياناً دون قيمة قوته على العمل أو أعلى من هذه القيمة ـ تبع ذلك أن الفرق بين ثمن الالات وثمن قوة العمل التى تحل الالات محلها قد يتفاوت إلى حد كبير برغم ثبات الفرق بين كمية العمل اللازم لإنتاج الالة وبين كمية العمل الكلية التى تحل الالات محلها[1] . إلا أن الفرق الأول هو الذى نفقة إنتاج السلعة فى نظر الرأسمالى والذى يؤثر فى أعماله عن طريق ضغط المنافسة . وهـذا هو السبب الذى من أجله اليوم يحدث أحياناً اختراع آلات لا تستعمل إلا فى أمريكا الشمالية كما كانوا فى القرن السادس عشر يصنعون آلات فى ألمانيا لا يمكن استعمالها إلا فى هولنده ، وكما حـدث من أن اختراعات فرنسية كثيرة فى القرن الثامن عشر لم تستعمل إلا فى انجلترا وحـــدها . حينما تستخدم الالاب فى البلاد الأقدم عهـداً فى بعض فروع الصناعة فإنها تخلق فائضاً من العمل فى فروع أخرى بحيث أنه فى الأخيرة تهبط الأجور دون قيمة قوة العمل الأمر الذى يعوق استخدام الالات ويجعله مستحيلا من وجهة نظر رأس المال (الذى لا يتأتى ربحه من إنقاص العمل المستخدم وإنمـا من إنقاص العمل الذى يدفع عنه أجر) . وفى السنوات الأخيرة تناقص استخدام عمل الأطفال فى بعض فروع الصناعة الصوفية بانجلترا ، بل وانتهى تماماً فى حالات متفرقة . فما السبب فى هذا ؟ السبب أن قوانين المصانع تتطلب استعمال نوبتين من الأطفال تعمل أولاهما ٦ ساعات ، وثانيتهما ٤ ساعات أو تتطلب تشغيل كل منهما ٥ ساعات ولكن الوالدين يرفضون أن يبيعوا أطفالهم ممن يعملون نصف الوقت بأقل مما يدفع لمن يشتغلون الوقت الكامل ، ولهـذا السبب حلت الالات محل الأولين[2] . وقبل تحريم استخدام عمل

---

(١) لهذا يكون مجال استخدام الالات فى المجتمع المشاعى مختلفاً جداً عنه فى المجتمع البورجوازى .

(٢) „ يحتفظ الذين يستخدمون العمل بنوعين أو بمجموعتين من الأطفال ممن دون الثالثة عشرة ... والواقع نجد طائفة من رجال الصناعة وهم أصحاب صناعة غزل الصوف نادرا ما يستخدمون الآن الأطفال الذين تقل أعمارهم عن الثالثة عشرة ، وبمعنى اخر الذين يشتغلون نصف الوقت . وقد أدخل هؤلاء الات جديدة متحسنة من مختلف الأنواع تحل تماماً محل الأطفال (دون ١٣) ، وسأذكر عملية واحدة للدلالة على هـذا النقص فى عدد الأطفال ==

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

النساء والأطفال ممن هم دون العاشرة من أعمارهم فى المناجم لم ير الرأسماليون ما يتنافى مع الآداب العامة فى استخدام النساء والفتيات العاريات وإلى جانب الرجال أحيانا ، بل وجدوا هذا الأمر فى صالحهم المالى ولم يقلعوا عنه ويلجأوا إلى الالات إلا بعد صدور هذا التحريم. لقد اخترع الأمريكيون آلة لقطع الحجر ولكن الانجليز لا يستعملونها لأن ذلك «التعس»[1] الذى يقطع الحجر بيده يتقاضى أجراً على نسبة صغيرة من عمله بحيث أن الالات تزيد من تكاليف الإنتاج بالنسبة إلى الرأسمالى[2] . ولا يزال القوم فى انجلترا يستخدمون النساء أحيانا فى جر القوارب التى تسير فى القنوات[3] . ذلك لأنهم يدركون فعلا مقدار العمل اللازم لإنتاج الخيل والالات بينما نفقة الإبقاء على النساء فى صفوف الجانب الفائض من السكان ضئيلة جداً . وهكذا لا نجد فى بلد آخر خلاف انجلترا مثل هذا التبديد لقوة عضلات الإنسان مع أن هذه البلاد موطن الالات .

(٣) النتائج الأولية للصناعة الالية بالنسبة الى العامل

أوضحنا أن الانقلاب فى أدوات العمل كان نقطة الابتداء فى الصناعة الكبيرة . وأن هذه الأدوات أصابها أعظم انقلاب فعال فى ظل نظام الصناعة الالية . وقبل أن نبحث كيفية اندماج المادة الانسانية فى هذا الجهاز الموضوعى يحسن بنا أن ندرس بعض ما ترتب على الانقلاب المذكور من آثار بالنسبة إلى العامل .

— استحواذ رأس المال على قوة عمل اضافية .

استخدام النساء والاطفال

بقدر ما تقضى الالات على الحاجة إلى بذل مقدار كبير من القوة العضلية فانها تصير وسيلة لاستخدام العمال من ذوى القوة الجثمانية الضئيلة نسبيا وممن لم يكتمل نموهم الجثمانى

= وفيها ترتب على إضافة جهاز يقال له Piecing-machine إلى الالات الموجودة يمكن الان لشخص (تزيد عمره عن الثالثة عشرة) أن يقوم بعمل ٦ أو ٤ من الذين يشتغلون نفس الوقت ... وقد شجع نظام نصف الوقت اختراع Piecing machine»، تقارير ... ٣١ أكتوبر ١٨٥٨ .

(١) كلمة ,, تعس ،، تستعمل فى قاموس الاقتصاد السياسى الانجليزى للدلالة على العامل الزراعى !

(٢) ,, يمكن أحياناً ألا تستعمل الالات حتى يرتفع العمل ،، (ويقصد بالعمل الأجور) — ريكاردو (مصدر سابق ص ٥٧٩) .

(٣) تقرير مؤتمر العلوم الاجتماعية بادنبرة ، أكتوبر ١٨٦٣ .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

ولهذا كان عمل النساء والأطفال الفصل الأول فى كتاب الاستغلال الرأسمالى للآلات ! هذا البديل القوى عن العمل والعمال سرعان ما تحول إلى أداة لزيادة عدد العمال الأجراء عن طريق استخدام كافة أفراد أسرة العامل بدون تمييز من حيث الجنس والسن ، واغتصب العمل الشاق من أجل الرأسمالى الوقت المعد للعب الأطفال وللمرأة كى تؤدى وظائفها المنزلية ووقتها الفراغ فى البيت (١) .

كانت قيمة قوة العمل يعينها وقت العمل الذى يلزم للابقاء على الأسرة العاملة لا الذى يلزم للمحافظة على العامل البالغ . وإذ تلقى الآلات بأفراد أسرة العامل فى سوق العمل فانها توزع قيمة قوة عمل الرجل عليهم وبذا تهبط بقيمتها . قد يكلف شراء قوة عمل أسرة من أربعة أفراد أكثر مما كان يتكلفه قبلا شراء قوة عمل رب الأسرة . ولكن المشترى يشترى أربعة أيام عمل بدلا من يوم واحد فيهبط الثمن بنسبة مبلغ زيادة فائض عمل الأربعة على فائض عمل الفرد الواحد . وعلى ذلك فلكى تتمكن الأسرة من الحياة يتعين عليها لا أن تعمل فحسب بل وأن تقدم العمل الفائض لرأس المال . هكذا نرى أن الآلات إذ تزيد من مقدار المادة البشرية وهى المجال الأساسى للاستغلال الرأسمالى(٢) ، فانها تعمل فى الوقت نفسه على زيادة درجة هذا الاستغلال .

---

(١) أثناء الأزمة القطنية التى سببتها الحرب الأهلية الأمريكية بعثت الحكومة البريطانية بالدكتور ادورد سميث إلى لانكشير وشيشير وغيرهما للبحث فى الحالة الصحية لعمال صناعة القطن ، وقد رفع تقريره الذى أشار فيه إلى أنه من الوجهة الصحية وبغض النظر عن إبعاد العمال عن جو المصنع ، كان للأزمة مزايا عدة فقد توافر للأمهات الوقت لارضاع أطفالهن بدل تسميم هؤلاء البؤساء باعطائهم Godfrey's Cordial ، وتوافر لهم الوقت لتعلم الطهى وإن كان تعلمهم هذا الفن جاء فى وقت لم يجدن فيه ما يؤكل وهو الأمر الذى يؤسف له ! ولكن التقرير أوضح كيف أن رغبة رأس المال فى الامتداد الذاتى جعلته يضم إلى سلطانه العمل الذى كان من الواجب تحصيصه للبيت والأسرة . وقد كان للأزمة ميزة أخرى إذ تعلم بنات العمال الحياكة فى مدارس خاصة . وهكذا كان لا بد من ثورة أمريكية وأزمة عالمية كى يتسنى لبنات الطبقة العاملة اللاتى يصنعن الغزل للعالم كله أن يتعلمن كيف يحكن الملابس .

(٢) ترتب على استخدام النساء بدل الرجال والأطفال مكان البالغين حدوث زيادة كبيرة فى عدد العمال . فقد حلت بنات ثلاث يتراوح أجر الواحدة منهن فيما بين ٦ ، ٨ شلنات محل رجل بالغ أجره بين ١٨ ، ٤٥ شلناً فى الأسبوع Thomas De Quincey, The Logic of Political Economy. London, 1845, note to p. 147.

وإذ من غير الممكن الاستغناء عن بعض وظائف الأم تماماً كتربية الأطفال وإرضاعهم تعين إيجاد وسائل تحل على هذه الوظائف إلى حدما ، وكذلك تعين الحصول على العمل اللازم للاسرة من حيث الحياكة وإصلاح الملابس عن

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

وحتى من وجهة الشكل غالباً ما يشبه الطلب على عمل الأطفال الطلب على العبيد السود كما تعبر عنه إعلانات الصحف الأمريكية . ومن الأمثلة لذلك ما يقوله أحد مفتشى المصانع الانجليز « استرعى نظرى إعلان فى صحيفة محلية بمدينة من أهم المدن الصناعية فى منطقة عملى وفيما يلى صورة من هذا الإعلان (مطلوب ١٢ - ٢٠ من الأحداث ممن لا يبدو عليهم أنهم دون الثالثة عشرة من العمر - الأجر الأسبوعى ٤ شلنات - تقدم الطلبات الخ) [١] والعبارة التى وضعنا تحتها خطاً تشير إلى حقيقة كون قانون المصانع ينص على عدم اشتغال من هم دون الثالثة عشرة من أعمارهم سوى ست ساعات فى اليوم . ولما كان الطبيب المختص هو الذى يحدد سن الطفل لهذا يطلب صاحب المصنع أحداثاً يبدو عليهم أنهم يزيدون عن الثالثة عشرة من العمر . وقد لوحظ فى الإحصائيات الانجليزية عن العقدين الأخيرين هبوط مفاجىء يدعو إلى الدهشة فى عدد الأطفال ممن هم دون الثالثة عشرة ، ويقول مفتشو المصانع إن هذه الظاهرة راجعة إلى الأطباء المختصين الذين لا يقدرون أعمار الأحداث على حقيقتها وذلك رغبة منهم فى مساعدة أصحاب الأعمال وموافقة رغبات الوالدين . وفى حى بنتال جرين السيء السمعة بلندن يعقد سوق فى صباح أيام الإثنين حيث يتقدم أطفال من كلا الجنسين ومن سن التاسعة فما فوق يعرضون أنفسهم للايجار لدى أصحاب صناعة الحرير فى لندن . « والأجر المعتاد شلن وثمانى بنسات فى الأسبوع (وهذا نصيب الوالدين) وبنسان لنفسى وللشاى . ويسرى العقد لمدة أسبوع .

إن المنظر الذى نشاهده فى هـــذه السوق واللغة التى تسمعها هناك مما يدعو إلى الخجل تماما[٢] . ولا يزال يحدث فى انجلترا أن تأخذ النساء الأطفـال من بيت العمل ويؤجرونهم مقابل شلنين وست بنسات فى الأسبوع[٣] . وبرغم التشريع لا يزال بانجلترا ألفا ولد على

=طريق شراء السلع الجاهزة . ونتيجة لهذا يتضمن خفض المجهود فى العمل المنزلى زيادة فى إنفاق النقود ، وبذلك تزيد نفقات إنتاج أسرة العامل حتى توازن الدخل المتزايد . وفضلا عن هـذا يصبح من المستحيل الاقتصاد والقصد فى استخدام غذاء الأسرة وإعداده . هذه المسائل التى يخفيها الاقتصاد السياسى الرسمى عن الأنظار تجد أدلة وافرة عليها فى تقارير مفتشى المصانع ولجنة تشغيل الأطفال ، وأهم من ذلك فى التقارير عن الصحة العامة .

(١) A. Redgrave, in Reports of Inspectors of Factories, October 31 1858, p. p. 40 - 41

(٢) Children's Employment Commission, Fifth Report, London, 1866, p. 81 note 31

(٣) Ibid, Third Report, London, 1864, p. 53, note 15.

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

الأقل باعهم والدوهم كى يقوموا بمهمة آلات حية لكنس المداخن وذلك برغم توافر العدد التى تقوم مقام هؤلاء العمال الأحياء(١). لقد أحدثت الآلات ثورة فى العلاقات القانونية بين شارى قوة العمل وبائعها . وهى الثورة التى بسببها فقدت العملية كلها حتى مظهر التعاقد بين أفراد أحرار ، وقد اتخذ البرلمان الانجليزى من هذا التغيير ذريعة يبرر بها تدخل الدولة فى نظام المصانع . وحينما يحدد التشريع عمل الأطفال بست ساعات فى صناعة ما لم ينفذ فيها هذا القيد من قبل ؛ ترتفع أصوات أرباب المصانع بالشكوى ويعلنون أن بعض الوالدين يسحبون أطفالهم من الصناعة الخاضعة للتنظيم حتى يبيعوهم حيثما تسود « حرية العمل » ويقصد بهذا الأماكن التى يرغم فيها أطفال لما يبلغوا الثالثة عشرة من أعمارهم على أداء العمل كما يفعل البالغون وبذلك يحصلون على أجر أفضل ولكن لما كان رأس المال كالعدة التى تستخدم فى التسوية بمعنى أنه يعتبر من حقوقه الطبيعية أن توجد المساواة فى حالات استغلال العمل ، لهذا يصبح تقييد عمل الأطفال فى فروع من الصناعة سبباً فى تعميم نفس الشىء فى الفروع الأخرى .

سبق أن ذكرنا الانحطاط الجثمانى الذى يصيب الأطفال وصغار السن والعاملات وهو الانحطاط الناجم من استخدام الالات أولا بصفة مباشرة فى المصانع التى تقوم لممارسة الانتاج بالالات ، وثانياً بطريقة غير مباشرة فى كل فرع من فروع الصناعة يخضع للاستغلال من جانب رأس المال . ويكفى الان أن نشير هنا إلى نقطة واحدة وهى ارتفاع نسبة الوفيات بين صغار أطفال الطبقة العاملة بدرجة مخيفة . ففى انجلترا ١٦ من مراكز التسجيل حيث نسبة الوفيات بين الأطفال الذين فى السنة الأولى من العمر لا تزيد عن ٩٠٠٠ سنوياً فى كل ١٠٠,٠٠٠ (وهى ٧٠٤٧ فقط فى جهة واحدة) ، وفى ٢٤ جهة النسبة أكثر من ١٠,٠٠٠ ولكنها دون ١١,٠٠٠ ! وفى ٣٩ جهة بين ١١,٠٠٠ ، ١٢,٠٠٠ ، وفى ٤٨ جهة بين ١٢,٠٠٠ ، ١٣,٠٠٠ ، وفى ٢٠ جهة أكثر من ٢٠,٠٠٠ ، وفى ٢٥ جهة أكثر من ٢١,٠٠٠ ؛ وفى ١٧ جهة أكثر من ٢٢,٠٠٠ ، وفى ١١ جهة أكثر من ٢٣,٠٠٠ ، كما تزيد النسبة عن ٢٤,٠٠٠ فى هو وولفرهمبتن وآشتن لين وبرستن ، وأكثر من ٢٥,٠٠٠ فى نوتنام وستكبورت وبرادفورد ؛ ٢٦,٠٠٠ فى وسبتش ، ٢٦,١٢٥ فى منشستر(٢) . وجاء فى تحقيق طبى رسمى أجرى سنة ١٨٦١ أنه إذا أسقطنا من حسابنا الأحوال المحلية فان ارتفاع نسبة الوفيات

(١) Children's Employment Commission, Fifth Report, p. 22 note 137.

(٢) Sixth Report on Public Health, London 1864, p. 34.

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

يرجع فى الأغلب إلى تشغيل النساء وبعيداً عن بيوتهن مما يترتب عليه إهمال الأطفال وسوء تربيتهم ، كما يعزى كذلك إلى عدم ملاءمة الغذاء ونقصه وإعطاء المخدرات الخ . وإلى ضعف فى العاطفة يدفع الأمهات أحياناً إلى تجويع أطفالهن بل وتسميمهم(١) . « ومن جهة أخرى تجد نسبة الوفيات منخفضة جداً فى الجهات الزراعية حيث استخدام النساء فى أدنى حد(٢) ، وقد دل تحقيق جرى سنة ١٨٦١ على أمر لم يتوقعه أحد ذلك أنه فى بعض الجهات الزراعية البحتة المجاورة لبحر الشمال كانت نسبة الوفيات بين الأطفال الذين لم يتجاوزوا السنة الأولى من أعمارهم مساوية لمثيلتها فى أسوأ المناطق التى تقوم فيها المصانع . إزاء هذا أرسلت الحكومة الدكتور جوليان هنتر لإجراء تحقيق فى تلك الجهة يتضمنه « التقرير السادس عن الصحة العامة(٣) » ، وكان المظنون حتى ذلك العهد أن هذه الظاهرة راجعة إلى الملاريا وغيرها من الأمراض التى تتميز بها الجهات المنخفضة والتى تكثر بها المستنقعات ، ولكن أظهر التحقيق العكس إذ اتضح أن السبب الذى قضى على الملاريا وهو تحويل الأراضى التى كانت مستنقعات فى الشتاء ومراعى جافة فى الصيف إلى أراض لزراعة القمح ، كان فى الحقيقة السبب فى ارتفاع نسبة الوفيات بين الأطفال إلى هذه الدرجة غير العادية(٤) . وقد أجمع على هذا الرأى الأطباء المحليون الذين سألهم الدكتور هنتر . لقد سبب الانقلاب فى أسلوب الزراعة إدخال النظام الصناعى ، وكانت النساء المتزوجات اللاتى يعملن فى جماعات مع الأولاد والبنات يؤجرن للفلاح عن طريق رجل يقال له « المتعهد » إذ يتعاقد عن جماعة بأسرها . « وأحياناً تسافر هذه الجماعات إلى أماكن تبعد أميالا عن القرية التى يقطنها ، وإنك لتلقاهم صباحاً ومساء وقد ارتدين ملابس قصيرة مع البلاطى والأحذية وأحياناً السراويل وتبدو عليهم القوة والصحة بشكل مدهش ولكن تبدو عليهن تلك الروح المعتادة من فساد الخلق وعدم الاهتمام بالآثار الخطيرة التى يجلبها حبهم لهذه الحياة العاملة المشتغلة على الأطفال البؤساء

---

(١) إن تحقيق سنة ١٨٦١ « أظهر أنه بينما فى الظروف التى سبق وصفها يهلك الأطفال الصغار بسبب الاهمال وسوء التربية المترتبين على الأعمال التى تقوم بها أمهاتهم ، فان الأمهات يصبحن إلى حد مؤلم وقد فقدن طبيعتهن إزاء نسلهن ، فلا يعبأن كثيراً بموتهم وأحياناً .... يلجأون إلى أساليب مباشرة لتحقيقه » — التقرير السادس عن الصحة العامة (لندن ١٨٦٤) .

(٢) شرحه ص ٤٥٤

(٣) Reports by Dr. Henry Julian Hunter on the Excessive Mortality of Infants in Some Rural Districts of England. p.p. 454-463.

(٤) التقرير السادس عن الصحة العامة (لندن ١٨٦٤) ص ٣٥ ، ٤٥٥ — ٤٥٦ .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

الذين يتأملون ويذوون فى البيت ، (١) فهنا تظهر كافة الظواهر التى تتميز بها مناطق المصانع مع فارق واحد وهو أن وأد الأطفال سراً أكثر حدوثاً وعادة إعطاء الأطفال جرعات من المخدر أوسع انتشاراً(٢) . وقد كتب الدكتور سيمون الموظف الطبى بالمجلس الخصوص والمشرف على تحرير « التقارير عن الصحة العامة » يقول « لعل ما أعلمه عن هذه الشرور يبرر الشك (العميق) الذى أنظر به إلى التوسع فى استخدام النساء البالغات فى الصناعة (شرحه ص ٣٧) وقال مفتش المصانع المستر بيكر فى تقرير له « إنه ليكون لمن سعادة المناطق الصناعية فى انجلترا حقاً لو حرم على أية امرأة متزوجة لها أسرة العمل فى أى مصنع من مصانع المنسوجات » (تقارير ٣١-١٠ - ١٨٦٢ ص ٢٩ - كان بيكر فى وقت ما طبيباً) .

وإذ أسهب إنجلز وغيره من الكتاب فى وصف الانحطاط الخلقى الناجم من استغلال النساء والأطفال فانى أكتفى بالإشارة العابرة . أما عن الجدب الفكرى الذى ينجم بطريقة غير طبيعية من تحويل مخلوقات آدمية غير ناضجة إلى آلات تصنع فائض القيمة (وهذا الجدب حالة متميزة بوضوح عن الجهل الطبيعى الذى يجعل الذهن فارغاً دون أن يقضى على خصبه الطبيعى ومقدرته على النمو) - أقول إن هذا الجدب أرغم البرلمان البريطانى فى النهاية على أن يصبر على مصاحبة التعليم الأولى لاستخدام الأطفال دون سن ١٤ « الانتاجى » وذلك فى فروع الصناعات الخاضعة لقوانين المصانع . وإن روح الاستغلال الرأسمالى لتلمع واضحة فى الطريقة المضحكة التى صيغت بها ما تعرف فى قوانين المصانع باسم مواد التعليم ، وذلك لعدم وجود نظام إدارى فأصبح هذا التعليم الاجبارى وهماً ، وهذه الروح تدل عليها معارضة أصحاب المصانع للمواد هذه وكذلك الحيل التى يعمدون إليها للتهرب فى القانون . ويقع اللوم فى هذا على السلطة التشريعية وحدها لإصدارها هذا القانون الخادع المطاط الذى بينما ينص على تعليم الأطفال الذين يشتغلون بالمصانع لا يتضمن أى نص يضمن تحقيق هذا الهدف اللهم

---

(١) Reports by Dr. Henry Julian Hunter on the Excesive Mortality of Infants in some Rural Districts of England. p. 456,

(٢) هناك زيادة مطردة بين العمال والعاملات فى استهلاك الأفيون ، والحال لا يختلف فى المناطق الزراعية عنه فى الجهات الصناعية وذلك فى نفس البلد الواحد . « إن توسيع نطاق بيع الأفيون ... هو الهدف العظيم الذى يرمى إليه بعض تجار الجملة النشيطين ، وهذه المادة تعتبر فى نظر بائعى العقاقير فى المقدمة بنسبة غيرها » (شرحه ص ٤٥٩). والأطفال الذين تعودوا على تناول جرعات من هذه المادة « تضاءلت أجسامهم حيث كبروا وصاروا رجالا ، أو أصبحوا أشبه « بالقردة » (شرحه ص ٤٦٠) — هكذا نرى كيف انتقمت الهند والصين من انجلترا .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

إلا بالقول بأن الأطفال يوضعون فى أيام معينة من كل أسبوع ولساعات معينة (قدرها ثلاث) فى اليوم داخل مكان يقال له مدرسة وأن على رب العمل أن يتسلم كل أسبوع شهادة موقعاً عليها من المدرس أو المدرسة ممن يتولون هذا الأمر »[١] . وكثيراً ما حدث قبل صدور قانون المصانع المعدل سنة ١٨٤٤ أن وقع المعلمون والمعلمات على شهادة الانتظام فى الدراسة برسم علامة الصليب لأنهم كانوا يجهلون القراءة أنفسهم . « وحدث مرة أن زرت مكاناً يقال له مدرسة ويمنح شهادات تدل على انتظام الأطفال وقد راعنى جهل المعلم فقلت له : اسمح لى ياسيدى أن أسأل إن كنت تعرف القراءة ؟ فأجاب : إلى حدما ! ولكى يبرر حقه فى منح مثل هذه الشهادات أضاف قائلا : وعلى أى حال فانى خير من تلاميذى . ولما كان قانون سنة ١٨٤٤ فى صدد الاعداد لم يفت المفتشين أن يبينوا الحالة المخجلة للمدارس والتى كانوا مضطرين إلى الموافقة على شهاداتها التى تمنحها طبقاً للقانون ، وقد عمدوا منذ صدور القانون على أن يحتموا أن يكتب المعلم الأرقام واسمه ولقبه بخط يده »[٢] . ويذكر سير جون كيد مفتش المصانع باسكتلنده بعض تجارب مماثلة عرضت له « كانت المسز آن كيلين صاحبة أول مدرسة توجهنا لزيارتها . وحين طلبت منها هجاء اسمها أسرعت بذلك فأخطأت إذ بدأت اسمها بالحرف C بدلا من K ثم صححت خطأها فى الحال قائلة إن اسمها يبدأ بالحرف التالى . ولما ألقيت نظرة على توقيعها فى الشهادات لاحظت أنها تتهجى اسمها بطرق مختلفة ، بينما لم يدع خطها موضعاً للشك فى عدم صلاحيتها للتدريس . وقد اعترفت بنفسها أنها لا تستطيع استعمال السجل... وفى مدرسة ثانية رأيت غرفة الدراسة ١٥ قدم فى الطول ، ١٠ أقدام فى العرض ، وتضم ٧٥ طفلا ينطقون بشىء لا يمكن فهمه[٣] ثم قال بعد ذلك « ولا يقتصر الأمر على هذه الأماكن التعسة حيث يمنح للأطفال شهادات بالحضور بينما لم يحصلوا على تعليم له قيمته ، بل إن المدارس التى يتوافر فيها مدرس كفء تتحد عوامل تجعل عمله غير ذى نفع ومن ذلك ازدحام الأطفال من كافة الأعمار إذ تبدأ أعمارهم من الثالثة ، كما يرجع الأمر كذلك إلى بعاسة الحياة التى يحياها هذا المعلم إذ اعتماده على البنسات التى يحصل عليها من أكبر عدد من الأطفال يستطيع زجهم فى هذا الفراغ . يضاف إلى هذا قلة الأثاث ونقص

---

(١) Leonard Horner, Reports of Inspectors of Factories, June 30 1857, p. 17.

(٢) Ibid, October 31, 1855, p. p. 18 - 19

(٣) Sir John Kincaid, Reports of Inspectors of Factories, October 31, 1858, p. p. 31—32.

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

الكتب والمواد الضرورية للتدريس ، والأثر السيء من هذا الجو الخانق الصاخب . لقد زرت مدارس كثيرة حيث رأيت صفوفاً من الأطفال لا يعملون شيئاً مطلقاً وهذا ماتسميه الشهادة المدرسية حضوراً وتتحدث البيانات الإحصائية عن هؤلاء الأطفال بأنهم متعلمون(١) ويبذل أصحاب المصانع فى اسكتلنده قصارى جهدهم كى يستغنوا عن خدمات الأطفال الذين يتعين توجههم إلى المدرسة « ولا يحتاج الأمر إلى حجج أخرى كى تثبت أن عدم ميل أصحاب المصانع للقانون يحرم الأطفال من كلا العمل والتعليم الذى ينص عليه قانون المصانع(٢) . وتبدو المسألة فى صورة محزنة أليمة مزعجة فى المصانع التى تقوم بطبع المنسوجات القطنية وغيرها ، وهذه المصانع تخضع لقانون مصانع خاص ينص على ما يأتى « يجب قبل التحاق كل طفل بعمل طبع أن يكون قد حضر المدرسة ٣ يوماً على الأقل وما لايقل عن ١٥٠ ساعة وذلك خلال الشهور الست السابقة لأول يوم يتسلم فيه العمل ، وفي خلال فترة العمل بمحال الطبع يجب عليه أن يتوجه إلى المدرسة مدى ٣٠ يوماً و ١٥٠ ساعة خلال كل فترة تالية طولها ستة أشهر .... يكون التوجه إلى المدرسة فيما بين ٨ صباحاً ، ٦ مساء . أى دراسة تقل عن ساعتين ونصف الساعة أو تزيد عن ٥ ساعات فى اليوم الواحد لن تحسب من بين الساعات الخمسين والمائة . فى الأحوال العادية يحضر الطفل إلى المدرسة فى الصباح وبعد الظهر مدى ٣٠ يوماً فى كل منها ٥ ساعات يومياً ، فاذا انقضت المدة بعد إتمام الساعات الخمسين والمائة فانهم يعودون إلى عملهم حيث يبقون إلى انقضاء الشهور الست حيث تبدأ دورة ثانية من التوجه إلى المدرسة ويلازمون الدرس حتى يدركوا المطلوب .. . وكثير من الأطفال ممن حضروا عدد الساعات المطلوب ، حين يعودون إلى المدرسة بعد انقضاء ستة شهور فى العمل يكونون فى نفس الحالة التى كانوا عليها لما التحقوا بالمدارس كأولاد بمصانع الطبع أى أنهم فقدوا ما تعلموه فى الفترة الأولى التى التحقوا خلالها بالمدرسة ... وفى مصانع طباعة أخرى تتوقف مواظبة الأطفال فى المدرسة على مطالب العمل فى المؤسسة ، يتكون عدد الساعات المطلوب كل ستة شهور بواسطة دورات كل منها ما بين ٣ ، ٥ ساعات فى وقت واحد وقد تمتد مدى الشهور الست كلها ... فمثلا قد يذهب الطفل إلى المدرسة فى أحد الأيام من ٨ إلى ١١ صباحاً وفى يوم آخر من ١ إلى ٤ مساء ، وقد لا يذهب الطفل إلى المدرسة ثانية مدى أيام عدة بعدها يحضر فيما بين الثالثة والسادسة مساء . ثم يواظب على الحضور مدى ٣ أو ٤

---

(١) Leonard Horner, Reports etc. October 31, 1857, p,p. 17—18

(٢) Sir, John Kincaid, etc. October 31, 1856, p. 66.

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

أيام أو أسبوع ، ثم لا يتوجه إلى المدرسة ثلاثة أسابيع أو شهراً ، وبعد ذلك فى الأيام وأثناء الساعات التى يراها صاحب العمل ملاءمة ، وهكذا يتأرجح الطفل بين العمل والمدرسة حتى يتم الساعات الخمسين والمائة »(١) .

وإذا تمكنت الالات من استخدام نسبة ساحقة من النساء والأطفال فانها استطاعت أخيراً أن تحطم المقاومة التى واجه بها العمال الذكور خلال عهد المصانع اليدوية لا ستبداد رأس المال(٢) .

ب — اطالة يوم العمل

برغم أن الآلات أقوى وسيلة لزيادة إنتاجية العمل ففى الصناعات التى تبدأ بفرض سلطانها عليها تصبح فى أيدى رأس المال أقوى أداة لإطالة يوم العمل أكثر من حدوده التى تفرضها الطبيعة . ويرجع هذا إلى أنها من جهة تخلق أحوالا جديدة تسمح لرأس المال أن يرخى العنان الكامل لما له من ميول لاتتغير فى هذا الاتجاه ، كما أنها من جهة أخرى تهيء دوافع جديدة تزيد من نهمه فى استغلال عمل الغير .

ونلاحظ أولا فى الآلات أن حركات أدوات العمل تكتسب حياة مستقلة خاصة بها تقف إزاء حياة العامل . إن الآلات نوع من حركة دائمة صناعية قد تظل تعمل بدون توقف إن

---

(١) A. Redgrave, Reports of Inspectors of Factories, October 31, 1857, p.p. 41—42. — وفى الصناعات التى نفذ فيها قانون المصانع الاصلى (لا القانون المشار إليه فى النص والمتعلق بمصانع الطبع) أمكن التغلب إلى حد ما على العقبات التى كانت قائمة فى سبيل تنفيذ المواد الخاصة بالتعليم . وفى الصناعات غير الخاضعة للقانون لا تزال السيادة لوجهة نظر المستر J. Geddes أحد أصحاب مصانع الزجاج ، وقد قال للمستر هوايت أحد أعضاء لجنة التحقيق ,, يبدو لى أن الشطر الأكبر من التعليم والذى تتمتع به جانب من الطبقة العاملة خلال السنوات القلائل الماضية شر ، وهو خطير الأثر إذ يجعلهم مستقلين ،، . لجنة استخدام الأطفال ، التقرير الرابع ، لندن ١٨٦٥ ص ٢٥٨ .

(٢) حدثنى المستر E أحد رجال الصناعة أنه استخدم الاناث فقط لتشغيل الأنوال البخارية ... وهو يؤثر فى المتزوجات وبخاصة أولئك اللاتى لهن أسرات تعتمد عليهن ليعلنها ، فهؤلاء على قدر كاف من الانتباه والمرونة أكثر من غير المتزوجات ، وهن مضطرات إلى بذل أقصى ما لديهن من جهد حتى يحصلن على ضروريات . وهكذا يساء تحويل فضائل المرأة إلى ما فيه إيذاؤها ، وهكذا نجد أن كل ما فى طبيعتها من مراعاة للواجب ومن رقة يستخدم وسيلة لاسترقاقها وإيلامها ،، Ten-hours Factory Bill, a Speech of Lord Ashley, March, 15 London, 1844, 20

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

لم تصطدم ببعض العوائق من جانب مساعديها الآدميين ، ومن هذه العوائق نواحى الضعف الجثمانى فيهم وكذلك إرادتهم . وللالات عن طريق الرأسماليين وبصفتها رأس مال شعور وإرادة ، وعلى ذلك فالذى يحركها دافع كامن فيها يرمى إلى أن يخفض إلى الحد الأدنى المقاومة التى تلقاها من القيود الطبيعية والمرنة برغم ذلك والتى تتوافر فى المادة البشرية التى تعمل الآلات عن طريقها (١). وفضلا عن هذا فمقاومة هذه المادة البشرية تقلل منها السهولة الظاهرية التى يتميز بها العمل بواسطة الالة ، وكذلك يقلل منها استخدام النساء والأطفال وهم أكثر مرونة وأشد طاعة من الرجال (٢).

رأينا أن إنتاجية الالات تتناسب تناسباً عكسياً مع حجم القيمة التى تنقلها الالة إلى السلعة التى تم صنعها . فكلما غالت حياة الالة عظم مقدار المنتجات التى تنقل الالة قيمتها اليه وبذلك يقل ذلك القدر من قيمتها المنقول إلى السلعة الواحدة . وواضح أن الحياة العامة للآلة تتوقف على طول يوم العمل ، أو مدى عملية العمل اليومية مضروبا فى عدد الأيام التى تجرى فيها.

ولا يتماثل بلى الالة بدقة حسابية مع الوقت الذى تستعمل فيه . وحتى لو حدث ذلك فان الالة التى تعمل ١٦ ساعة فى اليوم خلال ٧½ سنوات تعمل خلال نفس الفترة وتنقل إلى المنتج الكلى نفس المقدار من القيمة كما لو أنها اشتغلت فقط ٨ ساعات فى اليوم لمدة ١٥ سنة ، ولكن فى الحالة الأولى تكون السرعة التى يعاد بها إنتاج قيمة الالة ضعفها فى الحالة الأخيرة ،

(١) ,,منذ أن عم استخدام الآلات الكثيرة الكلفة استغلت الطبيعة البشرية إلى أكثر من متوسط قوتها ،،

Robert Owen : Observations on the Effects of the Manufacturing System الطبعة الثانية لندن ١٨١٧ .

(٢) ان الانجليز الذين يميلون إلى أن يعدوا الشكل الظاهرى للشىء سبباً له يقولون إن طول يوم العمل فى المصانع نتيجة مترتبة على الحملة الواسعة لخطف الأطفال والتى قام بها الرأسماليون فى بيوت العمل وملاجىء الأيتام خلال العهد الأول من نظام المصانع ، وهى الحملة التى زودتهم بمادة بشرية وفيرة لا تبدى مقاومة . إليك ما يقوله فيلد (من أرباب المصانع) ,, واضح أن ساعات العمل الطويلة يسببها الحصول على عدد كبير من الأطفال اليتامى من مختلف أنحاء البلاد بحيث صار أصحاب الأعمال فى غير ذى حاجة إلى العمال ، وبمجرد أن سادت عادة الحصول على هذه المواد الادمية التعسة بهذه الطريقة استطاعوا فرضها على جيرانهم بقدر أكبر من اليسر ،،

J. Fielden : The Curse of the Factory System, London, 1836 p, 11

ويحدثنا المفتش سوبدرز (تقارير سنة ١٨٤٤) عن عمل النساء فيقول ,, بين العاملات تجد بعض النسوة وقد اشتغلن أسابيع متوالية (مع استثناء أيام قلائل) من السادسة صباحاً حتى منتصف الليل ولم يكن سوى ساعتين لوجبات الطعام بحيث أن وقت الفراغ لهن ٦ ساعات يومياً خلال ٥ أيام وهو ما يحتجن إليه للتوجه إلى بيوتهن والنوم ثم العودة إلى العمل،،.

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

ويستطيع الرأسمالى بهذه الالة أن يضع فى جيبه فى ٧½ سنوات مقداراً من فائض القيمة يعادل مايحصل عليه فى ١٥ سنة لو استعملت الالة بنصف السرعة فقط ،

وبلى الالة المادى نوعان ؛ أولهما ناشىء عن استعمالها الفعلي كالقطعة النقدية تبلى من كثرة التداول . أما النوع الثانى فنتيجة لعدم الاستعمال كالسيف يصدأ وهو فى غمده . ويتناسب النوع الأول تناسباً مباشراً مع استعمال الالة ، بينما يتناسب النوع الأخير تناسباً عكسياً إلى حدما مع استعمالها (١).

وتتعرض الالة إلى جانب ذلك لما يقال له البلى الأدبى ، فهى تفقد قيمتها التبادلية بالنسبة التى يمكن بها الحصول على آلات مماثلة بسعر أرخص ، أو بنسبة المنافسة التى تتعرض لها من جانب آلات أخرى خير منها صنعة (٢). ففى كلا الحالتين لاتعود قيمتها تتجدد بالمقدار الفعلى من وقت العمل الضرورى الذى تنطوى عليه ، وإنما يعينها مقدار وقت العمل الضرورى الذى تتطلبه إعادة إنتاجها أو إعادة إنتاج آلة أفضل منها . ومعنى هذا بعبارة أخرى أن قيمتها تهبط بدرجة أكثر أو أقل . فكلما قلت الفترة التى يعاد فيها انتاج قيمة الالة الكلية قل خطر تعرضها لهذا البلى الأدبى . وحينما تستخدم آلات لأول مرة فى أى فرع من فروع الانتاج فسرعان ماتتوالى الوسائل الجديدة التى يمكن بها اعادة انتاج مثل هذه الالات بسعر أرخص (٣) وكذلك تستخدم بالمثل التحسينات المختلفة الواحد بعد الاخر وهى تحسينات لاتمس فقط أجزاء منفصلة من الجهاز وإنما تشمل تركيب الالة بأكمله . ونتيجة لهذا نجد أنه فى الأيام الأولى من حياة الالة يكون فعل هذا الدافع على زيادة يوم العمل عظيم النشاط (٤).

وإذا تساوت الأشياء الأخرى فان استغلال عدد مضاعف من العمال خلال فترة معلومة

---

(١) ,, يسبب .. الأدى للاجزاء المتحركة الدقيقة فى الجهاز المعدنى ، وذلك نتيجة عدم العمل والنشاط ،، (يور ص ٢٨) .

(٢) يحدثنا غزال منشستر المشار إليه أن ما يحسب من أجل تآكل الالات ,, يراد به تغطية الخسارة التى تنجم دائماً من استبدال الالات قبل أن تبلى واحلال أخرى جديدة وأفضل صنعة مكانها ،، (التيمس ٢٦ نوفمبر ١٨٦٢)

(٣) قدروا بصفة إجمالية أن أول آلة تصنع تتكلف خمسة أمثال الالة الثانية باباج ص ٢١١ .

(٤) إن التحسينات التى أدخلت منذ زمن ليس بالبعيد على الاطارات اللازمة لعمل الشباك كانت كبيرة بحيث أن آلة فى حالة جيدة تكلفت ١٢٠٠ جنيه يمت بستين جنيهاً بعد ذلك بسنوات قليلة .... وقد توالت التحسينات بسرعة بحيث أن آلات كثيرة أهملت ولما يتم صنعها والسبب فى ذلك أن تحسينات جديدة جعلتها غير ذات منفعة ، — المصدر السابق ص٢٣٣ — فى تلك الفترة من التقدم السريع العاصف زاد صناع patent net يوم العمل من ثمانية ساعات إلى ٢٤ ساعة مع اتباع نظام العمل نوبتين (شرحه) .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

من يوم العمل يتطلب مضاعفة ذلك الجزء من رأس المال الثابت المستثمر فى الالات والمبانى وكذلك مضاعفة ذلك الجزء المستثمر فى المواد الأولية والمواد المساعدة الخ. هذا من جهة، ومن جهة أخرى إذا زاد طول يوم العمل أمكن مواصلة الانتاج على نطاق واسع مع بقاء مقدار رأس المال المستثمر فى الالات والمبانى بدون تغيير (١) وعلى ذلك لايقتصر الأمر على ازدياد القيمة الفائضة بل يقل كذلك ماينفق من المال فى سبيل الحصول عليها. ويحدث هذا بطبيعة الحال — بدرجة أكثر أو أقل — مع كل زيادة فى يوم العمل، ولكن التغيير أعظم وضوحا فى المثل الحالى نظراً لأن ذلك الجزء من رأس المال والذى تحول إلى أدوات عمل له الغلبة والسيادة بدرجة أعظم (٢). وتقدم الصناعة الآلية يحدد جانباً متزايداً باستمرار من رأس المال ويكون ذلك على شكل تتمكن فيه قيمته من التوسع الذاتى من جهة، كما أنه من جهة أخرى يفقد قيمته الاستعمالية وقيمته التبادلية حينما ينقطع اتصاله بالعمل الحى. لقد قال المستر آشورث — من كبار رجال صناعة القطن — للاستاذ و. سينيور مايلى: «حينما يضع العامل مجرفته كافا عن العمل لجعل خلال تلك الفترة رأس مال مقداره ثمانية عشر بنس عديم الفائدة، وحينما يغادر أحد عمالنا المصنع فانه يجعل دون نفع رأس مال كلفنا ١٠٠٫٠٠٠ من الجنيهات (٣)». أهذا خيال فقط؟ وهل يصح رأس مال تكلف ١٠٠٫٠٠٠ جنيه عديم النفع لحظة واحدة؟ ياله من أمر فظيع إذ يغادر أى من رجالنا المصنع! إن ازدياد المجال الذى تعمل فيه الالات (الأمر الذى يدركه سينيور كما علمه آشورث) يجعل الزيادة فى يوم العمل أمراً «مرغوبا فيه» (٤)

---

(١) «من الواضح أنه خلال تقلبات الأسواق واتساع الطلب وتقلصه المتتالبين تنشأ على الدوام حالات قد تجعل رجل الصناعة يستخدم مقداراً إضافياً من رأس المال السائر بدون أن يستخدم رأس مال ثابت ... إذا أمكن تشغيل مقادير اضافية من المادة الخام دون أن تترتب على ذلك نفقات إضافية للمبانى والآلات»

R. Torrens : On Wages and Combinations, London, 1834, p. 63.

(٢) إن ماذكرناه فى المتن إنما أوردناه بقصد إتمام البحث، ولكننى لن أعرض لمعدل الربح أى النسبة بين فائض القيمة ورأس المال الكلى المستثمر إلا فى الكتاب الثالث.

(٣) Senior : Letters on the Factory Act, London, 1837, pp. 13-14

(٤) «إن النسبة الكبيرة من رأس المال المتداول ورأس المال الثابت تجعل ساعات العمل الطويلة أمراً مرغوبا فيه». «وبازدياد استعمال الآلات الخ» تعظم الدوافع على إطالة ساعات العمل على أن ذلك الوسيلة الوحيدة التى يمكن بها أن نجعل نسبة كبيرة من رأس المال الثابت تغل ربحاً مجزياً» (شرحه ص ١١—١٣). «وثمت نفقات معينة تستمر قسيتها كما هى سواء استغل المصنع وقتاً قصيراً أو الوقت كله، ومن أمثال هذه النفقات الايجار والرسوم والضرائب —

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

ان الالات تنتج القيمة الفائضة ولايحدث هذا لأنها تعمل بطريقة مباشرة على خفض قيمة قوة العمل وبطريقة غير مباشرة على ترخيصها عن طريق ترخيص ثمن السلع التى تدخل فى اعادة انتاج هذه القيمة — نقول انها لاتنتج القيمة الفائضة لهذه الأسباب وحدها بل لأن الالات حين تستخدم لأول مرة فى احدى الصناعات تحول العمل الذى يستخدمه صاحبها إلى عمل ذى قوة كامنة عالية الدرجة ، وترفع القيمة الاجتماعية المنتَجة فوق قيمتها الفردية وبذا تمكن صاحب رأس المال من أن يجعل نسبة أصغر قدراً من قيمة منتَج اليوم تحل محل قيمة قوة عمل اليوم الواحد . وفى أثناء هذه الفترة الانتقالية التى يشغل فيها استخدام الآلات نوعا من المركز الاحتكارى تكون الأرباح عالية إلى درجة غير عادية ، ويبذل صاحب رأس المال جهده كى يحصل على أعظم الفائدة من فرص الاستغلال المتاحة له خلال هذه الأيام الأولى للحب ، وذلك بإطالة يوم العمل إلى أقصى حد ممكن . إن عظم الربح يزيد من حدة شهية الرأسمالى فى سبيل الحصول على ربح أكثر .

وإذ يعم استعمال الالات فى فرع مخصوص من الصناعة تهبط القيمة الاجتماعية لمنتَج الالة إلى مستوى قيمته الفردية وبهذا يتحقق فعل القانون الذى بمقتضاه لا تنشأ القيمة من قوى العمل التى أحل الرأسمالى الالات محلها ، وإنما بالعكس تنشأ عن قوى العمل التى يستخدمها فعلا فى العمل بالالات . إن القيمة الفائضة إنما تنشأ فقط عن الجزء المتغير من رأس المال ، وقد رأينا أن مبلغ القيمة الفائضة يعينه عاملان : معدل القيمة الفائضة وعدد العمال الذين يستخدمون فى نفس الوقت الواحد . وفى خلال طول معلوم من يوم العمل يتحدد معدل القيمة الفائضة بالنسبة التى ينقسم طبقاً لها يوم العمل إلى عمل ضرورى وعمل فائض . ويتوقف عدد العمال الذين يستخدمون فى نفس الوقت الواحد على النسبة بين رأس المال المتغير ورأس المال الثابت . وواضح الان أنه مهما كان استعمال الالات عاملا فى زيادة فائض العمل على حساب العمل الضرورى وذلك بزيادة إنتاجية العمل ، فان هذه النتيجة إنما تتحقق فقط بإنقاص عدد العمال الذين يستخدمهم مقدار معلوم من رأس المال . إن استعمال الالات يحول جزءاً من رأس المال الذى كان متغيراً من قبل إلى آلات أى إلى رأس مال ثابت لاينتج قيمة فائضة ما . ومثال ذلك أنه من المستحيل أن تحصل من عاملين على قيمة فائضة تعادل ما تمتصه منها من ٢٤ عاملا . فإذا كان كل من الأربعة وعشرين عاملا يشتغل ١٢ ساعة فى اليوم وينتج ساعة من فائض العمل فإن هؤلاء جميعاً ينتجون ٢٤ ساعة من فائض العمل بينما مجموع عمل الرجلين عبارة عن ٢٤ ساعة

—والتأمين ضد الحريق رأجور عدة خدم دائمين واستهلاك الآلات فضلا عن مصاريف أخرى على المنشأة الصناعية، وهى مصاريف تزيد نسبتها إلى الأرباح كلما تناقص الانتاج ،، (تقارير مفتشى المصانع ، ٣١ أكتوبر ١٨٦٢ ص ١٩) .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

فقط . ونتيجة لهذا يوجد تناقض كامن فى استخدام الآلات لإنتاج القيمة الفائضة ، ذلك لأن الآلات تستطيع أن تزيد أحد عاملي القيمة الفائضة وهو معدلها وذلك فقط بإنقاص العامل الآخر وهو عدد العمال . هذا التناقض الكامن يكشف عن ذاته بمجرد أن تصبح قيمة السلعة التى تنتجها الآلة هى الأداة الاجتماعية التى تنظم قيمة كافة السلع التى من نفس النوع ، وذلك بفضل تعميم استخدام الالات فى صناعة معلومة . وأكثر من ذلك فهذا التناقض هو الذى يدفع رأس المال (وإن لم يشعر الرأسماليون بطبيعة الدوافع التى تحركهم) [١] إلى إطالة يوم العمل على سبيل التعويض عن النقص فى العدد النسبى للعمال وذلك بالزيادة فى فائض العمل المطلق ، إلى جانب الزيادة فى فائض العمل النسبى .

ويهيء الأسلوب الرأسمالى فى استخدام الالات دوافع جديدة قوية للزيادة المفرطة فى يوم العمل ، كما يحدث تغييراً أساسياً فى كل من وسائل العمل وطابع جهـــاز العمل الاجتماعى بطريقة تتحطم بها كل مقاومة أو معارضة لهذا الاتجاه . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى تخلق الالات فائضاً من العمال [٢] يضطر إلى الخضوع لسيطرة رأس المال ، وذلك لأنها من جهة تمد يد الرأسمالى إلى طبقات من العمال لم تكن ببالغة إياها من قبل ، ومن جهة أخرى تحرر العمال الذين تحل محلهم ، وإن هذا ليفسر لنا ظاهرة من أبرز الظواهر فى تاريخ الصناعة الحديثة ، ويفسر الطريقة التى بها تضع الالات حداً لكافة القيود الأدبية والطبيعية المفروضة على طول يوم العمل . وهذا يفسر التناقض الاقتصادى وهو أن أقوى أداة لتقصير وقت ثبت أنها سبيل يجعل كل لحظة من وقت العامل وأسرته تحت تصرف صاحب رأس المال ، وذلك بقصد العمل على تحقيق ترا لم رأس المال . لقد أرخى أرسطو أعظم مفكرى العصور القديمة العنان لخياله فقال « لو أن كل أداة بمجرد أن ندعوها للعمل أو بمحض إرادتها تؤدى العمل الذى يناسبها كما تحركت مخترعات ديدالس من تلقاء ذاتها ، نقول لو أن نول الغزل يقوم بعملية الغزل من تلقاء ذاته ، إذن لانتفت الحاجة إلى الصبيان يستخدمهم المعلمون أو إلى العبيد يعملون لسادتهم » [٣]. كذلك امتدح الشاعر الإغريقى الذى عاش فى أيام شيشرون

---

(١) سنشرح فى الجزء الأول من الكتاب الثالث السبب الذى من أجله يعجز عن إدراك ذلك التناقض الكامن الرأسماليون ورجال الاقتصاد السياسى الذين غرهم أسلوب التفكير الرأسمالى .

(٢) من أجل الخدمات التى أسداها ريكاردو انه أدرك أن الالات ليست سبيلا لانتاج السلع فحسب ، بل إنها كذلك وسيله لايجاد «وعدد فائض عن الحاجة من السكان» .

(٣) F. Biese, Die Philosophie des Aristoteles, vol Berlin 1842, p. 408.

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

العجلة المائية لطحن الغلال (والتى تعد الشكل الأولى لكافة الالات الانتاجية) واعتبر أن هذا الاختراع منح الحرية للأرقاء الإناث وكان بداية العصر الذهبى وهؤلاء كانوا وثنيين مساكين يعيشون فى الظلام، لا يعرفون شيئا عن الاقتصاد أو المسيحية كما كشف عن ذلك باستيا الذكى وسلفه ماك كولوخ الأكثر منه كفاءة، فشلا لم يدركوا أبداً أن الالة خير طريقة ممكنة لإطالة يوم العمل. لعلهم كانوا يغضون الطرف عن الاستعباد الواقع على رجل واحد إذ كان هذا سبيلا يؤدى إلى تقدم آخر ولكن لم يخطر ببالهم أن يدعوا إلى استعباد الجماهير لكى يحولوا بعضاً من أنصاف المتعلمين والدهماء إلى أساطين فى الصناعة والتجارة.

حـ — زيادة حدة العمل

تؤدى الالات فى يد رأس المال إلى زيادة شديدة فى طول يوم العمل، وهذا الأمر على مارأينا يحدث رد فعل من جانب المجتمع الذى يرى حياته مهددة فيعمد إلى تحديد ساعات العمل بنص القانون. وإذ يحدد القانون يوم العمل يزداد مالاحظناه من ازدياد حدة العمل فى ظل عهد الالات بروزاً ووضوحاً. عند تحليل فائض القيمة المطلق عنينا أولا بمدى نطاق العمل ومدته مع افتراض أن حدته ثابتة. وعلينا الآن أن نبحث كيف يتسنى لزيادة حدة العمل أن تعوض النقص فى مدى امتداده، أى ندرس الدرجة التى يمكن بها زيادة حدة العمل.

من الطبيعى أنه بقدر درجة انتشار استعمال الالات وبقدر مايكتسب العمال من خبرة نتيجة تعودهم استخدامها، يسهل العمل بحيث تنمو حدته كما لو أن ذلك يحدث وفقاً لقانون طبيعى، ولهذا نجد خلال نصف قرن بانجلترا أن الزيادة فى طول يوم العمل سارت جنباً الى جنب مع حدة العمل بالمصنع. وواضح أنه اذا تعلق الامر بعمل يتعين أداؤه يوما بعد يوم لفترة غير محدودة وبانتظام تام لابد أن نصل إلى نقطة عندها لايتفق امتداد يوم العمل مع الزيادة فى حدة العمل بحيث أن الزيادة فى يوم العمل لا يمكن إدراكها إلا عن طريق خفض حدة العمل، وبالعكس لا يمكن زيادة الأخيرة إلا بتقصير يوم العمل. وبمجرد أن أرغم الغضب من جانب الطبقة العاملة الدولة على تحديد طول يوم العمل بطريقة قانونية وتنفيذ ذلك فى كافة المصانع بمعناها الصحيح، استخدم رأس المال كل قوته وكرس جهوده لغاية أخرى وهى إنتاج فائض القيمة النسبى عن طريق الاسراع بتنمية الصناعة الالية مادام قد استحال عليه أن يزيد من إنتاج فائض القيمة عن طريق زيادة يوم العمل. وفى الوقت ذاته تبع ذلك تغيير فى صفة فائض القيمة النسبى. ويمكن القول بوجه عام إن طريقة إنتاج فائض القيمة النسبى تنحصر فى أن نمو انتاجية العمل يمكّن العامل أن ينتج مقداراً أكبر فى

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

فترة معلومة مع بذل نفس القدر من العمل ، وبعد التغيير — كما كان الشأن قبل وقوعه — يضاف الى المنتج الكلى خلال خلال فترة معلومة من وقت العمل نفس المقدار من القيمة ، غير أن هذه القيمة التبادلية غير المتغيرة تنتشر ظلالها على مقدار من القيمة الاستعمالية أكبر عن ذى قبل الأمر الذى يترتب عليه هبوط قيمة السلعة الفردية . ويختلف الأمر حينما يحتم القانون تقصير يوم العمل إذ حينئذ يتوافر دافع قوى للغاية على تنمية إنتاجيـــة العمل والاقتصاد فى استخدام أدوات الانتاج ، ويتوافر الباعث على حمل العامل على بذل مقدار أكبر من العمل خلال وقت معلوم ، وعلى زيادة حدة العمل ، وعلى التقليل من أى فجوات فى وقت العمل ما وسع الجهد ذلك . وبكلمة واحدة نقول إن العامل يرغم أن يكثف عمله أى يزيد من حدته وكثافته على أن ذلك هو السبيل الوحيد أمامه فى ذلك اليوم الذى قلل القانون من مداه . ومعنى هذا التكثيف - كما هو فى الواقع — أداء كمية أكبر من العمل خلال فترة معلومة من الوقت ، ويجب أن يقاس وقت العمل لاحسب مداه فقط بل وكذلك حسب كثافته(٢) بحيث أن ساعة من يوم العمل الذى طوله ١٠ ساعات تتضمن الان عملا أكثر أى بذلا أكبر لقوة العمل مما كانت تتضمنه ساعة فى ذلك اليوم الذى كان طوله ١٢ ساعة ، وبذلك يكون للمنتج الان قيمة أكبر مما كان لمنتج ساعة وخمس الساعة . وبصرف النظار عن الزيادة فى فائض القيمة النسبى عن طريق زيادة إنتاجية العمل . فان $٣\frac{١}{٣}$ ساعة من العمل الفائض ، $٦\frac{٢}{٣}$ ساعة من العمل الضرورى تنتج الان للرأسمالى نفس الكمية من القيمة التى كانت تنتجها من قبل ٤ ساعات من العمل الفائض وثمانية ساعات من العمل الضرورى .

وعلينا أن نسأل الآن : ما الكيفية التى تزيد بها حدة العمل ؟ .

يرجع أول أثر لخفض يوم العمل إلى فعل ذلك القانون الواضح الذى يقول إن طاقة قوة العمل على بذل الجهد تتناسب تناسباً عكسياً مع ساعات العمل ، وعلى ذلك ـ فى حدود معينة ـ تجد أن الخسارة من ناحية الوقت يعوضها كسب من ناحية النشاط أو الطاقة ، فرأس المال يعمل على أن يجعل من طريقة دفع الأجر سبيلا لحمل العامل على أن يبذل فعلا مقدار أكبر من قوة العمل(٢) .

(١) هناك بطبيعة الحال فوارق من حيث درجة حدة العمل فى فروع الانتاج المختلفة وهذه إلى حد ما على الأقل يعوض كل منها الآخر كما أوضح ذلك آدم سميث من زمن طويل ، والفضل فى هذا راجع إلى اعتبارات أقل شأنا خاصة بكل نوع من العمل . ولكن استخدام وقت العمل كمقياس للقيمة يتأثر بهذا من حيث أن مدة العمل وحدته تعبيران متضادان لنفس الكمية من العمل ويستبعد أو ينفى كل منهما الآخر .

(٢) تنطبق هـذه الملاحظة بصفة خاصة على نظام العمل بالقطعة وهى الطريقة التى سندرسها فى القسم السادس من هذا الكتاب .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

وفيما يختص بالصناعات التى تلعب فيها الآلات دوراً بسيطاً ، كما هو الشأن فى صناعة الفخار ، قدم لنا قانون المصانع دليلا مقنعاً على أن لتقصير يوم العمل أثراً واضحاً فى زيادة انتظام العمل وتجانسه واستمراره ونشاطه(١) . ولكن بدا من الأمور المشكوك فيها إدراك هذه النتيجة فى المصانع التى تستحق هذه التسمية ذلك أن اعتماد العمال فيها على الحركة المستمرة والمتجانسة للآلات أوجد منذ زمن طويل أدق نظام ممكن . وعلى ذلك حين تقدمت الاقتراحات فى سنة ١٨٤٤ لخفض يوم العمل من ١٢ ساعة أجمع كافة أصحاب المصانع تقريباً « على أن رؤساء العمل فى مختلف الأقسام حريصون ألا يضيع العمال وقتاً ، بحيث أنه « يكاد يكون من غير الممكن أن نزيد من يقظة العمال وانتباههم فى أداء العمل » وعلى ذلك فمع بقاء سرعة الآلات والأحوال الأخرى ثابتة دون تغيير فان من السخف أن نتوقع أية نتيجة هامة من زيادة انتباه العمال وذلك فى أى مصنع تديره إدارة جيدة »(٢) . ولكن التجارب أثبتت بطلان هذه الحجة ، ففى ٢٠ أبريل سنة ١٨٤٤ بدأ المستر ر. جاردنر العمل ١١ ساعة يومياً بدلا من ١٢ ساعة فى مصنعيه الكبيرين بجهة برستن ، ثم أعلن نتيجة تلك التجربة بعد انقضاء عام على البدء فيها فقال « حققنا نفس المقدار من المنتجات بنفس التكاليف ، ولم تختلف أجور العمال بوجه عام فى اليوم ذى الأحد عشرة ساعة عما كانت عليه فى ظل اليوم المكون من ١٢ ساعة »(٣) . إنى أغض الطرف عن التجارب التى أجريت فى أقسام الغزل والتمشيط إذ فى هذه زيدت سرعة الآلات بمقدار ٢٪ ، ولكن فى قسم النسج لم يطرأ أى تغيير على الأحوال الموضوعية التى يتم فيها الانتاج ، عدا إنقاص ساعات العمل اليومية ، وكانت النتيجة كالآتى :

« كان متوسط أجر العامل أسبوعياً ١ ½ بنس ، ١٠ شلن فيما بين ٦ يناير ، ٢٠ أبريل سنة ١٨٤٤ مع العمل ١٢ ساعة فى اليوم ، وكان ٣ ½ بنس ، ١٠ شلن من ٢٠ أبريل إلى ٢٩ يونية سنة ١٨٤٤ مع اتباع نظام اليوم ذى الأحد عشرة ساعة »(٤) . وبهذا

---

(١) « تقارير مفتشى المصانع » سنة ١٨٤٤ ، وربع السنة المنتهى فى ٣٠ أبريل ١٨٤٥ ص ٢٠ — ٢ :

(٢) نفس المصدر ص ١٩ — لما كانت الأجور حسب نظام القطعة لم تتغير ، فان الأجر الأسبوعى كان يتوقف على الكمية المنتجة .

(٣) شرحه ص ٢٢ .

(٤) شرحه ص ٢١ — لعب العنصر الأدبى دوراً بالغاً فى التجارب المشار إليها آنفاً ، وقد قال العمال لمفتش المصنع « إن روحنا المعنوية أعلى ، وأملنا الجزاء وهو الخروج مبكرين فى الليل . إن روحاً من النشاط والبهجة تسود المصنع كله ، من أصغر عامل إلى أكبر قائم ، ويستطيع كل منا أن يساعد الآخر إلى حد كبير » .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

زاد مقـــدار المنتج فى ١١ ساعة عمـــا كان عليه فى ١٢ ساعة ، وذلك نتيجة لاطراد انتظام العمل وزيادة الوفر فى الوقت من جانب العمال . فبينما حصل العمال على نفس الأجور وكسبوا ساعة من الفراغ ، حقق صاحب رأس المال نفس الكمية من المنتجات ووفر على نفسه نفقات فى الفحم والغاز الخ خلال ساعة واحدة كل يوم . وقد أجريت تجارب مماثلة فى مصانع السادة هوروكس وجاكسون ، وحالفها نفس النجاح [١] .

ويهيء خفض ساعات العمل الأحوال الذاتية التى يتطلبها تكثيف العمل ، وذلك بقدر ما يزيد من طاقة العامل على بذل مقدار أكبر من النشاط فى وقت معلوم . وحالما يحتم القانون اتباع يوم أقصر مدى يعمد رأس المال إلى استخدام الآلات بانتظام بقصد امتصاص كمية أكبر من العمل خلال وقت معلوم ، ويتم هذا الأمر إما بتسهيل الآلات أى زيادة سرعتها ، وإما بتوسيع المجال الذى يؤدى فيه العامل عمله أى بتكليفه الإشراف على مقدار أكبر من الالات . وتحسين تركيب الالات ضرورى إلى حد ما حتى يتسنى زيادة الضغط الواقع على العامل ، ولكن هذه التحسينات تعد من جهة أخرى أمراً لابد أن يصحب حدة العمل بطريقة تلقائية ، ذلك أن تحديد يوم العمل يضطر الرأسمالى إلى الاقتصاد الشديد فى نفقات الإنتاج . إن التحسين فى الآلة البخارية يزيد من عدد ضربات المكبس piston فى الدقيقة الواحدة كما يسمح فى الوقت ذاته ونتيجة الاقتصاد فى استخدام القوة المحركة بتوسيع نطاق إدارة الآلات بواسطة نفس المحرك ونفس المقدار من الفحم ، بل وبأقل من ذلك . والتحسين فى الأداة الناقلة يقلل الاحتكاك كما يهبط بقطر وثقل عامود المحور إلى الحـــد الأدنى الممكن . وأخيرا فالتحسينات فى الالات العاملة إما أن تزيد من سرعتها وكفايتها بينما تقلل من حجمها كما هو الحال فى النول البخارى الحديث ، وإما تزيد من مدى وعدد العدد العاملة بينما تزيد من حجم الهيكل الخارجى كما هو الحال فى آلات الغزل التى تعرف الواحدة منها باسم البغلة ، وإما تزيد من مرونة حركة ونقل هذه الأدوات العاملة نتيجة تغييرات تافهة فى التفاصيل مثل التغييرات التى سببت منذ خمسين عاماً زيادة سرعة «البغلة» التى تدور بنفسها بمقدار الخمس مما كان عليه الأمر من قبل .

ويعود تاريخ خفض يوم العمل إلى ١٢ ساعة بانجلترا إلى سنة ١٨٣٢ ؛ وقد صرح أحد أرباب المصانع الإنجليز سنة ١٨٣٦ بما يلى : إن العمل الذى يقـوم الان فى المصنع أعظم بكثير مما كان قبلا ... إذا قيس بالحال منـذ ٣٠ أو ٤٠ عاماً خلت ... نظراً لازدياد الانتباه والنشاط وبذل المجهود مما يتطلبه ازدياد سرعة الالات بدرجة عظيمة[١] . وقد ذكر

(١) John Fielden, op. cit., p. 32.

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

اللورد شافتسبرى البيانات الآتية فى سنة ١٨٤٤ أمام مجلس العموم وأيدها بالأدلة والوثائق فقال :

« إن العمل الذى يقوم به أولئك الذين يشتغلون فى الصناعة ثلاثة أمثال ما كان عليه فى بداية أمثال هذه العمليات . لا شك أن الالات قامت بالعمل الذى لولاها كان يتطلب سواعد الملايين من الناس ، ولكنها فى الوقت ذاته ضاعفت من عمل أولئك الذين تتحكم فيهم حركاتها المخيفة ... فى سنة ١٨١٥ كان تتبع زوج من آلة البغلة التى تغزل القطن رقم ٤٠ بحساب ١٢ ساعة فى يوم العمل يتضمن ضرورة السير مسافة ٨ أميال ، وفى سنة ١٨٣٢ زادت المسافة مع غزل نفس المقدار من القطن إلى ٢٠ ميلا ، ثم زاد أكثر من ذلك بعدئذ وفى سنة ١٨٣٥ (١) كان الغزال يضع يومياً ١٢٠ قطعة stretches على كل من هذه البغلات ومجموع ذلك ١٦٤٠ فى اليوم . وفى سنة ١٨٣٢ كان يضع على كل بغلة ٢٢٠٠ أى ٤٤٠٠ فى اليوم ، وزاد العدد سنة ١٨٤٤ إلى ٢٤٠٠ للبغلة الواحدة ، ٤٨٠٠ للاثنتين فى اليوم الواحد ، وفى بعض الحالات يزيد مقدار المطلوب من العمل عن ذلك ... ولدى وثيقة أخرى وصلت إلىّ سنة ١٨٤٢ جاء فيها أن العمل يزيد باطراد — لا بسبب عظم المسافة التى يتعين على الغزال أن يمشيها فحسب ، بل ومن حيث تضاعف كمية البضائع المنتجة ، بينما الأيدى العاملة أقل عدداً بالنسبة إلى ما كانت عليه ، وعلاوة على ذلك بسبب نوع أحط من القطن فى الغزل مما يزيد من صعوبة العمل به ... وقد حدثت زيادة عظيمة فى العمل داخل غرفة التمشيط ففيها يقوم شخص واحد بالعمل الذى كان يقتسمه اثنان من قبل . وفى حجرة الغزل حيث يستخدم عدد هائل من الأشخاص وبخاصة من الإناث ... زاد العمل خلال السنوات القلائل الأخيرة بنسبة ١٠ ٪ نظراً لازدياد سرعة الآلات فى الغزل . وقد كان عدد اللفات hanks المغزولة فى الأسبوع ١٨٠٠ (١٨٣٨) فارتفع الرقم إلى ٢١,٠٠٠ سنة ١٨٤٣ . وفى سنة ١٨١٩ كان عدد picks فى النسج بالنول البخارى ٦٠ فى الدقيقة الواحدة ، فأصبح ١٤٠ سنة ١٨٤٢ مما يدل على زيادة كبيرة جداً فى العمل »(٢) .

ونظراً لهذه الدرجة العالية التى بلغتها حدة العمل فى ظل سيادة قانون الإثنى عشرة ساعة بدا نوع من التبرير لدعوى أرباب المصانع من حيث أن أى تقدم فى ذلك الاتجاه مستحيل ، وهذا يتضمن أن أى نقص بعد ذلك فى يوم العمل معناه نقص فى الإنتاج . وما يبدو من

---

(١) لعل هذا الرقم خطأ مطبعى وصوابه ١٨١٥ أو ١٨٢٥ .

(٢) Lord Ashley, op. cit., pp. 6—9 passim.

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

طابع الصحة والوجاهة على حججهم نستطيع أن نلمسه من هـذا البيان المعاصر الذى سطره مفتش المصانع ليونارد هورنر ذلك الرجل الذى لم يفتر عن نقد أصحاب المصانع ، والآن بما أن الكمية المنتجة يجب فى الأغلب أن تنظمها سرعة الآلات فلا بد أنه من صالح صاحب المصنع أن يدير الالة إلى أقصى حد ممكن يتفق مع الشروط الاتية وهى : المحافظة على الالات من الفساد السريع ، والمحافظة على نوع السلعة المصنوعة . وطاقة العامل على تتبع الحركة بدون إجهاد أعظم مما يستطيع أن يتحمله . ومن المعضلات العظيمة الأهمية التى يتعين على صاحب المصنع أن يجد لها حلا هو أن يهتدى إلى أقصى معدل للسرعة يستطيع إدارة الالات مع مراعاة الشروط السالفة الذكر . فغالباً ما يحدث أن يجد أن السرعة فاقت الحد السليم الواجب ويرى أن التوقف والعمل الردىء لا يعادلان السرعة المتزايدة وبذا يضطر إلى التقليل منها . وعلى ذلك وصلت إلى النتيجة التالية وهى أنه إذا اهتدى صاحب المصنع إلى الحد الأقصى السليم من السرعة فلن يكن فى الإمكان أن ينتج فى ١١ ساعة ما يتم إنتاجه فى ١٢ ساعة . ورأيت كذلك أن العامل الذى يتناول أجره حسب نظام القطعة يبذل أقصى مالديه من جهد يتفق مع مقدرته على مواصلة العمل بنفس المعدل والدرجة [١] . وعلى ذلك نقول إن استنتاج هورنر معناه — برغم التجارب التى أجراها جاردنر وسواه — أن العمل بعد ذلك على خفض يوم العمل إلى ما دون ١٢ ساعة يؤدى بالضرورة إلى انقاص كمية المنتج [٢] . وبعد انقضاء عشر سنوات أورد الرأى الذى عبر عنه سنة ١٨٤٥ ليدلل به على أنه قدر بأقل من الحقيقة مرونة الآلات وقوة العمل الإنسانية إذا استخدما لأقصى حد عن طريق الخفض الإجبارى ليوم العمل .

لنرجع الآن إلى الفترة التالية لسنة ١٨٤٧ حين سرى مفعول قانون العشر ساعات فى مصانع المنسوجات القطنية والصوفية والحريرية والتيلية بانجلترا .

« زادت سرعة المغازل على آلات ثنى ولف الألياف throstles ٥٠٠ دورة فى الدقيقة وعلى البغلة ١٠٠٠ ، ومعنى هذا أن سرعة مغزل الآلة throstle وقد كانت ٤٥٠٠ مرة فى الدقيقة سنة ١٨٣٩ صارت الآن (١٨٦٣) ٥٠٠٠ ، وأن سرعة مغزل البغلة كانت ٥٠٠٠ فأصبحت ٦٠٠٠ فى الدقيقة ، أى أن الزيادة بمقدار العشر فى الحالة الأولى وبنسبة الخمس فى الحالة الثانية »[٣] . وقد كتب جيمس ناسميث المهندس المدنى المشهور

(١) « تقارير مفتشى المصانع » ، ربع السنة المنتهى فى ٣٠ سبتمبر ١٨٤٤ ومن أكتوبر ١٨٤٤ إلى أبريل ١٨٤٥ ص ٢٠

(٢) نفس المصدر ص ٢٢ .

(٣) تقارير مفتشى المصانع ٣١ أكتوبر ١٨٦٢ ص ٦٢ .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

فى باتريكروفت القريبة من منشستر إلى ليونارد هورنر سنة ١٨٥٢ موضحاً ماهية التحسينات التى أدخلت على الآلة البخـــارية فيما بين عامى ١٨٤٨ ، ١٨٥٢ . وبعد أن لاحظ أن قوة الآلات البخارية مقدرة بالأحصنة التى قدرتها الإحصائيات الرسمية طبقاً لقوة الالات المماثلة ســـنة ١٨٢٨[1] إن هى إلا قوة إسمية فقط ولا تصلح إلا كدليل عام على قوتها الحقيقية، تابع كلامه قائلا « إنى لعلى ثقة أننا نحصل من نفس وزن الالة على عمل يزيد عن المتوسط بمقدار ٥٠ ٪ لانه فى حالات كثيرة تجد أن الآلات البخارية المماثلة التى كانت تنتج ٥٠ حصاناً بخارياً فى الأيام التى حددت فيها السرعة بمقدار ٢٢٠ قدماً فى الدقيقة ، أصبحت الآن تقل نحو ١٠٠ ..... ويمكن الآن أن ندير الالة البخارية ذات المائة حصان بخارى بقوة أعظم مما كان عليه الحال قبلا ، وهذا راجع إلى التحسينات التى أدخلت على صنعها وطاقة الغلايات وتركيبها الخ .... وبرغم أن نسبة عدد الأيدى العاملة إلى القوة البخارية كما هو الحال فى الفترات الماضية ، فان نسبة العمال إلى الالات أصبحت أقل عن ذى قبل[2]. وقد استخدمت مصانع المملكة المتحدة سنة ١٨٥٠ ما مقداره ٢١٧ر١٣٤ من الأحصنة البخارية الإسمية لإدارة ٧١٦ر٦٣٨ر٢٥ مغزل ، ٤٤٥ر٣٠١ نول ! وفى سنة ١٨٥٦ بلغ عدد المغازل والأنوال ٥٨٠ر٥٠٣ر٣٣ ، ٢٠٥ر٣٦٩ على التوالى . فلو بقيت القوة البخارية على ماكانت عليه سنة ١٨٥٠ لاحتاج الحال إلى ١٧٥ر٠٠٠ من الأحصنة البخارية سنة ١٨٥٦ ، ولكن تدل الإحصائيات الرسمية على أن المطلوب كان ١٦١ر٤٢٥ أى أقل مما يحسب على أساس سنة ١٨٥٠ بمقدار ١٠ر٠٠٠ حصان بخارى[3] ، تدل الحقائق التى أظهرها إحصاء (١٨٥٦) على أن نظام المصانع يزداد زيادة سريعة ، وأن هناك عدداً أقل من الأيدى العاملة بالنسبة إلى الالات مع أن نفس العدد من العمال يستخدم الان بالنسبة إلى الأحصنة البخارية كما كان الحال قبلا ، وأن الالة البخارية تستطيع أن تدير آلات ذات زنة متزايدة مع الوفر فى القوة والوسائل الأخرى ، وأن فى الإمكان زيادة كمية العمل عن

---

(١) تغير ذلك فى الاحصاء البرلمانى لسنة ١٨٦٢ ، ففى تلك الوثيقة يذكر الحصان البخارى الحقيقى للالات البخارية الحديثة والعجلات المائية بدلا من الحصان البخارى الاسمى (أنظر الحاشية السابقة عن الحصان البخارى) وعلاوة على ذلك فلم تعد المغازل المزدوجة داخلة بين مغازل الغزل كما كان الحال فى إحصاءات ١٨٣٠ ، ١٨٥٠ ، ١٨٥٦ . وفى حالة معامل الأصواف أضيفت gigs وتجد تمييزاً بين مصانع الجوت والقنب من جهة ومعامل الكتان من جهة أخرى ، وأخيراً يذكر التقرير لأول مرة نسج الجوارب .

(٢) تقارير - ٣١/١٠/١٨٥٦ ص ١٣ — ١٤ — ، ٢٠ ، سنة ١٨٥٢ ص ٢٣ .

(٣) شرحه ص ١٤ — ١٥ .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

طريق التحسينات فى الالات ؛ وفى أساليب الصناعة بواسطة زيادة سرعة الالات وأسباب أخرى متنوعة »[١] وأكثر من هذا «إن التحسينات العظيمة التى أدخلت على الالات من كل نوع زادت قوتها الانتاجية كثيراً ... ولا شك أن تقصير ساعات العمل ... كان الدافع على هذه التحسينات . وقد ترتب على هذه التحسينات وعلى ازدياد المجهود الذى يقوم به العامل أن ما كان يتم إنتاجه فى اليوم الطويل أصبح فى الإمكان إنتاجه فى الأيام التى قصرت (بمقدار ساعتين أو بنسبة السدس)[٢] .

وتكفى الحقيقة الآتية لبيان مقدار زيادة ثروة أصحاب المصانع وهى زيادة سارت جنباً إلى جنب مع عظم حدة استغلال قوة العمل ، فقد كان متوسط الزيادة النسبية فى مصانع القطن الإنجليزية وغيرها ٣٢٪ فيما بين ١٨٣٨ ، ١٨٥٠ فصارت ٨٦٪ فيما بين ١٨٥٠ ، ١٨٥٦

وبرغم عظم التقدم الذى لمسته الصناعة البريطانية خلال السنوات الثمان من ١٨٤٨ إلى ١٨٥٦ حين بدأ مفعول يوم العمل ذى العشر ساعات ، فإنه أقل من التقدم الذى حدث خلال السنوات الست (١٨٥٦ — ١٨٦٢) . ومثال ذلك أن مصانع الحرير سنة ١٨٥٦ كان بها ١٫٠٩٣٫٧٩٩ مغزلا ، ٩٢٦٠ نولا فارتفعت الأرقام إلى ١٫٣٨٨٫٥٤٤ ، ١٠٫٧٠٩ على التوالى ، بينما هبط عدد الأيدى العاملة من ٥٦٫١٣١ إلى ٥٢٫٤٢٩ فى نفس الفترة . ومعنى هذا زيادة قدرها ٠٫٢٦٩٪ فى المغازل ، ٠٫١٥٦٪ فى الأنوال ، وذلك فى الوقت الذى هبط فيه عدد العمال بنسبة ٧٪ . وزاد عدد المغازل فى مصانع الصوف من ٨٧٥٫٨٣٠ إلى ١٫٣٢٤٫٥٤٩ (وهى زيادة قدرها ٥١٫٢٪) فيما بين ١٨٥٠ ، ١٨٥٦ ، وبلغ عدد المغازل (سنة ١٨٦٢) ١٫٧٢٨٫٩٧٢ (بنقص قدره ٢٫٧٪) . فإذا طرحنا عدد المغازل المزدوجة وهى واردة فى إحصاء سنة ١٨٥٦ وليست فى إحصاء سنة ١٨٦٢ لرأينا أن عدد المغازل يكاد يظل ثابتاً . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى نلاحظ أنه بعد سنة ١٨٥٠ تضاعفت سرعة المغازل والأنوال فى حالات كثيرة . ففى سنة ١٨٥٠ بلغ عدد الأنوال البخارية بمصانع الصوف ٣٢٫٦١٧ فأصبح ٣٨٫٩٥٦ سنة ١٨٥٦ ، ٤٣٫٠٤٨ سنة ١٨٦٢ ، وكان عدد العمال فى السنوات الثلاث المذكورة هكذا على التوالى : ٧٩٫٧٣٧ ، ٨٧٫٧٠٤ ، ٨٦٫٠٦٣ وهذه

---

(١) المصدر السابق ص ٢٠

(٢) تقارير مفتشى المصانع ٣١ أكتوبر ١٨٥٨ ص ٩ — ١٠ . أنظر كذلك تقارير الخ ٣٠ أبريل ١٨٦٠ ص ٣٠ وما بعدها .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

الأرقام تشمل الأطفال ممن دون الرابعة عشرة من العمر وكانت عدتهم ٩٩٥٦، ١١٠٢٢٨، ١٧٨، ١٣ فى نفس السنوات . ونرى من ذلك أنه برغم ازدياد عدد الأنوال فى سنة ١٨٦٢ بالقياس إلى ما كان عليه سنة ١٨٥٦ فهناك نقص فى عدد العمال تقابله زيادة فى عدد الأطفال(١).

وقد قال المستر فراند فى جلسة مجلس العموم بتاريخ ٢٧ أبريل ١٨٦٣ « علمت من مندوبى ١٦ جهة بمقاطعتى لانكشير وشيشير وهم الذين أتحدث بالنيابة عنهم أن العمل بالمصانع يتزايد باستمرار نتيجة التحسينات التى أدخلت على الآلات ، فبينما فى الأيام الماضية كان عامل واحد ومساعدان له يرعون نولين أصبح عامل واحد بمفرده يرعى ثلاثة أنوال . وليس من غير المألوف أن يعهد إليه أمر أربعـــة أنوال ، وهكذا يتضح من الحقائق أن أقل من عشر ساعات تتضمن عمل إثنى عشرة ساعة . ومن هذا يتضح المدى الهائل الذى بلغته زيادة الارهاق الواقع على عمال المصانع خلال السنوات العشر الأخيرة »(٢).

وبرغم أن مفتشى المصانع امتدحوا بحق النتائج الطيبة التى نجمت عن قانونى ١٨٤٤ ، ١٨٥٠ فانهم برغم ذلك قد اعترفوا أن خفض يوم العمل سبب زيادة حدة العمل وهى الأمر الذى كانت له من قبل آثار سيئة بالنسبة إلى صحة العمال وطاقتهم تبعاً لذلك . « يبدو لى أن الزيادة المفرطة فى الوفاة من أمراض الرئة » وهو الأمر الذى أشار إليه الدكتور ج . جرينهاو فى تقرير له عن هذا حديثاً ، إنما ترجع إلى مايسود مصانع القطن والصوف والحرير من حالة الاضطراب المجهدة التى لا بد منها لتمكين العامل من مراقبة الآلات بطريقة تدعو

---

(١) تقارير مفتشى المصانع ، ٣١ أكتوبر سنة ١٨٦٢ ص ١٠٠ ، ١٣٠ .

(٢) بواسطة نول بخارى حديث يعمل الغزال الآن فى الأسبوع الذى طوله ٦٠ ساعة ٢٦ قطعة من نوع وطول وعرض معينة وذلك باستخدام نولين ، بينما لم يكن ليستطيع من قبل أن يصنع بواسطة الأنوال البخارية القديمة أكثر من ٤ قطع . وقد هبطت نفقة كل قطعة بعد سنة ١٨٥٠ من ٩ بنس ٢ إلى ٥ بنس ـ ، منذ ثلاثين عاماً مضت (١٨٤١) لم يكن يطلب من الغزال ومعه ثلاثة من الصبيان الذين يلحمون الخيوط المقطوعة أن يرعى أكثر من بغلتين بهما ٣٠٠ ـ ٣٢٤ مغزلا . أما فى الوقت الحاضر (١٨٧١) فعليه أن يرعى بمساعدة خمسة من الصبيان ٢٢٠٠ مغزل وينتج (من الغزل) ما لا يقل عن سبعة أمثال ما كان ينتجه سنة ١٨٤١ ».

Alexander Redgrave, factory inspector. «Journal of Arts» January 5, 1872.

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

للرضاء وهى الآلات التى زادت سرعتها خلال السنوات القلائل الأخيرة »[١]. ومما لايحتمل الجدل مطلقاً أن ميل رأس المال نحو زيادة حدة العمل على سبيل التعويض بعد تحريم إطالة يوم العمل ، وأن ميله إلى أن يجعل من كل تحسين فى الآلات وسيلة فعالة لاستخلاص أعظم مايقدر عليه من قوة العمل — إن هذا الميل سيؤدى قبل انقضاء وقت طويل إلى حالة تجعل خفض يوم العمل أكثر مما هو حادث الآن أمراً محتوما [٢]. ومن جهـــة أخرى فتقدم الصناعة البريطانية السريع منذ سنة ١٨٤٨ حتى الوقت الحالى أى خلال الفترة التى ساد فيها يوم العشر ساعات ، يفوق التقدم الذى حدث فيما بين عامى ١٨٣٣ ، ١٨٤٧ حينما كان يوم العمل ١٢ ساعة ، وإن التقدم الذى شاهدته الصناعة خلال عهد يوم العشر ساعات يزيد عنه فى فترة يوم الإثنى عشرة ساعة أكثر مما يزيد التقدم الحادث فى عهد يوم الاثنى عشرة ساعة عن التقدم الذى حدث خلال الخمسين عاما التالية لقيام نظام المصانع لأول مرة وهى الخمسين عاما التى لم يكن هناك خلالها أية قيود قانونية على يوم العمل [٣].

---

(١) تقارير مفتشى المصانع ، ٣١ أكتوبر ١٨٦١ ص ٢٥ — ٢٦ .

(٢) بدأت الآن (١٨٦٧) فى لانكشير حركة بين عمال المصانع الغرض منها تقرير يوم عمل طوله ٨ ساعات .

(٣) يوضح الجدول المذكور فى الصحيفة (٣٦١) الزيادة فى إنتاج المصانع البريطانية منذ سنة ١٨٤٨ . أنظر الكتب الزرقاء : Statistical Abstract of the Unitcd Kingdom رقم ٨ ، ١٣ ، لندن ١٨٦١ ، ١٨٦٦ . فى لانكشير كانت نسبة الزيادة فى عدد المصانع : ٠٤/٠ (١٨٣٩ — ١٨٥٠) ٠١٩/٠ (١٨٥٠ — ١٨٤٦) ، ٠٣٣/٠ (١٨٥٦ — ١٨٦٢) ، بينما نلاحظ فى الفترات الثلاث أن عدد العمال زاد بصفة مطلقة و نقص بصفة نسبية (تقارير مفتش المصانع ، ٣١ أكتوبر ١٨٦٢ ص ٦٣) . وتشغل لانكشير المحل الأول فى الصناعة القطنية . ويدل على أهمية الدور الذى تلعبه هـــذه المقاطعة فى عمـــل الغزل والمنسوجات عموماً أن ٤٥٫٢ ٠/٠ من مجموع مصانع المنسوجات فى انجلترا وويلز واسكتلنده وارلنده تجده فى لانكشير وفيها ٨٣٫٣ ٠/٠ من المغازل ، ٨١٫٤ ٠/٠ من مجموع الأنوال البخارية ، ٧٢ ٠/٠ من الأحصنة البخارية ، ٥٨٫٢ ٠/٠ من العمال (نفس المصدر ص ٦٢ — ٦٣) .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

إنتاج المصانع البريطانية — الكمية الصادرة

	١٨٤٨	١٨٥١	١٨٦٠	١٨٦٥
قطن				
غزل	١٣٥,٨٣١,١٦٣	١٤٣,٩٦٦,١٠٦	١٩٧,٣٤٣,٦٥٥	١٠٣,٧٥١,٤٥٥
خيط حياكة	—	٤,٣٩٢,١٧٦	٦,٢٩٧,٥٥٤	٤,٦٤٨,٦١١
قماش	١,٠٩١,٣٧٣,٩٣٠	١,٥٤٣,١٦١,٧٨٩	٢,٧٧٦,٢١٨,٤٢٧	٠١٥,٢٣٧,٨٥١
كتان وقنب				
غزل	١١,٧٢٢,١٨٢	١٨,٨٤١,٣٢٦	٣١,٢١٠,٦١٢	٣٦,٧٧٧,٣٣٤
قماش	٨٨,٩٠١,٥١٩	١٢٩,١٠٦,٧٥٣	١٤٣,٩٩٦,٧٧٣	٢٤٧,٠١٢,٥٢٩
حرير				
غزل	٤٦٦,٨٢٥	٤٦٢,٥١٣	٨٩٧,٤٠٣	٨١٢,٥٨٩
قماش	—	١,١٨١,٤٥٥	١,٣٠٧,٢٩٣	٣,٨٦٩,٨٣٧
صوف				
غزل	—	١٤,٦٧٠,٨٨٠	٢٧,٥٣٣,٩٦٨	٣١,٦٦٩,٢٦٧
قماش	—	٢٤١,١٢٠,٩٧٣	١٩٠,٣٨١,٥٣٧	٢٧٨,٨٣٧,٤٣٨

القيمة الصادرة (بالجنيهات الانجليزية)

	١٨٤٨	١٨٥١	١٨٦٠	١٨٦٥
قطن				
غزل	٣,٩٢٧,٨٣١	٦,٦٣٤,٠٢٦	٩,٨٧٠,٨٧٥	١٠,٣٥١,٠٤٩
قماش	١٦,٧٥٣,٣٦٩	٢٣,٤٥٤,٨١٠	٤٢,١٤١,٥٠٥	٤٦,٩٠٣,٧٩٦
كتان وقنب				
غزل	٤٩٣,٤٤٩	٩٥١,٤٢٦	١,٨٠١,٢٧٢	٢,٥٠٥,٤٩٧
قماش	٣,٨٠٢,٧٨٩	٤,١٠٧,٣٩٦	٤,٨٠٤,٨٠٣	٩,١٥٥,٣١٨
حرير				
غزل	—	١٩٥,٣٨٠	٩١٨,٣٤٢	٧٦٨,٠٦٧
قماش	٧٧٠,٧٨٩	١,١٣٠,٣٩٨	١,٥٨٩,٠٣٠٣	١,٤٠٩,٢٢١
صوف				
غزل	٧٧٦,٩٧٥	١,٤٨٤,٥٤٤	٣,٨٤٣,٤٥٠	٥,٤٢٤,٠١٧
قماش	٥,٧٣٣,٨٢٨	٨,٣٧٧,١٨٣	١٢,١٥٦,٩٩٨	٢٠,١٠٢,٢٥٩

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

(٤) المصنع

رأينا فى بداية هذا الفصل كيف تزيد الالات من مقدار المادة الآدمية المعدة للاستغلال وذلك بضم عمل النساء والأطفال ، وكيف تستولى على حياة العامل بأسرها بفضل إطالة يوم العمل إلى ماوراء الحدود المعتدلة ، وكيف تقيم نظاما يتم فى ظله أداء مقدار أكبر من العمل فى فترة أقل من الزمن وبعبارة أخرى كيف أصبحت الالات وسيلة لزيادة حدة استغلال قوه العمل . ولنأخذ الآن فى دراسة المصنع فى أرقى أشكال تطوره ونموه . يصف الدكتور يور المصنع الأوتوماتيكى بأنه « تعاون مشترك من طوائف كثيرة من العمال البالغين والأحداث ويقومون فيه برعاية مجموعة من الالات الإنتاجية بما يسعهم من جهد ومهارة وتحركهم جميعاً قوة مركزية » ويتحدث عنه من جهة أخرى بأنه « جهاز آلى كبير » مكون من أعضاء ميكانيكية وعقلية مختلفة تعمل كلها فى اتحاد وانسجام متصلين لإنتاج شىء مشترك ، وتخضع كلها لقوة محركة تنظم نفسها بذاتها » . وكلا الوصفين أبعد عن التشابه ففى الوصف الأول ينظر إلى العامل الجماعى على أنه الذات ويعامل الجهاز الاوتوماتيكى على أنه الموضوع ، أما فى الوصف الآخر فيصبح هذا الجهاز الذات بينما لا يزيد العمال عن كونهم الأعضاء أو العناصر الواعية المرتبطة فى انسجام مع أعضاء الجهاز الالى غير الواعية ، وهم خاضعون مثلها لقوة محركة مركزية . وينطبق الوصف الأول على كافة الوسائل الممكنة لاستخدام الالات على نطاق واسع ، بينما يعد الثانى من مميزات نظام المصانع الحديث أى الطريقة الرأسمالية فى استعمال الالات ، ولهذا يفضل يور أن يصف الالة المركزية التى تبدأ منها الحركة بأنها حاكم مستبد فيقول « فى تلك الصلات الواسعة تجمع قوة البخار الكريمة حولها ألوفا من الأتباع على استعداد لتلبية رغبتها » (مصدر سابق ص ١٨) .

تنتقل مهارة العامل فى استعمال العدة الى الالة ، وتتحرر طاقة العدة على أداء وظيفتها من القيود التى تفرضها عليها قوة عمل العامل وهذا يقضى على الأساس الفنى الذى يرتكز عليه تقسيم العمل فى ظل نظام الصناعة اليدوية . فبدلا من هذا الشكل الهرمى من العمال المتخصصين وهو مايتميز به تقسيم العمل فى ظل الصناعة اليدوية ، نجد فى المصنع الأوتوماتيكى اتجاها نحو التسوية بين الأعمال التى يتعين على مساعدى الالات أداؤها (مصدر سابق ص ٣١ ، وانظر كذلك « فقرة الفلسفة » تأليف كارل ماركس ص ١٤٠ — ١٤١) . وكذلك نجد أن الفوارق الطبيعية من حيث السن والجنس تحل محل الفوارق الاصطناعية بين العمال الذين يؤدون العمليات التفصيلية .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

ويعود تقسيم العمل إلى الظهور فى المصنع الأوتوماتيكى أولا على هيئة توزيع العمال بين الالات المتخصصة ، وتوزيع جماهير منهم على مختلف أقسام المصنع حيث يشتغلون على آلات متشابهة قد وضعت جنباً إلى جنب ، وهكذا نجد تعاون العمال من الشكل البسيط ، فالمجموعة المنظمة التى تميزت بها الصناعة اليدوية حلت محلها علاقة بين رئيس عمال وبعض معاونين والفارق الرئيسى إنما هو بين العمال الذين يرعون فعلا آلات التشغيل بما فى ذلك بعض العمال الذين يعنون بجهاز الحركة ويمدونه بالوقود من جهة وبين أولئك الذين يساعدون هؤلاء العمال من جهة أخرى . وأغلب هؤلاء المعاونين لهم من الأطفال . ويدخل فى عداد المساعدين أولئك الذين يقتصر عملهم على إمداد الآلات بالوقود . وإلى جانب هاتين الطائفتين المذكورتين آنفاً نجد جماعة قليلة عملها العناية بالآلات بوجه عام والمحافظة عليها فى حالة جيدة وتشمل هذه الطائفة المهندسين ومختلف أنواع الميكانيكيين الخ . وهؤلاء الأخيرون يكونون طبقة عليا من العمال بعضهم ممن حصل على تدريب علمى والبعض الآخر من رجال الحرف الحاذقين ، فهم طبقة متميزة عن عمال المصنع وإنما تضاف اليهم وتجمع معهم(١). هذا التقسيم للعمل فنى بحت .

ولا بد لمن يريد أن يشتغل على آلة أن يتدرب عليها منذ الصغر حتى يتعلم أن يوفق بين حركاته وحركة الجهاز الأوتوماتيكى المتشابهة المستمرة . ونظراً لأن الآلات المختلفة فى المجموعة الواحدة تعمل فى وقت واحد وبانسجام واتفاق لهذا يتطلب التعاون القائم على أساس استعمال الآلات توزيع الجماعات المختلفة من العمال على الآلات المختلفة بالمصنع . ولكن الصناعة الميكانيكية لا تجعل هذا التوزيع روتيناً ثابتاً كما هو الحال فى الصناعة اليدوية ، بل إنها لتقضى على الحاجة الداعية إلى مثل هذا(٢) . ذلك أنه لما كانت الحركة الكلية لا تصدر

---

(١) يستبعد تشريع المصانع البريطانى من دائرة مفعوله طبقة العمال المذكورة أخيراً لأنهم حسب القانون لا يعتبرون من العمال operatives بينما Parliamentary Returns تضم إلى دائرة الأخيرين المهندسين والميكانيكيين وهيئة الادارة والكتبة وعمال المراسلة الخ ـ وبعبارة أخرى جميع من فى المكان عدا صاحب المصنع . ويبدو أن مثل هذا الاضطراب محاولة متعمدة لتعقيد النتائج الاحصائية ، ومن السهل إعطاء أمثلة عن مثل هذا العرض الخاطىء فى حالات أخرى .

(٢) يعترف يور بهذا فيقول إنه ,,فى حالة الحاجة،، يمكن نقل العمال من آلة إلى أخرى حسب إرادة المدير ثم يصرح وقد ملكته نشوة الفوز ,, إن مثل هذا التغيير يتعارض مع الأسلوب القديم المتبع الذى يقسم العمل ويعهد إلى عاملة بتهيئة رأس الابرة وإلى أخرى بسن طرفها ،،. وكان يحسن به أن يسأل نفسه عن السبب الذى من أجله يتحولون فى المصنع الأوتوماتيكى عن هذا ,,الأسلوب القديم،، فى وقت الحاجة فقط .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

عن العامل وإنما تصدر عن الآلة لهذا يمكن نقل العمال وتغييرهم من آلة لأخرى دون أن يؤدى ذلك إلى توقف أو تعطيل عملية العمل . وأبرز مثل لذلك نظام التناوب الذى اتبعه أصحاب المصانع الإنجليز خلال ثورتهم من ١٨٤٨ إلى ١٨٥٠ . وأخيراً فالسرعة التى يتعلم بها الأحداث العمل على الآلة سبب آخر يجعل من الضرورى تدريب طبقة مخصوصة من العمال تنحصر وظيفتهم فى كونهم عمالا على الآلات[١] . وأما فيما يختص بعمل عمال البنائين Hodmen فنى الإمكان أن تحل محله الآلات إلى حد ما[٢] ، ونظراً لبساطة هذا العمل الكبير ليس من الصعب إجراء تغيير سريع ودائم فى الأفراد المثقلين بعبء هذا العمل الممل .

وبرغم أن الآلات تضع حداً — حسب التعبير الفنى — للنظام القديم فى تقسيم العمل ، إلا أن هذا النظام يظل قائماً بالمصنع فترة من الوقت على أنه تقليد موروث عن الصناعة اليدوية ثم يأخذ بعد ذلك أن يتعدل شكله بحيث لا يلبث أن يصبح وسيلة أبشع من ذلك لاستغلال قوة العمل . فبعد أن كان العامل يتخصص طيلة حياته فى الاشتغال بآلة واحدة تؤدى عملية جزئية ، يصبح العامل وقد تخصص مدى حياته فى خدمة آلة تقوم بعملية جزئية ، فالآلات تُسىء استخدامها كيما تحول العامل منذ طفولته إلى مجرد جزء من أجزاء آلة تؤدى

---

(١) فى أثناء كساد التجارة — كما حدث أثناء الحرب الأهلية الأمريكية — تحمل البورجوازية العمال على القيام بأشق أنواع العمل كبناء الطرق الخ . وقد اختلفت ,,الورش الأهلية،، البريطانية التى أنشأت سنة ١٨٦٢ وما بعدها لتشغيل عمال الصناعة القطنية المتعطلين ، عن زميلتها الفرنسية التى فتحت سنة ١٨٤٨ من هذه الناحية وهى أن العمال فى الأخيرة كانوا يؤدون عملا غير انتاجى على نفقة الدولة بينما قام العمال فى الأولى بأداء أعمال إنتاجية بالمدن لصالح البورجوازية ولقاء أجر أقل من أجور العمال النظاميين الذين أخذ الأولون بذلك فى منافستهم ,,ولقد تحسن المظهر الجثمانى لعمال الصناعة القطنية بلا شك ... وإنى لأعزو ذلك... فيما يختص بالرجال إلى أداء أعمال المنافع العامة فى الهواء الطلق ،، . والاشارة هنا إلى عمال المصانع فى برستن حينما حملوا على العمل فى مستنقع برستن (تقارير مفتشى المصانع ، ٣١ اكتوبر ١٨٦٥ ص ٥٩) .

(٢) اليك مثال لهذا . فمنذ صدور قانون سنة ١٨٤٤ أدخلت فى الصناعة الصوفية آلات الغرض منها أن تحل محل الأطفال . وحين يتعين على الأطفال الممتازين أى أطفال أصحاب المصانع أنفسهم أن يدرسوا برنامجاً كمساعدين فى المصنع فان هذا الذى لم يكتشف بعد والمعد لتخريج الميكانيكيين يتميز بتقدم رائع . ,, لعل البغلات التى تدور بنفسها فى مثل الخطر الذى يترتب على أى نوع آخر من الآلات ، ومعظم الحوادث الناجمة منها تصيب الأطفال الصغار بسبب أنهم يزحفون تحت آلات البغلة وهى فى حالة حركة وذلك لكى ينظفوا أرض المكان . وقد فرضت غرامات على بعض المشرفين على الآلات لهذا السبب دون أن يصحب ذلك أى نفع عام . فلو أن مخترعى الآلات استطاعوا اختراع آلة للكنس لوفروا هذا العمل على الأطفال ولزاد ذلك من أساليبنا فى حماية العمال ،، (تقارير مفتشى المصانع ، ٣١ أكتوبر ١٨٦٦ ص ٦٣) .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

عملية تفصيلية [١]. وبهذه الطريقة لا يقف الأمر عند خفض نفقات توالد العامل وتكاثره إلى حد كبير . بل يكمل اعتماده على المصنع (أى على الرأسمالى بمعنى آخر) . وهنا يتعين علينا أن نميز بين الإنتاجية المتزايدة بسبب نمو وتطور عمليـة الإنتاج الاجتماعية وبين الانتاجية المتزايدة التى ترجع إلى استغلال الرأسماليين لهذه العملية .

فى الصناعة اليدوية والحرف اليدوية يستعمل العامل عدة وتصـدر عنه حركات أداة العمل وهو جزء من جهاز حى ، أما فى المصنع فانه يخدم آلة وتخضع حركاته لحركاتها ، كما أنه لا يعدو ان يكون جزءاً ملحقاً بجهاز عديم الحيـاة مستقل عنه . « إن الروتين الممل المترتب على هذا الكد المتصل والذى تتـكرر فيه نفس العمليـة الميكانيكية بلا انقطاع يشبه عذاب سيسفس — فهذا العمل الـكادح يرتد كالصخر على رأس العامل المتعب على الدوام »[٢] . وإلى جانب الأثر السيء للعمل على الالة مما يتعرض له الجهاز العصبى ، فان هذا العمل يعوق نشاط العضلات المتعـدد النواحى ويحول دون حرية النشاط الجثمانى والعقلى[٣] . وحتى تخفيف العمل يصبح وسيلة للتعذيب لأن الالة لا تحرر العامل من عمله وإنما تسلب عمله من عنصر اللذة والاهتمام به . إن هناك أمراً مشتركا بين كافة أنواع الإنتاج الرأسمالى من حيث كونها عمليـات عمل يراد بها تحقيق التمدد الذاتى لرأس المال ، وذلك الشيء المشترك هو أن العـامل لا يستعمل أدوات العمل ولـكن أدوات العمل هى التى تستخدمه ، ولـكن هـذا الوضع المقلوب يصبح حقيقة فنية مادية فى نظام الإنتاج بالالات وحده إذ فى ظله تقف أداة العمل أثناء عملية العمل إزاء العامل بوصفها رأس مال أو عملا ميتاً يتحكم فى قوة العمل الحية ويمتص دمها . فى الصناعة الـكبيرة القائمة على أساس الإنتـاج بالالة يتم انفصال القوى إلى

---

(١) قارن هذا بنظرية برودون الغريبة وهوالذى ,,يفسر،، الآلات لاعلى أنها تأليف بين وسائل العمل بل على أنها تأليف بين عمليات تفصيلية الغرض منه منفعة العامل نفسه .

(٢) J. P. Kay, M. D., : The Moral and Physical Conditions of The Working Classes etc. 1832 p. 8 وحتى المسيو مولينارى وهو من من دعاة حرية التجارة المعاديين المتفائلين يلاحظ ,, أن الرجل الذى يقضى ١٥ ساعة يومياً فى الاشراف على حركات الجهاز الآلى المتشابهة تنهك قواه أكثر مما لو استخدم نشاطه الجثمانى فى مثل هذه الفترة من الوقت . وهذا الاشراف الذى يصح أن يكون تدريبـاً نافعاً للذكاء لولا إطالة مدته أكثر من اللازم ، يؤدى فى الأجل الطويل وبسبب الافـراط إلى تحطيم العقل والجسم على حد سواء.

G. de Molinari : Etudes Economiques, Paris, 1848

(٣) فردريك انجلز : مصدر سابق ص ٢١٦ .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

قوى لرأس المال تتسلط على العمل . إن المهارة الخاصة التي يتصف بها كل عامل فردى على الالة تتضاءل حتى تصبح عنصراً عديم الشأن إذا قيس بالعلم وقوى الطبيعة الهائلة وكتلة العمل الاجتماعى وهى العناصر التى تندمج كلها فى النظام الالى والذى تتولد منه « قوة » صاحب العمل . هذا الرجل الذى تمتزج فى ذهنه الالات باحتكاره لها ، يحدّث العمال باحتقار إذا ما نشب بينه وبينهم نزاع فيقول لهم إن عليهم أن يذكروا أن عملهم نوع منحط من العمل الحاذق يمكن الحصول على مثله بسهولة وبقدر قليل من المران والتدريب « إن الالات التى يملكها رب العمل تلعب فى عملية الإنتاج دوراً أعظم أهمية من عمل العامل ومهارته وهما الأمران اللذان يستطيع العامل العادى أن يتعلمهما فى ظرف ستة أشهر »(١) .

هذا الخضوع الفنى من جانب العامل لحركة أداة العمل ، وهذا التكوين الخاص للهيئة العاملة (من أفراد من مختلف الأعمار ومن الجنسين) ؛ نقول إن هذين الأمرين يخلقان نوعاً من نظام المعسكرات يتحول إلى نظام مصانع كامل ينطوى على تطور تام لعملية الإشراف ومعنى هذا انقسام الفئة العاملة إلى عمال عاديين ومشرفين يراقبون عملهم ، أى إلى أنفار وضباط فى الجيش الصناعى . « كانت الصعوبة الرئيسية (فى المصنع الأوتوماتيكى) تنحصر فى تدريب المخلوقات الآدمية على أن تتخلص من عادات العمل غير المنتظمة الغالبة عليها ، وأن توفق بينها وبين انتظام حركة الجهاز الآلى المعقد . وقد كان خلق وتنفيذ قانون ناجح للنظام بالمصنع يلائم ضروريات العمل النشيط المنتظم فيه من أعظم وأنبل ماقام به أركريت . وحتى اليوم نجد من المستحيل تقريباً أن نحول الأشخاص الذين تجاوزوا سن البلوغ إلى عمال بالمصنع نافعين ، برغم أن هذا النظام قد كمل تنظيمه والعمل قد خف إلى الحد الأقصى »(٢). هذا القانون الذى يطبق بالمصنع ليس إلا صورة كاريكاتورية لذلك التنظيم الاجتماعى لعملية العمل وهو التنظيم الذى يصبح ضرورياً حين يجرى التعاون على نطاق واسع وحين تعمل أدوات العمل المشترك وهى على هيئة آلات (وهذا القانون الذى يصوغ فيه رأس المال سلطانه على العمال عبارة عن نظام تشريعى خاص خلو من توزيع السلطات والأساليب النيابية

The Master Spinners' and Manufacturers' Defence Fund, Report sf the Committee, Manchester, 1854, p. 17 وسنرى فيما بعد أن رب العمل يستعمل أسلوباً خر حينما يتعرض لخطر أن يفقد العمال !

(٢) (يور - ص ١٥) إن أى رجل درس حياة أركريت لا يسعه أن يصف ذلك الخلاق الموهوب بالنبل. فمن مخترعى القرن الثامن عشر يعد الرجل بلا شك على رأس الملصوص فيما يختص باختراعات الآخرين ، كما أنه لص من أحط الأنواع .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

التى تحبها البورجوازية كثيراً فى ميادين أخرى) . فى ظل هـــذا النظام تحل العقوبات التى يقيدها مقدم العمال فى دفتره محل سوط مقدم العبيد . وبطبيعة الحال تتخذ هـذه العقوبات شكل غرامات تفرض وخصم من الأجور ، ويتم هـذا الأمر الذى ابتدعه مشرع المصانع الشبيه بليكرجس بحيث تكون مخالفة التعليمات واللوائح أكثر ربحاً للرأسمالى من مراعاتها(١) .

---

(١) لانجد فى غير المصنع دليلا واضحاً على الرق الذى تفرضه البورجوازية على البروليتاريا ، ففى المصنع يضع القانون الواقع حداً للحرية إذ على العامل أن يكون بالمصنع فى الخامسة والنصف صباحاً ، ولو تأخر دقيقة أو ثانيتين فرضت عليه غرامة ، فان بلغ التأخير عشر دقائق لم يسمح له بالدخول إلا بعد الانتهاء من تناول الافطار وبذا يضيع ربع أجر اليوم . إن عليه أن يأكل ويشرب وينام حسب الأوامر التى تصدر إليه ... إن الصفارة المستبدة تخرجه من فراشه وتجعله يترك الفطور والغداء . وماذا يحدث منذ أن يدخل المصنع ؟ هناك تجد صاحب المصنع مشرعاً مطلق السلطان يصدر التنظيمات حسب إرادته وهواه ويغير قانونه ويضيف إليه أشياء كما يريد ، وحتى لو وضح السخف على هـــذه اللوائح لقالت المحاكم للعامل : ما دمت قد تعاقدت بمحض إرادتك الحرة فعليك أن تنفذ التعاقد .... إن هؤلاء العمال يحكم عليهم بأن يطأوا رؤسهم للسوط فعلا ومجازاً مدى الحياة منذ سن التاسعة حتى الممات (فردريك انجلز ، مصدر سابق ص ٢١٧ مابعدها) . وسأقدم مثلين عمـــا تقوله المحاكم واحدهما تقدمه لنا شفيلد فى أواخر سنة ١٨٦٦ . فهناك وقع عامل عقداً لسنتين فى إحدى مصانع الصلب ثم حدث أن تنازع مع صاحب المصنع وخرج من العمل وهنا قاضاه الآخر وحكمت عليه المحكمة بالحبس شهرين للاخلال للعقد (ولو أن صاحب العمل هو الذى أخل بالتعاقد لحوكم أمام المحكمة المدنية ولما زاد جزاؤه عن غرامة يدفعها) . فلما انقضت المدة طالب رب العمل العامل بتنفيذ العقد بينهما فأبى الأخير وقدم إلى المحاكمة حيث صدر عليه من جديد ولو أن المستر شى أحد قضاة المحكمة أعلن أن من الفظائع القانونية أن يعاقب الرجل من وقت لآخر على نفس الجريمة الواحدة . والذين أصدروا الحكم قضاة يجلسون فى محكمة من أرقى محاكم لندن . وإليك مثال آخر من ولتشير فى نهاية نوفمبر سنة ١٨٦٣ وهو خاص باضراب ٣٤ نساجاً فى مصنع يملكه رجل يدعى Harrup ، ويرجع الاضراب إلى طريقة الرجل فى الاستقطاعات التى يفرضها مقابل التأخير فى الصباح وهى : ٦ بنسات عن دقيقتين ، شلن عن ثلاث دقائق ، ١/٢ شلن عن عشر دقائق — أى بمعدل ٩ شلنات فى الساعة وأربعة جنيهات ونصف الجنيه فى اليوم مع أن متوسط أجر النساج منهم ١٠ بنس ، ١٢ شلن فى الأسبوع . وكان هاراب يستخدم طفلا ينفخ فى صفارته وكان الأخير يفعل ذلك قبل الساعة السادسة صباحاً فاذا لم يوجد العمال عند باب المصنع فى تلك اللحظة أغلقت الأبواب . وقد صرح المضربون أنهم يطالبون بوضع ساعة فى البناء بدلا من استخدام تلك الصفارة . وقد رفع الرجل الدعوى على ١٩ امرأة وفتاة فصدر الحكم على كل منهن بدفع غرامة قدرها ٦ بنسات مضافة إلى المصاريف وقدرت بشلنين ونصف شلن ، ولما عاد هاراب إلى بيته شيعه الجمهور بالصفير دليلا على السخط والغضب — ومن الأمور التى يميل إليها أصحاب المصانع فرض الغرامات على العمال فى حالة وجود عيوب فى المادة الخام ، وقد سببت هذه الطريقة إضرابات فى مصانع الفخار سنة ١٨٦٦ . وتذكر لنا تقارير لجنة تشغيل الأطفال (١٨٦٣ — ١٨٦٦) أمثلة عن حالات استغرقت الغرامات فيها أجر العامل وأصبح مديناً لرب العمل . وإليك ما يقوله المفتش ستربارك عن مهارة أرباب المصانع فى خصم الأجور وقاضيت=

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

وسنكتفى هنا بالإشارة العابرة إلى الأحوال المادية التى يجرى فيها العمل بالمصنع فأعضاء الحواس المختلفة يصيبها الأذى بسبب رفع درجة الحرارة بطريقة اصطناعية ، وبسبب تلوث الهواء بالأجزاء المتناثرة من المادة الأولية ، وبسبب الصوت الذى يصم الاذان الخ ـ وهذا إلى جانب الإصابات والوفيات التى تحدث بانتظام شبيه بانتظام توالى الفصول الأربع ، والتى ترجع إلى ازدحام الالات وتجمعها جنباً إلى جنب(١) . والاقتصاد فى استخدام وسائل الإنتاج الاجتماعية يتحول فى أيدى رأس المال وفى ظل نظام المصانع إلى طريقة لسلب العامل من الضروريات الحيوية وهو يؤدى عمله ، ذلك أنه محروم من الفراغ والهواء والضوء والحماية لشخصه من العناصر الضارة غير الصحية التى تصاحب العملية الإنتاجية ، ولن نقل شيئاً عن الطريقة التى يحرم بها من كل العناصر التى تهيء له الراحة أثناء العمل(٢) . هل كان

= أخيراً صاحب مصنع للنسوجات القطنية لأنه عمد فى هذه الأيام الصعبة إلى استقطاع ١٠ بنسات من بعض صغار العمال لأجل أن يدفع ثمن شهادة الجراح (مع أنه دفع فيها ٦ بنسات) ومع أن القانون لا يخول له سوى استقطاع ٣ بنسات لهذا الغرض ، وجرى العرف ألا يدفع العامل عنها شيئاً ... وقد نما إلى خبر شخص آخر يرغم كل طفل يشتغل لديه على دفع ثمن مقابل تعليمه مهنة الغزل وخفاياها بمجرد أن يشهد الجراح بصلاحيتهم لهذه المهنة ،، . إنه يعتقد أن الاضطرابات التى كثر حدوثها فى تلك الأيام والتى يعجز الرأى العام عن تعليلها لابد أن لها أسباباً خفية . والمستر بكر يشيرهنا إلى إضراب النساجين الذين يشتغلون على الأنوال البخارية فى دارون وهو الاضراب الذى حدث فى يونية سنة ١٨٣٦ (أنظر تقارير مفتشى المصانع بتاريخ ٣٠ أبريل ١٨٣٦ ص ٥٠ — ٥١) وعلى القارىء ملاحظة أن هذه التقارير تتخطى دائماً التواريخ الرسمية .

(١) لا ريب أن ما كفلته قوانين المصانع من حماية ضد أخطار الآلات كان له أثر طيب ولكن هناك أسباباً للحوادث لم يكن لها وجود منذ عشرين عاما وتتلخص فى ازدياد سرعة الآلات مما يستدعى أن تكون حركة الأصابع أسرع وأحذق فى امساك الخيط المنقطع . ويرجع جانب كبير من الحوادث إلى رغبة العمال فى أداء عملهم بسرعة . وعلينا أن نذكر ان استمرار حركة الآلات ذو أهمية قصوى فى نظر رجال الصناعة لأن التوقف دقيقة معناه تبديد القوة المحركة وضياع للانتاج ولهذا يحرص المقدمون على أن تظل الآلات فى حركة دائمة . وبرغم أن تنظيف الآلات وهى فى حالة الدوران محرم بشدة الا أن العادة السائدة فى معظم المصانع ان لم يكن كلها أن يقوم العمال بعملية التنظيف أثناء دوران الآلات ،، ولهذا السبب وحده وقعت ١٠٦ حادثة فى الشهور الست الماضية ويخصص يوم السبت للتنظيف الكامل ، وإذ يحرص العمال على أداء ذلك العمل بسرعة لهذا تزيد الحوادث فى أيام الجمعة وبخاصة فى أيام السبت ونسبة الزيادة (القياس إلى الأيام الأخرى) ١٢ ٠/٠ فى أيام الجمعة ، ٢٥ ٠/٠ فى أيام السبت وإذا راعينا مسألة ساعات العمل لوجدناها ٧½ مقابل ١٠½ فى الأيام الأخرى أى الزيادة على متوسط الأيام الخمسة الأخرى تبلغ ٦٥ ٠/٠ (تقارير مفتش المصانع ، ٣١ أكتوبر ١٨٦٦ ص ٩ و ١٥ و١٦ و١٧) . (هذه الحاشية خلاصة وافية لما أورده المؤلف) .

(٢) سأوضح فى الباب الأول من الكتاب الثالث الحيلة التى شنها أصحاب المصانع ضد مواد القانون التى ترمى

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

فوريه مخطئاً حين قال عن المصنع إنه « شكل مخفف من سجن المجرمين » ؟[١] .

(٥) الصراع بين العامل والآلة

يرجع تاريخ الصراع بين الرأسمالى والعامل الأجير إلى عهد نشأة رأس المال ، وظل ناشباً خلال عصر الصناعة اليدوية [٢] . ولكن العامل لم يصبح فى حرب مع أدوات العمل ذاتها أى الصورة المادية التى يتجسم فيها رأس المال - إلا منذ بدأ استخدام الآلات الميكانيكية . فهو ثائر ضد هذا الشكل المخصوص من أدوات الإنتاج لأنها الأساس المادى الذى تقوم عليه طريقة الإنتاج الرأسمالية . وخلال القرن السابع عشر شهرت كل أوربا تقريباً ثورة ضد آلة لنسج الشرائط والضفائر . وقد حدث اختراع هذا النول فى ألمانيا . وقد جاء ما يأتى فى كتاب للأسقف الإيطالى لانشيلوتى صادر بالبندقية عام ١٦٣٦ (وإن كان قد كتب سنة ١٥٧٩) : « منذ

= إلى حماية « العمال » من الآلات الخطيرة . ويكفى هنا أن أقتبس بعض ما فى التقرير الرسمى الذى كتبه المفتش ليونارد هورنر « سمعت بعض أصحاب المصانع يتحدث بخفة لا يمكن تبريرها عن حوادث مثل ضياع إصبع ويصفها بأنها مسألة تافهة . إن حياة العامل ومستقبله يتوقفان كثيراً على أصابعه بحيث أن فقدان أحدها مسألة خطيرة بالنسبة إليه . ولما سمعت هذه الملاحظات غير المهذبة توجهت بالسؤال الآتى : لنفرض إنك احتجت إلى عامل زيادة عما لديك وتقدم لك عاملان متساويان فى الكفاية ولكن أحدهما فقد إبهامه أو خنصره ، فأيهما تلحق بخدمتك ؟ ولم يتردد أحد مطلقاً فى الاجابة » . وفى نفوس رجال الصناعة « سوء ظن خاطىء ضد ما يسمونه التشريع ذا الطابع الانسانى المتكلف الكاذب » ... تقارير ... ٣١ أكتوبر ١٨٥٥ - لقد كان أصحاب المصانع هؤلاء أذكياء ، وكانت لديهم أسباب جيدة فى تأييدهم الحماسى لثورة ملاك العبيد !

(١) فى المصانع التى خضعت زمناً أطول من غيرها لقانون المصانع بما فيه من قيود على ساعات العمل ومن تنظيمات أخرى مختلفة ، زالت كثير من المساوىء السابقة . ونفس تحسين الآلات « يتطلب تحسيناً فى تشييد المبانى » وهذه ميزة للعمال . (تقارير ... ٣١ أكتوبر ١٨٦٥ ص ١٩) .

(٢) أنظر مثلا John Houghton : Husbandry and Trade Improved, London, 1827 وكذلك The Advantages of the East Indian Trade, 1720 وأيضاً John Bellers (مصدر سابق) - وأنظر الفقرة التالية « من سوء الحظ أن أصحاب العمل masters وعمالهم فى حرب دائمة ، فهدف الأولين أداء العمل بأرخص ما يمكن ولا يتورعون عن استخدام أى حيلة أو طريقة لتحقيق ذلك ، أما الآخرون فلا يدعون فرصة لمضايقة مخدوميهم حتى يقبلوا طلبات أعلى يقدمونها (العمال) » ، An Inquiry into the Causes of the Present High Prices of Provisions, 1767 pp. 61—60 (كتبه The Rev. Nathaniel Forster وهو فى صف العمال) .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

خمسين عاما رأى أنطون مولر من أهل دانزج آلة هناك تنسج ما بين أربع وست قطع مرة واحدة . وإذ خشى مجلس المدينة تعطل عدد كبير من العمال بسبب هذا الاختراع أمر بتحطيم الآلة ودبر وسيلة خفية لخنق مخترعها أو إغراقه » . واستخدمت تلك الآلة فى ليدن سنة ١٦٢٩ فأثارت شغبا بحيث اضطر مجلس المدينة إلى تحريم استعمالها ، وقيد مجلس الولايات استعمالها بقرارات أصدرها فى ١٦٢٣ ، ١٦٢٩ الخ ثم أجاز ذلك القرار الصادر فى ١٥ ديسمبر ١٦٥١ بشروط معينة . وذكر بوكسهورن فى كتابه « النظم السياسية » المنشور سنة ١٦٦٣ مايلى عن هذه الآلة « منذ عشرين عاما اخترعت بالمدينة — ليدن — آلة يستطيع بها رجل واحد أن يصنع مقداراً أكبر من الأشرطة وبطريقة أحسن مما كان يفعل كثيرون فى نفس الفترة من الزمن » . أدى ذلك إلى اضطرابات محلية وشكوى من جانب النساجين مما حمل مجلس المدينة على تحريمها . وقد مُنعت فى كولونيا (١٦٧٦) ، كما سبب إدخالها فى إنجلترا حوالى ذلك الوقت اضطرابات بين طوائف العمال ، وقد أصدر الإمبراطور فى ١٩ فبراير ١٦٨٥ أمرا بتحريمها فى ألمانيا . وأمر سناتو همبرج بحرقها علناً . وجدد شارل السادس القرار السابق (٩ فبراير ١٧١٩) . ولم يُسمح بها في سكسونيا علناً إلا سنة ١٧٦٥ . هذه الآلة التى أحدثت مثل هذه الضجة كانت مقدمة لآلة الغزل والنول البخارى ، وبذا كانت إيذاناً بالثورة الصناعية التى حدثت فى القرن الثامن عشر . وقد كان فى استطاعة أى ولد لم تتوافر له الخبرة اللازمة أن يدير ذلك النول بكافة مكاكيكه وذلك بمجرد تحريك عصا ذات اليمين وذات الشمال . وفى أرقى أشكالها أنتجت تلك الآلة مابين ٤٠ ، ٥٠ قطعة مرة واحدة . وحوالى سنة ١٦٣٠ حدث شغب انتهى بتدمير ورشه تدور بقوة الريح سبق أن أقامها هولندى على مقربة من لندن ، واستمر الشعب حتى نهاية القرن الثامن عشر يقاوم أمثال هذه المعامل وهى مقاومة لقيت تأييد البرلمان ولم يمكن التغلب عليها إلا بصعوبة . وفى ١٧٥٨ أنشأ إيفرت أول آلة لجز الصوف تدار بقوة الماء فأحرقها مائة ألف عامل تعطلوا ، وقدم ٥٠,٠٠٠ عامل ممن كانوا يعيشون على جز الصوف التماساً إلى البرلمان ضد مصنع أركريت وآلات التمشيط التى اخترعها . وفى المناطق الصناعية بانجلترا خلال السنوات الخمس عشرة الأولى من القرن التاسع عشر سبب استخدام الآلات (وبخاصة على هيئة الأنوال البخارية) اضطرابات تعرف باسم حركة لد هدفها تدمير الآلات واتخذتها الحكومة المكونة من أمثال سدموت وكسلريه ذريعة لإجراءات شديدة ورجعية للغاية ضد الطبقة العاملة . وكان لا بد للعمال من قدر كافٍ من الخبرة والوقت ليفرقوا بين الآلات أى أدوات الإنتاج المادية ذاتها وبين استخدام رأس المال للآلات أى الشكل الاجتماعى

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

الذى تستعمل فيه أدوات الإنتاج (١) .

ومنازعات الأجر داخل مملكة الصناعات اليدوية تفترض مقدماً وجود هذه الصناعة كما أن المنازعات غير موجهة ضدها ، وإذا كانت هناك مقاومة لانتشار النظام الصناعى فان مصدرها النقابات الطائفية والمدن ذوات الامتيازات وليست مقاومة من جانب العمال الأجراء . وينظر كتاب عصر الصناعة اليدوية إلى تقسيم العمل فى الغالب على أنه وسيلة لتعويض نقص فى العمال لا على أنه وسيلة للتخلص ممن يشتغلون فعلا . وهذا التميز واضح . لنفرض أن انجلترا تحتاج ١٠٠,٠٠٠,٠٠٠ شخص كى يغزلوا بواسطة العجلات العتيقة القطن الذى تغزله الآلات الميكانيكية الآن بمساعدة نصف مليون شخص . فليس معنى هذا أن الآلات حلت محل هذه الملايين التى لم يكن لها وجود مطلقاً بل معناه أنه لو أردنا استبدال آلات الغزل الميكانيكية بعمال لاحتاج الأمر إلى ملايين كثيرة . وإذا قلنا إن الأنوال البخارية عطلت ٨٠٠,٠٠٠ نساج فاننا لانقصد الإشارة إلى الالات التى يمكن فقط أن يحل محلها عدد محدود من العمال ، وإنما نشير إلى عدد محدود قد حلت الالات محله فعلا وألقت به إلى عرض الطريق . وفى عصر الصناعة اليدوية كانت الحرفة اليدوية هى الأساس برغم كونها غير متصلة الحلقات ، ولم يكن مستطاعاً أن تشبع منتجات ذلك العدد الصغير نسبياً من عمال المدن الذين كانوا من مخلفات العصور الوسطى ، مطالب الأسواق الجديدة بالمستعمرات ، وفتحت المصنوعات اليدوية بمعناها الصحيح مجالات جديدة من الإنتاج لأهل الريف الذين طردوا من الأرض حين تحطم النظام الإقطاعى . وفى الوقت ذاته كانوا ينظرون إلى تقسيم العمل والتعاون فى الورشة من وجهة النظر الإيجابية أى أنهما جعلا العامل المشتغل فعلا أكثر إنتاجية (٢) . حقيقة سبب تطبيق

---

(١) فى الصناعات القديمة الأسلوب نجد حتى اليوم أن ثورات العمال ضد الآلات تتخذ مظهراً وحشياً ، وقد حدث هذا مثلا بين خراطى المبارد بشفيلد سنة ١٨٦٥ .

(٢) يفهم سير جيمس ستيوارت الآلات بهذا المعنى ,, وعلى ذلك أعد الآلات طريقة لزيادة عدد المجدين (زيادة فعلية) بدون أن تترتب على ذلك نفقات تغذية العدد الاضافى ... ففى أى ناحية يختلف تأثير الآلات عن التأثير الناجم من وجود سكان جدد ؟ An Inquiry into the Principles of Political Economy ,, جزءان ، لندن ١٧٦٧ ، حـ ١ ص ١٢٢ ، ١٢٣ ،، (الكتاب الأول ، الفصل التاسع) — ونجد بيتى أكثر بساطة لأنه يقول إن الآلات تحل محل ,, تعدد الزوجات ،، ، ويمكن تقبل هذا الرأى بخصوص بعض أنحاء الولايات المتحدة ومن جهة أخرى يقول Piercy Ravenstone فى كتابه

Thoughts on the Funding System and its Effects

(لندن ١٨٢٤ ص ١٥) : ,, يندر استخدام الآلات بنجاح لاختصار العمل الذى يقوم به الفرد ، لأن إنشاءها يؤدى إلى ضياع وقت أكثر من الوقت الذى يوفره استخدامها . إن فائدتها تظهر حين تساعد آلة واحدة عمل الألوف =

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

التعاون على الزراعة وتركيز وسائل الإنتاج فى أيدى أفراد قلائل ثورات واسعة فجائية فى طريقة الإنتاج وبالتالى فى أحوال المعيشة ووسائل العمل لأهل الريف — وذلك فى بلاد كثيرة قبل بدء عصر الصناعة الكبيرة بوقت طويل . ولكن هذا الصراع كان فى منشئه صراعاً بين كبار الملاك وصغارهم أكثر منه بين رأس المال والعمل الأجير . ومن جهة أخرى لما كانت أدوات العمل والأغنام والخيول الخ تطرد العمال من الأرض ، كان يحدث الالتجاء المباشر إلى القوة كمقدمة للثورة الصناعية . ففى أول الأمر كان العمال يطردون من الأرض ثم تأتى بعد ذلك الأغنام . وهذا التهافت الكبير على الأرض كما حدث بانجلترا كان الخطوة الأولى لإقامة الزراعة على مدى كبير[1] . وعلى ذلك في البداية كان لهذه الثورة فى الزراعة مظهر ثورة سياسية أكثر من أى شىء آخر . وحين تصبح أدوات العمل على هيئة آلات ميكانيكية فهناك تبدأ المنافسة المباشرة بينها وبين العامل[2] ، والتوسع الذاتى لرأس المال بواسطة الآلات يتناسب تناسباً مباشراً مع عدد العمال الذين حطمت الآلات وسائل عيشهم - ويرتكز نظام الإنتاج الرأسمالى بأسره على حقيقة كون العامل يبيع قوة العمل كسلعة ، وبفضل تقسيم العمل تتخصص هذه القوة وتهبط إلى منزلة مهارة فى استعمال عدة مخصوصة . وبمجرد أن يصبح توجيه العدة من عمل الآلة الميكانيكية تختفى القيمة الاستعمالية والقيمة التبادلية لقوة عمل العامل . يصبح العامل غير قابل للبيع كالورق النقدى الذى لا تعود له قوة إبراء قانونية . هذا الفريق من الطبقة العاملة والذى تحول بسبب الآلات إلى فائض من السكان (أى فريق لا تعود هناك حاجة مباشرة إليه لتنمية التوسع الذاتى لرأس المال) إما أن يتحطم فى الصراع غير المتساوى القوة بين الحرف القديمة والصناعة اليدوية القديمة من جهة وبين الصناعة الآلية من جهة أخرى ، وإما أن يفيض على فروع الصناعات التى يسهل الوصول اليها فيغمر سوق العمل وبذلك يهبط بثمن قوة العمل إلى ما دون قيمتها . والمفروض أن من أساليب التعزية لهؤلاء العمال الذين أصابهم الفقر أن آلامهم إلى حد ما ليست أكثر من مشاق مؤقتة . وكذلك بالتدريج تسيطر الالات على

= ولهذا فهى أوسع انتشاراً فى البلاد الشديدة الازدحام بالسكان حيث يوجد قوم من أشد الناس خمولا ... إن استعمالها ليس سببه قلة السكان ، وإنما سهولة استخدامها للعمل فى مجموعات كبيرة ،، .

(١) ينطبق هذا أيضاً على ألمانيا ، فحيثما لا تزال الزراعة موجودة على نطاق واسع وبخاصة فى الولايات الشرقية فالسبب راجع إلى نظام Bauern—legen الواسع الانتشار منذ القرن السادس عشر وبخاصة منذ سنة ١٦٤٨ . (يقصد بهذه الكلمة إلغاء السيد الاقطاعى لما منحه من أرض للفلاح ثم إدماجها فى مزرعته) .

(٢) يقول ريكاردو (ص ٤٧٩) ،، إن الآلات والعمل فى تنافس دائم ،، .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

ميدان الإنتاج كله بحيث يخفف مدى وحدة آثارها المدمرة . وكل من هاتين التعزيتين تعادل الأخرى وتنفيها . حين تغزو الالات ميداناً من الإنتاج ببطء فانها تحدث فاقة مزمنة بين العمال الذين عليهم منافسة الآلات ، وحين يكون الانتقال سريعاً فان أثر الآلات هائل شديد . وإن التاريخ لا يقدم لنا مشهداً أكثر إيلاماً للنفس من التحطم التدريجي الذى أصاب النساجين اليدويين بانجلترا وهى عملية استغرقت عقوداً عدة وتمت نهائياً حوالى سنة ١٨٣٨ ومات كثيرون منهم جوعاً بينما واصل الكثيرون منهم البقاء يعولون أنفسهم وأسراتهم بأجر قدره بنسان ونصف البنس فى اليوم الواحد (١) . ومن جهة أخرى كان للآلات القطنية الإنجليزية تأثير شديد الوقع في الهند فقد جاء فى تقرير الحاكم العام (١٨٣٤ - ٣٥) « يكاد الشقاء لا يجد مثيلا له فى تاريخ التجارة فسهول الهند تغطيها عظام نساجى القطن » . ولا ريب أن الآلات إذ حولت النساجين من هذا العالم «المؤقت» لم تفعل أكثر من أنها سببت « متاعب مؤقتة » ، ولكن هذا التأثير « المؤقت » دائم فى الحقيقة نظراً لانتشار الآلات باستمرار إلى فروع جديدة من الإنتاج . ويقال بوجه عام إن الطريقة الرأسمالية للانتاج تكسب حالات العمل ومنتج العمل مظهراً مستقلا وغريباً إزاء العمال ، ولكن حينما تستخدم الآلات فانها « تثبت دعائم تناقض فاحش » (٢) . ولهذا نرى استخدامها تصحبه ثورة العمال لأول مرة ضد أدوات العمل . هذا العداء المباشر بين الطرفين يزداد وضوحاً حين تقع المنافسة بين الالات من جهة

---

(١) طال أمد المنافسة بين الغزل اليدوى والغزل بالنول البخارى فى انجلترا قبل صدور قانون الفقراء الجديد (١٨٣٤) ، والسبب فى ذلك تقديم الاعانة الخارجية للعمال الذين هبطت أجورهم دون الحد الأدنى . ونستطيع أن نستدل على المنافسة بين العمل الانسانى والآلات من الأسئلة التى وجهتها ,, لجنة الهجرة ،، إلى المستر تيرنر (القسيس ببلدة ولمسلو بمقاطعة شيشير سنة ١٨٢٧) . ,, ألم يحل النول البخارى محل النول اليدوى ،، ,, بلا شك ، وكان من المستطاع أن تزداد هذه الظاهرة لولا أن أرغم الغزالون اليدويون على قبول خفض فى الأجور ،، — ولكن أليس معنى رضوخ العامل أنه قبل أجوراً غير كافية وبذا ينتظر المساعدة من الأبرشية ؟ ،، ,, نعم ، والواقع أن المنافسة بين النول اليدوى والنول البخارى أبقت عليها الاعانات التى تدفع للفقراء . هذا الفقر المذل هو المنفعة التى عادت على العامل المجد من استخدام الآلات ، فهوى من منزلة الميكانيكى المحترم والذى يتمتع بقدر من الاستقلال إلى مرتبة ذلك التعس الذى يعيش على خبز الصدقة ،،

A Prize Essay on the Comparative Merits of Competition and Co-operation, London 1824, p. 29.

(٢) ,, ونفس السبب الذى قد يؤدى إلى زيادة ايرادات الدولة قد يجعل فى الوقت ذاته السكان فائضين عن الحاجة ويحط من أحوال العامل ،، (ريكاردو ص ٤٦٩) . وفى نفس الفقرة يشرح لنا ريكاردو معنى ,,ايرادات الدولة ،، ومنها نعلم أنه يقصد ايرادات ملاك الأراضى والرأسماليين وهم الذين يعد ذلك الاقتصادى ثروتهم العناصر =

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

والحرف اليدوية أو الصناعة اليدوية القديمة من جهة أخرى ولكن ، حتى فى داخل نطاق الصناعة الكبيرة ، نجد أن التحسينات الدائمة فى الآلات وتطور النظام الآلى لها تأثير مماثل . إن الغرض من تحسين الآلات تقليل العمل اليدوى ؛ وضمان أداء عملية أو إتمام حلقة فى صناعة بمساعدة جهاز حديدى بدلا من جهاز آدمى[١] . وكذلك ، إن استخدام القوة فى الآلات المدارة باليد حتى ذاك الوقت عمل يكاد يحدث كل يوم ... والتحسينات الصغرى فى الآلة بقصد توفير القوة وإنتاج عمل حسن وزيادة العمل والحلول محل الطفل أو الأنثى أو الرجل ، هى تحسينات دائمة ، وبرغم أنها قد تبدو فى الظاهر غير عظيمة الأهمية فلها نتائج هامة نوعاً[٢] » . وكذلك حينما تتطلب عملية ما مهارة وضبط يد من نوع خاص فانها تسحب بأسرع ما يمكن من يد العامل المعرض لعدم الانتظام ويعهد بها إلى آلة تنظم نفسها بنفسها بحيث يستطيع طفل أن يشرف عليها[٣] ، ولكن النظام الالى يقضى على العمل الحاذق تدريجاً[٤] ، ويبدو أثر التحسينات فى الآلة لا فى أنها لا تجعل ثمت حاجة إلى استخدام نفس المقدار من عمل الأفراد البالغين كما كان الحال قبلا فحسب بقصد تحقيق نتيجة معينة ولكن فى إحـــلال نوع من العمل الإنسانى محل الآخر : كالعمل غير الحاذق مكان الحاذق ، وعمل الصبيان محل عمل البالغين ، وعمل المرأة بدلا من عمل الرجل ـــ وهذا أمر يحدث اضطراباً جديداً فى معدل الأجور[٥] . والأثر الناجم من إحلال البغلة الميكانيكية مكان البغلة العادية هو

= التى تتكون منها ثروة الشعب ،، ان لكل تحسين فى الآلات هـدفاً وميلا دائمين نحو الاستغناء التام عن عمل الانسان أو خفض ثمنه باحلال النساء والأطفال محـــل الذكور البالغين ، أو استخدام العمال غير الحاذقين مكان الحاذقين (يور حـ ١ ص ٣٥) .

(١) تقارير ... ٣١ أكتوبر ١٨٥٨ ص ٤٣

(٢) تقارير ... ٣١ أكتوبر ١٨٥٦ ص ١٥

(٣) يور (ص ١٩) ،، وتنحصر المزية الكبرى لاستخدام الآلات فى عمل الطوب فى استقلال رب العمل تماماً عن العمال الحاذقين ،، (لجنة تشغيل ... التقرير الخامس ١٨٦٦ ص ١٨٠ رقم ٤٦) — ويقول المستر ا . ستاروك مراقب قسم الآلات فى سكة حديد الشمال الكبرى ، بصدد بناء القاطرات الخ ،، فى كل يوم يقل استخدام العمال الانجليز الخشيرى الكفاة . ويزداد انتاج الورش فى انجلترا بفضل استعمال العدد ، وهذه العدد يتولاها طبقة منحطة من العمال ... كان العمل الحاذق فيما مضى ينتج بحكم الضرورة كافة أجزاء الآلات ، أما الآن فيقوم بهذا العمال الأقل حذقاً ومهارة وهم يستخدمون عدداً طيبة أقصد بها آلات المهندسين من أمثال المخارط وآلات التسوية والمثاقيب الخ ،، Royal Commission on Railways, London, 1867 Minutes of Evidence. nn. 17,862 and 17,863.

(٤) يور ص ٢٠ . (٥) شرحه ص ٣٢١

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

التخلص من الجانب الأكبر من النساجين الرجال واستبقاء البالغين والأطفال(١) .

أما كيف أصبح النظام الآلى مرناً إلى حد غير عادى بفضل تجميع الخبرة العلمية وطابع الشمول الكامن فى الالات والتقدم المتصل فى الناحية الفنية - نقول إن هذا دل عليه التقدم الذى حققه ذلك النظام تحت ضغط يوم العمل الأقصر أمداً عن ذى قبل . ولكن من ذا الذى كان يستطيع أن يحلم عام ١٨٦٠ - وهى أشد سنى صناعة القطن بانجلترا رخاء - بمدى سرعة تحسين الالات فى السنوات الثلاث التالية وذلك تحت ضغط الحرب الأمريكية ، أو يحلم بمدى طرد العمل اليدوى بنفس الدرجة ! ولنذكر مثلا أو اثنين ، مقتبسين من تقارير مفتشى المصانع . ذكر أحد رجال الصناعة بمنشستر ما يأتى « كان لدينا قبلا ٧٥ آلة تمشيط ولكنها أصبحت الآن ١٣ فقط تؤدى نفس القدر من العمل .... وعدد العمال قل بمقدار أربعة عشر عاملا فوفرنا من الأجور ١٠ جنيهات كل أسبوع ، والوفر فى العادم من القطن المستهلك يعادل ١٠٪ . » وقيل لى فى مصنع آخر للغزل الرفيع فى منشستر إن الزيادة فى السرعة واستخدام عمليات آلية سببا خفضاً فى العدد بقدر الربع فى قسم وأكثر من النصف فى قسم آخر ، كما أن إدخال آلة التمشيط هبط بعدد العمال فى غرفة التمشيط كثيراً » ، ووفر مصنع آخر للغزل ١٠٪ من الأيدى العاملة . وذكر السادة جيلمور الغزالون بمنشستر أن نفقاتهم فى قسم التنظيف هبطت بمقدار الثلث بسبب استخدام الالات الجديدة ، وحدث نفس الأمر فى غرفة الغزل . وأكثر من هذا إن ما يخرج من مصانعهم من الغزل يجعل فى إمكان رجال الصناعة الآخرين إنتاج كمية أكبر من القماش وبثمن أرخص مما كانوا ينتجون عن طريق استخدام الغزل الذى استعملت فيه الالات القديمة(٢) . والخفض فى عدد الأيدى العاملة مع الإنتاج المتزايد يحدث فى الحقيقة على الدوام ، ففى مصانع الصوف بدأ الخفض منذ زمن ولا يزال مستمراً . وقال ناظر مدرسة بجوار رودشديل إن الهبوط فى عدد التلميذات لا يرجع إلى الضيق فحسب ، بل وإلى التغييرات التى حدثت فى الالات والتى ترتب عليها خفض بنسبة ٧٠٪ فى عدد من يشتغلون بعض الوقت(٣) . ويوضح الجدول التالى

---

(١) شرحه ص ٢٣ .

(٢) تقارير مفتشى المصانع ، ٣١ أكتوبر ١٨٦٣ ص ١٠٨ - ١٠٩ .

(٣) شرحه ص ١٠٩ - كان من أثر التحسين السريع فى الآلات خلال الأزمة القطنية أن تمكن أصحاب المصانع الانجليز من إغراق السوق العالمية على أثر الحرب الأهلية الأمريكية . فخلال الشهور الست الأخيرة من عام ١٨٦٦ كانت المنسوجات تكاد لا تجد شارياً . وبعد ذلك بدأ إرسال البضائع إلى الهند والصين مما زاد الاغراق سوءاً ، فلجأ أصحاب المصانع فى بداية ١٨٦٧ إلى طريقتهم المعتادة وخفضوا الأجور بمقدار ٥٪ . ثار العمال وأعلنوا (وهم على =

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

(ص ٣٧٧) نتائج تلك التحسينات التى أدخلت على الالات فى الصناعة القطنية بانجلترا والتى ترتبت على الحرب الأهلية الأمريكية . ففيما بين ١٨٦١ ، ١٨٦٨ اختفى ما لا يقل عن ٣٣٨ مصنعاً للقطن ، وبعبارة أخرى تركز عدد أكبر من الآلات الأكثر إنتاجية فى أيدى عدد أصغر من الرأسماليين . لقد هبط عدد الأنوال البخارية بمقدار ٢٠٫٦٦٣ ولكن زاد مقدار ما تنتجه . وأخيراً زاد عدد المغازل بمقدار ١٫٦١٢٫٥٤١ بينما نقص عدد العمال المستخدمين بمقدار ٥٠٫٥٠٥ ، وهكذا زادت الفاقة « المؤقتة » التى عاناها العمال بسبب الأزمة القطنية وتحولت إلى فاقة دائمة بسبب التحسين السريع المستمر فى الالات . ولكن وظيفة الآلات لا تقف عند حد كونها منافساً قوياً مستعداً على الدوام لأن يجعل العمال الأجراء « فائضين عن الحاجة » ، بل إنها كذلك قوة معادية مباشرة للعامل الأجير وينظر إليها الرأسمالى على أنها كذلك ويستخدمها بهذا المعنى . وهى تستخدم كأقوى سلاح للتغلب على المقاومة التى تبديها الطبقة العاملة من وقت لآخر ضد أوتوقراطية رأس المال[١] . ويقول جاسكل إن الآلة البخارية كانت منذ البداية الأولى خصما للقوة الآدمية مكن الرأسمالى من أن يقاوم بنجاح دعاوى العمال المتزايدة التى هددت بايقاع نظام المصانع فى أول أمره فى أزمة[٢]. وفى الإمكان وضع كتاب كامل عن تاريخ الاختراعات منذ سنة ١٨٣٠ والتى كانت سلاحاً فى يد رأس المال ضد الطبقة العاملة . وفوق كل شىء ينطبق هذا الأمر على آلة الغزل المعروفة باسم اليغلة والتى استهلت عهداً جديداً فى النظام الآلى[٣] automatic . وفى شهادة ناسميث مخترع المطرقة البخارية أمام لجنة اتحادات العمال جاء ما يلى بصدد التحسينات التى أدخلها فى الآلات بسبب إضراب المهندسين الواسع النطاق والطويل الأمد سنة ١٨٥١ « والمظهر الذى يميز

= حق من الناحية النظرية) أن السبيل الوحيد للخلاص من الأزمة إنما يكون بخفض وقت العمل أى بجعله أربعة أيام فى الأسبوع . وبعد أن قاوموا وقتاً طويلا اضطر قادة الصناعة إلى الموافقة على العمل وقتاً قصيراً بنفس الأجور السابقة فى بعض الجهات وبخفضها بمعدل ٥ ٪ فى جهات أخرى .

(١) « والعلاقة بين رب العمل والعامل فى حرف عمل القوارير من الصوان المنفوخ ، كأنها حالة من الاضراب المزمن » ، ومن هنا يجىء الدافع على صنع الزجاج المضغوط حيث تقوم الآلات بالعمليات الرئيسية . وفى نيوكاسل شركة كانت تصنع من النوع الاول ٣٥٠٠٠٠٠ رطل فأصبحت تنتج اليوم ٣٠٠٠٠٫٥٠٠ من الأرطال من الزجاج المضغوط . (لجنة تشغيل الأطفال ، التقرير الرابع ١٨٦٥ ص ٢٦٢ ، ٢٦٣) .

(٢) Gaskell : The Manufacturing Population of England, London; 1833, pp. 3—4.

(٣) بسبب الاضرابات فى معامل صنع الآلات قام المستر فيربيرن بتطبيقات هامة للآلات فى بناء الالات .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

عدد المصانع

	١٨٥٨	١٨٦١	١٨٦٨
إنجلترا وويلز	٢٠٠٤٦	٢٠١٧٥	٢٠٤٠٥
اسكتلنده	١٥٢	١٦٣	١٣١
إرلنده	١٢	٩	١٣
المملكة المتحدة	٢٠٢١٠	٢٠٨٨٧	٢٠٥٤٩

عدد الأنوال البخارية

إنجلترا وويلز	٢٧٥٠٥٩٠	٣٦٨٠١٢٥	٣٤٤٠٧١٩
اسكتلنده	٢١٠٦٢٤	٣٠٠١١٠	٣١٠٨٦٤
إرلنده	١٠٦٣٣	١٠٧٥٧	٢٠٧٤٦
المملكة المتحدة	٢٩٨٠٨٤٧	٣٩٩٠٩٩٢	٣٧٩٠٣٢٩

عدد المغازل

إنجلترا وويلز	٢٥٠٨١٨٠٥٧٦	٣٨٠٣٥٢٠١٥٢	٣٠٠٤٧٨٠٢٢٨
اسكتلنده	٢٠٠٤١٠١٢٩	١٠٩١٥٠٣٩٨	١٠٣٩٧٠٥٤٦
إرلنده	١٥٠٠٥١٢	١١٩٠٩٤٤	١٢٤٠٢٤٠
المملكة المتحدة	٢٨٠٠١٠٠٣١٧	٣٠٠٣٨٧٠٤٩٤	٣٢٠٠٠٠٠٠١٤

عدد الأشخاص المستخدَمين

إنجلترا وويلز	٣٤١٠١٧٠	٤٠٧٠٥٩٨	٣٥٧٠٠٥٢
اسكتلنده	٣٤٠٦٩٨	٤١٠٢٣٧	٣٩٠٨٠٩
إرلنده	٣٠٣٤٥	٢٠٧٣٤	٤٠٢٠٣
المملكة المتحدة	٣٧٩٠٢١٣	٤٥١٠٥٦٩	٤٠١٠٠٦٤

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

التحسينات الميكانيكية الحديثة إدخال the self — acting tool machinery . إن ما يتعين على العامل أداؤه وما يستطيع ولد عمله إنما هو الإشراف فقط على العمل الجميل الذى تقوم به الآلة . لقد تم الاستغناء تماماً عن طائفة العمال الذين يعتمدون على مهارتهم بصفة خاصة . فمن قبل كنت استخدم أربعة أولاد مقابل كل ميكانيكى ، وبفضل الارتباطات الميكانيكية الجديدة خفضت عدد الرجال من ١٥٠٠ إلى ٧٥٠ مما نجمت عنه زيادة بالغة فى أرباحى » . ويقول يور عن آلة لطبع البفتة « وأخيراً بحث الرأسماليون فى ميدان العلم عن وسيلة للخلاص من هذه العبودية التى لا تطاق[1] وسرعان ما عادوا ثانية للجلوس فى مركزهم الشرعى للحكم وهو مركز الرئيس على الأعضاء الأقل شأناً » . وقال عن اختراع آخر لترتيب السداة سبب إضراباً « خيل لهؤلاء المستائين أنهم متحصنون فى مراكز منيعة وراء خطوط تقسيم العمل القديمة ، فما لبثت الصفوف أن انهارت وخطوط الدفاع وقد صارت غير ذات نفع بسبب الخطط الميكانيكية الجديدة ، واضطروا إلى التسليم حسب الإرادة » . أما عن اختراع البغلة ذات الحركة الآلية الذاتية فقال « إنه كشف يقدر له أن يعيد النظام إلى صفوف الطبقات العاملة فى الصناعة ... لقد أثبت هذا الاختراع صدق المذهب الذى قال إنه حينما يستخدم رأس المال العلم فان يد العمل المتمردة تتعلم الهدوء والدعة » (يور ص ٣٦٨ — ٣٧٠) . وبالرغم من أن كتاب يور نشر سنة ١٨٣٥ حيث لم يكن نظام المصانع متقدماً نسبياً ، فانه لا يزال أعظم تعبير كلاسيكى عن روح المصنع من حيث قسوتها السافرة وصراحتها التى تخفى متناقضات العقلية الرأسمالية عديمة الذكاء . فمثلا بعد توسع فى بيان «المذهب» الذى يرى «أن رأس المال يستطيع بمساعدة العلم أن يعوّد يد العامل المتمردة على الرضوخ دائماً . تراه يثور غضباً لأن العلوم الطبيعية الميكانيكية تتهم بأنها تعرض نفسها للرأسمالى الغنى كأداة لمضايقة الفقراء . وبعد أن ألقى عظة طويلة أبان فيها المزايا التى تعود على العمال من التقدم السريع فى الالات ، حذرهم من التمرد والإضراب لأن هذين يعجلان بتحسين الالات وتقدمها . « إن الاضرابات العنيفة التى من هذا النوع تظهر الإنسان القصير النظر فى صورة حقيرة لشخص يعذب نفسه» ، ولكنه — قبل هذا بصفحات — يقول العكس «لولا المصادمات والإضرابات العنيفة الناجمة من وجهات نظر خاطئة بين عمال المصانع ، لزاد نمو نظام المصانع بطريقة أسرع وأكثر نفعاً لكل من يعنيهم الأمر» . والآن تأتى هذه العبارة الداعية إلى العجب « ولحسن حظ المجتمع فى مناطق صناعة القطن ببريطانيا العظمى فان التحسينات فى الالات تحدث تدريجاً » . ويقال خطأ عن التحسين فى الالات « إنه يخفض معدل أرباح البالغين وذلك بأن

(٤) ويراد بهذا شروط عقودهم مع العمال وهى الشروط التى رأى فيها أصحاب رؤوس الأموال عبئاً كبيراً .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

تحل محل جانب منهم وبذا يزيدون عن الحاجة إذا ما قيس ذلك بالطلب على عملهم. من المؤكد أنه يزيد الطلب على عمل الأطفال ويرفع معدل أجورهم ، ومن جهة أخرى يدافع الكاتب عن انخفاض أجور الأطفال بحجة أن هذا الأمر يمنع والديهم من إرسالهم إلى المدرسة فى سن مبكرة جداً . إن هذا الكتاب كله تبرير ليوم عمل ذى طول غير محدود ، وروحه الحرة تذكرنا بأحلك أيام العصور الوسطى حين كان التشريع يحرم استخدام الأطفال ممن فى سن الثالثة عشرة أكثر من إثنى عشرة ساعة فى اليوم . وبرغم هذا فانه يدعو عمال المصنع إلى أن يشكروا العناية الإلهية التى أتاحت لهم بفضل الالات الوقت الفراغ للتفكير فى « مصالحهم الخالدة » (يور ص ٣٦٨ و ٣٧٠ و ٣٨٠ و ٣٢١ و ٣٨١ و ٤٧٥) .

٦ — نظرية التعويض فيما يختص بالعمال الذين تحل محلهم الالات

ذهب كثير من الاقتصاديين البورجوازيين أمثال جيمس مل وماك كولوخ وتورنس وسينيور وجون ستيوارت مل الخ إلى أنه حين تطرد الالات عمالاً يترتب على هذا أن يتحرر فى نفس الوقت مقدار من رأس المال يكفى لاستخدام عدد مساوٍ من العمال[1] .

لنفرض أن رأسمالياً يستخدم ١٠٠ عامل أجر كل منهم ٢٠ جنيهاً سنوياً وليكن ذلك فى مصنع لعمل الأبسطة ، ومعنى هذا أن رأس المال المتغير ٣٠٠٠ جنيه فى السنة . ولنفرض أنه طرد ٥٠ عاملا واحتفظ بالباقين ليعملوا بمساعدة الالات التى كلفته ١٥٠٠ جنيه ، ولتبسيط الأمر لن ندخل فى حسابنا مسألة المبانى والفحم الخ . وسنفرض أن نفقة المادة الخام التى استهلكت ٣٠٠٠ جنيه فى السنة[2] (سواء قبل استخدام الآلات أو بعد ذلك) . ألم يتحرر رأس مال بهذه التحويل ؟ فى ظل الطريقة السابقة للصناعة كان المجموع الكلى لرأس المال وهو ٦٠٠٠ جنيه مكونا من نصفين أحدهما ثابت والآخر متغير ، وبعد التحويل يتكون من ٤٥٠٠ جنيه من رأس المال الثابت (٣٠٠٠ للمواد الأولية ، ١٥٠٠ للآلات) ، ومن ١٥٠٠ من رأس المال المتغير فهذا الأخير الذى ينفق على قوة العمل الحية يعادل الآن ربع رأس المال الكلى لا نصفه . وبناء على هذا نجد أن جانبا من رأس المال بدلا من « تحرره »

---

(١) كان ريكاردو فى الأمر يرى هذا الرأى ، ولكن ما لبث بعد وقت أن أنكره ، وذلك بفضل ما اتصف به الرجل من روح عدم التحيز وحب الحق فى العلم (الفصل ٣١ . عن الآلات) .

(٢) أرجو القارىء أن يلاحظ أن المثل الذى أضربه للتوضيح إنما هو على نسق الأمثلة التى يضربها أولئك الاقتصاديون الذين ذكروا آنفاً .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

يحبس بحيث لا يعود صالحاً لشراء قوة عمل ، وبهذا يتحول رأس المال المتغير إلى رأس مال ثابت . وإذا تساوت الأشياء الأخرى فإن رأس المال البالغ ٦٠٠٠ جنيه لن يستخدم بعد ذلك أكثر من ٥٠ عاملا ، ويتناقص عدد العمال الذين يستخدمون فى العمل كلما حدث تحسين فى الآلات . فإذا كانت الآلات التى أدخل استعمالها حديثا تكلف أقل من قوة العمل ومن الأدوات التى حلت هذه الالات محلها (وليكن ١٠٠٠ بدلا من ٥٠٠) فإذن يتحول رأس مال متغير قدره ١٠٠٠ جنيه إلى رأس مال ثابت يطلق سراح رأس مال مقداره ٥٠٠ جنيه . وبفرض ثبات معدل الأجور السنوى فإن هذا المبلغ الأخير يهيء عملا لحوالى ١٦ عامل بينما يبلغ المطرودون من العمل ٥٠ عاملا ، وحقاً لأقل من ١٦ عامل ، لأنه إذا أريد استخدام هذا المقدار كرأس مال فيجب الآن أن يتحول جزء إلى رأس مال ثابت وما يتبقى من ذلك ينفق على قوة العمل .

وحتى لو فرضنا أن صنع الالات الجديدة يهيء عملا لعدد أكبر من صانعى الالات ، فهل فى هذا تعويض عن عمال الآلات الذين طردوا من عملهم ؟ فى أحسن الظروف يستخدم صنع الالات عددا من العمال أقل مما يسبب استعمالها طرده وتعطله . إن مبلغ الخمسمائة جنيه الذى كان قبلا عبارة عن أجور العمال الذين استغنى عنهم الآن أصبح يمثل على هيئة آلات (١) قيمة وسائل الإنتاج المستخدمة فى عمل هذه الآلات (٢) أجور الميكانيكيين الذين صنعوها (٣) فائض قيمة من نصيب « مخدومهم » . وأكثر من هذا حين يتم صنع الآلات فليس من حاجة إلى تجديدها إلا إذا بليت . فاذا كان لا بد من إبقاء أكبر عدد من الميكانيكيين فى حالة عمل ، استتبع هذا أن تحل الآلات محل العمال فى مصنع للآلات بعد الآخر . والواقع إن هؤلاء المعتذرين لا يشيرون إلى هذا النوع من تحرير رأس المال . إن الذى يفكرون فيه إنما هو وسائل عيش العمال المطرودين . فى المثال السابق لا يمكن إنكار أن الالات لا تقف عند حد تحرير خمسين عاملا وبذا تجعلهم تحت تصرف العير ، لأنها كذلك تقطع صلتهم بوسائل عيش قيمتها ١٥٠٠ جنيه ، وبذلك « تطلق سراح » هذا المقدار من وسائل العيش ، ومعنى هذا أن الالات تحول وسائل عيش العامل إلى رأس مال لاستخدام العامل . فأنت ترى من ذلك أن طريقة التعبير هى كل شيء ، وفى استطاعتنا أن نخفى الأشياء الرديئة تحت ستار أسماء طيبة نطلقها عليها .

وطبقاً لهذه النظرية فوسائل العيش البالغ قيمتها ١٥٠٠ جنيه كانت رأس مال يتمدد بفضل عمل الخمسين عاملا الذين طردوا ، ويظل رأس المال هذا غير مستخدم ولا يستريح إلا إذا كشف وجهاً جديداً للاستثمار يستطيع فيه الخمسون عاملا المشار إليهم أن يستهلكوه بطريقة

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

إنتاجية ، وعلى ذلك لا بد من أن يتقابل رأس المال والعامل ثانية عاجلا أو آجلا وبذلك يحدث التعويض . ونتيجة لهذا وطبقاً لهذه النظرية فهذه الآلام التى يعانيها العمال الذين تحل محلهم الالات آلام زائلة مثلها كمثل طيبات هذا العالم .

ولكن بصدد العمال المطرودين فإن الـ ١٥٠٠ جنيه فى وسائل العيش لم تكن أبداً رأس مال حقيقة . فالذى كان يواجههم كرأس مال كان مبلغ الـ ١٥٠٠ جنيه الذى تحول الآن إلى آلات . وإذا دققنا النظر فى الأمر رأينا أن الـ ١٥٠٠ جنيه لا تمثل أكثر من جزء من الأبسطة التى أنتجها سنوياً أولئك العمال المطرودون يدفع لهم كأجور من قبل صاحب العمل على هيئة نقود بدلا من دفعه لهم عيناً . فبالأبسطة وقد تحولت إلى ١٥٠٠ جنيه كانوا يشترون وسائل عيش بهذا المقدار . وعلى ذلك لم توجد وسائل العيش بالنسبة لهم على هيئة رأس مال ولكنها كانت على هيئة سلع ، وكانت علاقتهم بهذه السلع علاقة مشترين لا عمال أجراء . فحقيقة كون الالات « حررتهم » من وسائل الشراء معناها أنها حولتهم من مشترين إلى غير مشترين ومن هنا يتناقص الطلب على هذه السلع . هذا كل ما فى الأمر . وإذا كان هذا الطلب المتناقص لا يعوضه ازدياد الطلب فى نواح أخرى فلا بد من هبوط سعر سوق السلع . وإذا حدث هذا الهبوط لمدة طويلة وعلى نطاق واسع لترتب عليه طرد العمال المشتغلين فى إنتاج هذه السلع . وجانب من رأس المال الذى كان مخصصاً من قبل لإنتاج وسائل العيش الضرورية عليه أن يبحث الآن عن شكل آخر للانتاج من جديد . وحينئذ نجد أنه أثناء هبوط أثمان السوق وإخراج العمال المشتغلين بانتاج وسائل العيش الضرورية « يتحررون » كذلك من جانب من أجورهم . وعلى ذلك فبدلا من أن يثبت أولئك المعتذرون أنه حين تحرر الالات العامل من وسائل العيش تعمل فى الوقت نفسه على تحويل هذه الوسائل إلى رأس مال لاستخدام العامل بعد ذلك ، تراهم بفضل تمسكهم بقانون العرض والطلب يثبتون العكس وهو أن الالات تلقى بالعمال إلى عرض الطريق لا فى ذلك الفرع من الصناعة الذى تستخدم فيه الالات بل وفى الفروع التى لم يتم استخدام الالات فيها .

إن الحقائق الصحيحة التى يعبر عنها المتفائلون الاقتصاديون بالأسلوب المتقدم هى كالاتى: حين تخرج الالات من الورشة تلقى بهم فى سوق العمل حيث يعملون على زيادة عدد من هم فعلا تحت تصرف الرأسماليين لاستغلالهم . وحين ندرس تجمع رأس المال (الباب السابع) سنرى أن هذا التأثير الناجم عن الالات والذى يقال إنه نوع من التعويض للطبقة العاملة ، ليس فى الحقيقة سوى سوط عذاب بشع . ويكفى هنا أن نقول إن من يطردون من أحد فروع الصناعة يمكنهم السعى للحصول على عمل فى فرع آخر . فاذا وفقوا وتجددت بالتالى

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

العلاقة بينهم و بين وسائل العيش التى تحررت حين إخراجهم ، فهذا التجديد راجع إلى تدخل رأس مال فائض جديد يطلب الاستثمار لا رأس المال القديم المستثمر من قبل فى تشغيلهم لأن الأخير قد تحول الآن إلى آلات . ولو وجدوا عملا ، فما أضأل آمالهم ! هؤلاء التعساء الذين شوهم تقسيم العمل لا يساوون إلا قليلا بعد إخراجهم من دائرة عملهم القديم بحيث لا يجدون العمل إلا فى أنواع منحطة وفى فروع من الصناعة شديدة الازدحام بمن فيها وأجورها دون الحد الواجب(١). وسنة بعد أخرى يجتذب كل فرع من الصناعة مجرى جديداً من العمال الذين يحتاج إليهم لملء المجال الشاغرة وتهيئة سبل التوسع . وحالما تحرر الآلات بعض العمال الذين كانوا حتى ذلك الوقت يعملون فى فرع معين من الصناعة ، يعاد توزيع الفرقة الإضافية من العمال بنفس الطريقة وتمتصها فروع أخرى . وفى خلال عملية الانتقال هذه تهلك أغلب الضحايا الأصليين .

ومما لا يحتمل الريب أن الالات فى حد ذاتها غير مسئولة عن « فصل » العمال عن وسائل العيش . إنها تعمل على رخص المنتج وزيادته فى الفرع الذى تسيطر عليه ، ولا يكون لها مؤقتا تأثير على مجموع وسائل العيش التى يتم إنتاجها فى فروع أخرى من الصناعة . وبعد استخدامها فان لدى المجتمع نفس المقدار من وسائل العيش للعمال الذين حلت محلهم الالات إن لم يكن أكثر منه وذلك بغض النظر عن المقدار الهائل من المنتج السنوى الذى يبدده غير العاملين . هذه هى النقطة المركزية للاقتصاديين ممن يلتمسون الأعذار والمبررات ! فعندهم لا وجود للمتناقضات والعداوات التى تصحب استخدام الالات بالطريقة الرأسمالية ، لأن هذه المتناقضات والعداوات لا تنشأ عن الالات ذاتها بل عن الطريقة الرأسمالية لاستخدام الأخيرة ! وعلى ذلك بما أن الالات تعمل على تقصير يوم العمل بينما يطيله الاستعمال الرأسمالى لها ، وبما أنها فى حد ذاتها فوز للانسان على قوى الطبيعة ، وهى بذاتها تعمل على زيادة ثروة الشخص المنتج بينما الأسلوب الرأسمالى فى استعمالها يؤدى إلى فقره — لهذا

---

(١) يلاحظ أحد أتباع ريكاردو فى معرض الرد على سخافات ج . ب . ساى ,, حيث يكون تقسيم العمل قد وصل درجة طيبة من النمو ، وحيث لا تتوافر مهارة العامل إلا فى ذلك الفرع المخصوص الذى حدث فيه اكتسابها فان العامل نفسه نوع من الآلة . لهذا لا فائدة البتة فى ترديد القول بطريقة الببغاء أن الأشياء تميل لأن تجد مستواها . حين تتلفت حولنا لا نرى إلا أنها عاجزة عن إيجاد مستواها لعهد طويل وإنها إذا توصلت إلى إيجاد هذا المستوى فانه يكون دائماً دون ما كان عليه عند بدء العملية ،،

An Inquiry into those Principles respecting the Nature of Demand, etc, London, 1821, p. 72.

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

يقنع الاقتصادى البورجوازى بالقول بأننا إذا تأملنا الالات فى حد ذاتها ألفينا أن هـــذه المتناقضات الواضحة شيء ظاهرى لا وجود لها فى ذاتها وبالتالى فى النظرية الاقتصادية . وهكذا يوفر على نفسه عناء إعمال الفكر وينسب الغباء إلى خصمه الذى يهاجم الالات ذاتها لا الاستعمال الرأسمالى لها . ولا يحاول الاقتصادى البورجوازى بطبيعة الحال أن ينكر بعض الضيق المؤقت الذى يصيب العمال الذين يطردون من أعمالهم ، ولكن ـــ كل خير له مشقته ! إنه لا يستطيع أن يتصور طريقة لاستغلال الالات سوى الطريقة الرأسمالية ، ونتيجة لهذا فاستغلال الالة للعامل كاستغلال الأخير لها تماماً . وعلى ذلك نرى هذا الاقتصادى يعتقد أن أى امرىء يحاول أن يفهمه الماهية الحقة للأسلوب الرأسمالى فى استخدام الالات ليس سوى عدواً لاستعمال الالات إطلاقا ، وخصماً للتقدم الاجتماعى[1]. مثل هذا التعليل جدير ببيل سيكس « حضرات المحلفين ، لا شك أن رقبة هذا التاجر الرحالة قد قطعت ولكن ليس هذا خطأى ، إنه خطأ ارتكبه السكين ! فهل يجب علينا بسبب هذا الضيق المؤقت أن نلغى استخدام السكين ؟ هل ترون ذلك أنفسكم ؟ أين تكون الزراعة والحرف بغير السكاكين ؟ أليس السكين كذلك مصدر شفاء فى أيدى الجراح ، ومنبع المعرفة فى أيدى عالم التشريح ؟ وأكثر من هـــذا أليس عونا لنا فى موائد الحفلات ؟ إذا ألغيتم السكين ألقيتم بنا فى هوة الهمجية[2]» .

برغم أن الالات تطرد العمال فى الفرع الذى تستخدم فيه ، فانها قد تؤدى إلى زيادة العمالة فى فروع أخرى ؛ ولكن لا علاقة لهذا الأثر بما يقال له نظرية التعويض . بما أن ما تنتجه الآلة كياردة من القماش مثلا ، أرخص من مثيله الذى يتم إنتاجه باليد ، فهنا نصل إلى هذه الحقيقة كقانون عام : إذا ظل المقدار الكلى من السلع التى تنتجها الالات متماثلا مع المقدار الكلى من السلع التى يتم إنتاجها فى ظل نظامى الحرف اليدوية والصناعات اليدوية وهو ما حلت الالات محله ، نقص المقدار الكلى من العمل الذى استخدم فى الإنتاج . والزيادة فى مقدار العمل اللازم لإنتاج أدوات العمل كالالات والفحم الخ يجب أن تكون أقل من

---

(١) إن ماكولوخ من أساطين هذا النوع من البلاهة ، أنظر إليه كيف يتحدث وهو يتظاهر ببساطة طفل فى الثامنة من عمره ,, إذا كان من المصلحة العمل على تنمية حذق العامل بحيث يستطيع بنفس المقدار من العمل أو بأقل منه إنتاج كمية من السلع تزداد على الدوام ، فلا بد أن يكون من المصلحة أيضاً لو أنه انتفع بما تهيئه له الآلات من مساعدة تمكنه من بلوغ تلك النتيجة ,, (مبادىء الاقتصاد السياسى ، لندن ١٨٣٠ ص ١٦٦) .

(٢) لقد سبب مخترع آلة الغزل خراب الهند ـ وإن لم تنزع عنا ضلوعنا بصفة خطيرة ,, ـ ا . تيير ,, عن الملكية ,, . والمسيو تيير يخلط بين آلة الغزل والنول البخارى ـ وإن لم تنزع منا ضلوعنا بصفة خطيرة !

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

النقص فى مقدار العمل الذى ينتج من استخدام الالات . ولو كان الأمر خلاف هذا لكان ما تنتجه الآلة غالياً كالشىء الذى ينتجه العمل اليدوى أو أغلى منه . ولكن الواقع أن الكمية الكلية من السلع التى ينتجها بواسطة الالات عدد أصغر من العمال لا تظل مساوية للكمية الكلية من السلع التى كان العمل اليدوى ينتجها من قبل ، وإنما نجد زيادة فى الانتاج . لنفرض أن ٤٠٠,٠٠٠ ياردة من المنسوجات التى تصنع بالالات ينتجها عدد من العمال أقل من عدد الذين ينتجون ١٠٠,٠٠٠ ياردة من المنسوجات المصنوعة بالأنوال اليدوية . هنا تتجسم فى المنتج الذى هو أربعة أمثال الثانى مادة أولية أكبر أربع مرات وعلى ذلك ينبغى أن يزيد إنتاج المادة الأولية أربعة أمثال . ولكن الأمر مختلف فيما يتعلق بأدوات العمل كالمبانى والفحم والالات الخ ، فالحد الذى يمكن أن يزداد إليه العمل الإضافى اللازم لإنتاجها يتغير تبعاً للفرق بين كمية السلعة التى هى من إنتاج الآلة وبين كمية نفس السلعة التى يستطيع نفس العدد من العمال أن يصنعوها باليد . ومن هنا فالزيادة فى استخدام الالات فى أى فرع من فروع الصناعة تتلوها أولا زيادة فى الإنتاج فى الفروع الأخرى التى تمد فرعنا بأدوات الإنتاج ، أما عن مدى الزيادة الناجمة من هذا فى عدد العمال المستخدمين فى العمل فيتوقف (مع فرض بقاء يوم العمل وحدته دون تغيير) على تكوين رأس المال المستثمر أى على النسبة بين جزئيه الثابت والمتغير ، وهى نسبة تتفاوت إلى حد كبير مع مدى استخدام الالات فى الصناعات التى نبحث أمرها . فقد زاد عدد العمال فى مناجم الفحم والمعادن زيادة هائلة نظراً للتقدم الذى حدث فى الصناعة الميكانيكية بانجلترا برغم أن الزيادة فى المعدنين كانت أقل سرعة فى العقود الحديثة نتيجة لاستخدام آلات جديدة فى المناجم(١). حين تظهر الالات يظهر معها نوع جديد من العمل ألا وهو عمل أولئك الذين ينتجونها ، وإنا لنعلم أن صناعة الالات تتسع باطراد فى هذا الفرع من الانتاج (٢). وبخصوص المادة الأولية (٣). فلا شك

---

(١) يدل إحصاء سنة ١٨٦١ (ج ٢ لندن ١٨٦٣) على أن عمال مناجم الفحم بانجلترا وويلز بلغ عددهم ٢٤٦,٦١٣ منهم ٧٣,٥٤٥ دون سن العشرين ، ١٧٣,٠٦٧ فوق هذه السن . ومن بين الأولين ٨٣٥ شخصاً تتراوح أعمارهم بين خمس وعشر سنوات ، ٣٠,٧٠١ فيما بين العاشرة والخامسة عشرة ، ٤٢,٠١٠ فيما بين الخامسة عشرة والتاسعة عشرة . وبلغ عدد العمال فى مناجم الحديد والنحاس والرصاص والزنك وغيرها من المعادن ٣١٩,٢٢٢ .

(٢) عدد المشتغلين (١٨٦١) بانجلترا وويلز فى إنتاج الالات ٦٠,٨٠٧ (بما فى ذلك أصحاب المصانع والكتبة الخ) والوكلاء ومن يتجرون فى هذه الصناعة . ولكن الأرقام لا تشمل منتجى الالات الصغيرة كالات الحياكة ولا منتجى العدد التى تستعمل فى الالات العاملة مثل المغازل الخ . وكان المجموع الكلى للمهندسين المدنيين ٣٣٢٩

(٣) بما أن الحديد من أهم المواد الخام أذكر أن عدد عمال هذه الصناعة بانجلترا وويلز بلغ ١٢٥,٧٧١ (١٨٦١) منهم ١٢٣,٤٣٠ من الذكور ، ٢٣٤١ من الاناث ، ومن الأولين ٨١٠ ، ٣٠ دون سن العشرين ، ٩٢,٦٢٠ فوق هذه السن .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

مطلقاً أن التقدم الهائل فى غزل القطن أدى إلى توسيع مزارعه بالولايات المتحدة وبذا شجع لا تجارة الرقيق الإفريقية فحسب بل وكذلك تربية العبيد التى صارت من الصناعات الرئيسية فى دول العبيد الواقعة على الحدود . لقد ارتفع عدد العبيد بالولايات المتحدة من ٦٩٧٠٠٠ (حسب أول إحصاء عمل سنة ١٧٩٠) إلى ٤ ملايين (١٨٦١) . وبالمثل سبّب قيام الإنتاج الآلى فى صناعة المنسوجات الصوفية تحويل الأراضى الزراعية إلى مراع للأغنام بالتدريج مما ترتب عليه إخراج العمال الزراعيين بالجملة من الأرض فأصبحوا « فائضين عن الحاجة » ، وفى الوقت الذى نكتب فيه هذا تخضع إرلنده لهذه العملية إذ فى السنوات العشرين الأخيرة (منذ ١٨٤٠) نقص سكانها بما يقرب من النصف ولا يزال التناقص آخذاً مجراه لكى يهبط عدد السكان إلى الحد الذى يكون أكثر ملاءمة لمصالح ملاك الأراضى الإرلنديين وأصحاب مصانع المنسوجات الصوفية من الإنجليز .

حينما تستخدم الالات فى أى من المراحل الأولى أو الوسطى فى عملية العمل قبل أن يتم صنع الشىء ، تتزايد غلة المادة فى تلك المراحل وبذلك يزداد الطلب على العمل فى الحرف أو الصناعات اليدوية التى يزودها الإنتاج بالالات بما تحتاج إليه . فالغزل بالالات جعله رخيصاً متوافراً إلى حد أن النساجين بواسطة الأنوال اليدوية استطاعوا فى أول الأمر أن يشتغلوا طول الوقت بدون زيادة نفقاتهم مماسبب ارتفاع مكاسبهم[1] . لهذا تدفق العمال على صناعة نسج القطن وانتهى الأمر بأن النساجين البالغ عددهم ٨٠٠٠٠٠ والذين يرجع وجودهم إلى آلات الغزل (jenny, throstle, mule) ، طردوا من عملهم بواسطة النول البخارى . كذلك بفضل وفرة القماش المصنوع بالآلة استمر عدد الترزية والخياطات فى الزيادة إلى أن اخترعت آلة الحياكة .

وبقدر ما تزداد المواد الخام والمنتجات المتوسطة وأدوات العمل الخ فى كميتها حين يتم إنتاجها بواسطة الصناعة الميكانيكية بمساعدة مقدار أقل نسبياً عن ذى قبل ، فان صياغة (صنع) هذه المواد الخام والمنتجات المتوسطة تنقسم فروعاً لاعد لها ومعنى هذا أن فروع الإنتاج الاجتماعية تصبح أكثر عدداً وتنوعاً . فالصناعة الميكانيكية تسير بالتقسيم الاجتماعى للعمل

---

(١) « فى نهاية القرن الماضى وبداية الحالى بلغت أرباح أسرة من أربعة أشخاص بالغين وطفلين ٤ جنيهات فى الاسبوع على أساس العمل ١٠ ساعات فى اليوم . وإذا كان هناك ضغط على العمل استطاعت الاسرة أن تكسب أكثر من ذلك ... لقد كانوا من قبل ذلك يقاسون عدم كفاية المعروض من الغزل » (جاسكيل ص ٢٥ — ٢٧)

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

الى حد أبعد كثيراً جداً مما تفعل الصناعة اليدوية ، لأنها تزيد إلى حد أبعد إنتاجية الصناعات التى تغزوها أكثر مما فعلت الصناعة اليدوية .

والنتيجة المباشرة للآلات أنها تزيد فائض القيمة وتزيد فى الوقت نفسه بمجموع المنتجات التى يتجسم فيها فائض القيمة . وإلى جانب عملها على زيادة المادة التى تعيش عليها الطبقة الرأسمالية وأذنابها فانها تعمل كثيراً على تكبير هذه الطبقات الاجتماعية . فثروتها المتزايدة وكون عدد أصغر نسبياً من العمال يتطلبهم الآن إنتاج ضروريات الحياة ، يؤديان من جهة إلى نشوء حاجات جديدة مترفة ، ومن جهة أخرى إلى ظهور وسائل إشباع هذه الحاجات ـ يتحول قدر أكبر من المنتج الاجتماعى إلى منتج فائض ، وجانب متزايد من هذا المنتج الفائض يعاد إنتاجه ويستهلك بطرق أكثر سفسطة وتنوعاً . وبعبارة أخرى نجد زيادة فى انتاج أدوات الترف [1] ، وهذه السفسطة وهذا التنويع فى المنتجات ينشئان كذلك من العلاقات الجديدة فى السوق العالمية وهى العلاقات التى تخلقها الصناعة الكبيرة . لايقف الأمر عند حد تبادل مقادير أكبر من أدوات الترف الأجنبية بالمنتجات المحلية ، بل يضاف إلى ذلك أن مقادير أكثر من المواد الأولية والمنتجات المتوسطة تستخدم كأدوات إنتاج في الصناعات المحلية . ونظراً لهذه الأحوال الجديدة فى السوق العالمية يتزايد الطلب على العمل فى صناعة النقل التى تنقسم أقساماً فرعية عدة [2].

وازدياد الطلب على أدوات الإنتاج ووسائل العيش الى جانب هبوط نسبى فى عدد العمال ، يؤدى إلى امتداد العمل فى نواح من الصناعة لا تؤتى منتجاتها كالترع والأحواض والأنفاق والجسور الخ ، ثمارها إلا فى المستقبل البعيد . وعلى أساس الآلات أو كنتيجة للثورة الصناعية العامة التى أحدثتها الآلات ، تنشأ فروع جديدة تماماً من الإنتاج وبالتالى ميادين عمل جديدة . ولكن نصيب هذه فى الإنتاج الكلى أبعد من أن يكون هاماً حتى فى أعظم البلدان نمواً وتقدماً . وعدد العمال الذين يشتغلون فيها يتناسب تناسباً مباشراً مع ما تولده من الطلب على أبسط أنواع العمل اليدوى . ومن الصناعات الرئيسية التى من هذا النوع اليوم مصانع الغـــاز والتلغراف والتصوير الفوتوغرافى والملاحة البخارية والسكك الحديدية . ويدل إحصاء سنة ١٨٦١ على أنه كان بانجلترا وويلز ١٥،٢١١ شخص فى صناعة

---

(١) أظهر لنا انجلز فى كتابه (حالة الطبقة العاملة ....) سوء حال الكثيرين من العمال المشتغلين فى إنتاج الكماليات وأدوات الترف ، وتستطيع الحصول على تفاصيل اوفى عن هذا الموضوع من تقارير لجنة تشغيل الاطفال .

(٢) بلغ عدد الذين يعملون (١٨٦١) فى البحرية التجارية بانجلترا وويلز ٩٤،٦٦٥ شخصاً .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

الغاز ، ٢٣١٩ فى التلغرافات ، ٢٣٦٦ فى التصوير الفوتوغرافى ، ٣٥٧٠ فى السفن البخارية ، ٧٠،٥٩٩ فى السكك الحديدية منهم ٢٨،٠٠٠ من غير الحاذقين وهيئة الإدارة والكتبة . وعلى ذلك يبلغ مجموع جميع الأفراد المشتغلين فى هذه الصناعات الخمس ٩٤،١٤٥ .

وأخيراً ، نظراً لزيادة الإنتاجية زيادة تدعو إلى الدهشة فى ميدان الصناعة الكبيرة (مصحوبة بزيادة استغلال قوة العمل فى كافة مجالى الإنتاج الأخرى) فنى الإمكان استخدام نسبة متزايدة من الطبقة العاملة فى أغراض غير إنتاجية و بهذا تعود إلى الظهور طبقة الأرقاء المنزلية القديمة تحت اسم جديد وهو « الخدم » من كلا الجنسين . وحسب إحصاء ١٨٦١ كان عدد سكان انجلترا وويلز ٢٠،٠٦٦،٢٤٤ منهم ٩،٧٧٦،٢٥٩ من الذكور ، ١٠،٢٨٩،٩٦٥ من الإناث . وإذا طرحنا من هذا الرقم عدد أولئك الذين يحول كبر أو صغر سنهم دون قيامهم بالعمل ، والنساء والأحداث والأطفال «غير المنتجين» ، والأشخاص الذين يشتغلون بالمسائل الفكرية كموظفى الحكومة ورجال الدين والمحامين والجنود الخ ، والذين ينحصر عملهم فى استهلاك عمل الغير على هيئة ريع أرض أوفائدة الخ ، وأخيراً الفقراء الذين يتناولون الإعانات ثم المتشردين والمجرمين الخ ، لتبقى لدينا ٨ ملايين شخص من الجنسين ومن كافة الأعمار بما فيهم الرأسماليون الذين يشتغلون فعلا فى التجارة والمالية وما إليهما . ومن هذه الملايين الثمان نجد الآتى :—

	أشخاص
عمال زراعيون (بما فيهم الرعاة وخدم المزارع والخادمات اللائى يعشن فى بيوت المزارعين)	١٠٠٩٨٠٢٦١
المشتغلون فى مصانع القطن والصوف والكتان والقنب والحرير والجوت ، وفى عمل الجوارب والدنتلا بالآلات) .	٦٤٢،٦٠٧ (منهم ١٧٧،٥٩٦ من الذكور فوق سن الثالثة عشرة)
المشتغلون فى مناجم الفحم والمعادن .	٥٦٥،٨٣٥
فى معامل الصناعات المعدنية (أفران الصهر الخ) وفى الصناعات المعدنية .	٣٩٦،٩٩٨ (منهم ٣٠،٥٠١ من الإناث)
طبقة الخدم .	١،٢٠٨،٦٤٨ (١)

(١) ومجموع لأشخاص الذين يشتغلون فى مصانع المنسوجات والمناجم عددهم ٨،٤٤٢ ١،٢، والذين يعملون فى =

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

(٧) نظام المصانع يجتذب العمال ويبادرهم —

الأزمة التي حدثت في تجارة القطن

يعترف جميع الاقتصاديين ممن لهم وزن بما لا ستخدام الآلات من آثار مدمرة بالنسبة لعمال الحرف والصناعات اليدوية القديمة التي تأخذ الآلات في منافستها ، وتراهم — باستثناء نفر قليل منهم — ينعون ما يرضخ له عمال المصانع من عبودية . ولكن ما الذي يخبئونه في النهاية ، إنهم ليصرحون أنه بعد انقضاء حكم الإرهاب الذي تتميز به الآلات حين يبدأ استخدامها ويتسع نطاقه ، تنتهي الآلات بزيادة أرقاء العمل ! بلى ، يلذ للاقتصاد السياسي أن يعلن هذه النظرية الكريهة وهي أنه بعد انقضاء فترة من النمو وفوات « مرحلة انتقال » أقصر أم أطول ، يصبح في استطاعة المصنع القائم على أساس إنتاج الآلة والذي بلغ أتم مراحل النضج — أن يستغل من العمال عدداً أكبر من العدد الذي ألقى به في الأصل إلى عرض الطريق[1] . (وهي نظرية كريهة في نظر « ذوي الميول الإنسانية » حتى لو اعتقدوا أن الأسلوب الرأسمالي في الإنتاج مقدر له الدوام) .

= مصانع النسج والصناعات المعدنية ١٠٠٣٩٦٠٥ والعدد في كلتا الحالتين أقل من عدد المشتغلين بالخدمة المنزلية .... يالها من نتيجة رائعة ولدها الاستغلال الرأسمالي للآلات الميكانيكية !

(١) ومع هذا يرى Ganilh أن النتيجة النهائية للصناعة الميكانيكية أنها تسبب نقصاً مطلقاً في عدد أرقاء العمل ممن يستطيع على حسابهم أن يعيش عدد متزايد من يدعوهم « القدماء الأمناء » وأن يحموا « قابليتهم لبلوغ الكمال » . ويقدر ضآلة فهمه لحركة الانتاج إلا أنه على أي حال يشعر أن الآلات لا بد أن تكون نظاماً ذا نتائج ضارة إذا كان استعمالها يحول العاملين إلى فقراء مستجدين ، ولكن تطورها لا يلبث أن يعيد إلى الحياة عدداً من أرقاء العمل أكثر من ذلك الذي قضت عليه وقتلته . ولا نستطيع أن ندرك تماماً بلاهة هذا الرأي إلا بأن نتمعن أقواله ذاتها « تنقص الطبقات التي حكم عليها بأن تنتج وتستهلك ، وتتضاعف الطبقات التي توجه العمل والذي تعمل على الترفيه والتخفيف عن المكلفين كلهم .... كما تستحوذ على كافة المزايا الناتجة من خفض نفقة العمل ، ومن وفرة المنتجات ، ومن رخص سلع الاستهلاك . ففي هذا الاتجاه يرتفع الجنس البشري إلى أسمى تصورات العبقرية ، وينفذ إلى أعماق الدين الخفية ، ويقيم قواعد الأخلاق السليمة » ، (وهي القواعد التي يقتضاها تستحوذ الطبقات العاطلة على كافة المزايا الخ) « وقوانين الحرية » (والمفروض أنها الحرية التي يقتضاها يحكم على طبقات معينة « بأن تنتج وتستهلك ») « والقوة والطاعة والعدالة والواجب والانسانية » .

Des Systèmes d'économie politique, etc., second edition, Paris, 1821, vol. 11, p. 224. See also p. 212.

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

حقيقة نلاحظ فى حالات معينة كما فى مصانع الصوف والحرير الانجليزية أنه فى مرحلة مخصوصة من النمو والتطور يكون الامتداد العظيم فى المصانع مصحوباً بنقص مطلق ـ لانسبى فحسب ـ فى عدد العمال فيها . فى سنة ١٨٦٠ أمر البرلمان بإجراء تعداد خاص لجميع المصانع بالمملكة المتحدة فذكر المفتش بيكر أن منطقة إشرافه (وتشمل لانكشير ، شيشير ، يوركشير) بها ٦٥٣ مصنعاً فى ٥٧٠ منها : أنوال بخارية ٨٥٫٦٢٢ ، مغازل (بما فيها مغازل الازدواج) ١٤٦٫٨١٩٫١٤ ، قوة بخارية ٢٧٫٤٣٩ (حصاناً بخارياً) ، قوة مائية ١٣٩٠ حصاناً بخارياً ، مستخدمون ٩٤٫١١٩ . وفى سنة ١٨٦٥ صارت الأرقام هكذا على التوالى : ٩٥٫١٦٣ ، ٧٫٠٢٥٫٠٣١ ، ٢٨٫٩٢٥ ، ١٤٤٥ ، ٨٨٫٩١٣ ، ومن هذا نرى أنه خلال تلك الفترة بلغ النقص فى عدد الأنوال البخارية ١١ ٪ ، والمغازل ٣ ٪ ، والقوة البخارية ٥ ٪ ، فى عدد المستخدمين ٥٫٥ ٪ [١] وفيما بين ١٨٥٢ ، ١٨٦٢ حدث توسع كبير فى الصناعة الصوفية الميكانيكية بينما ظل عدد عمالها ثابتاً ، وهذا يرينا إلى أى حد حـــل استخدام آلات جديدة محل عمل مرحلة سابقة [٢] . وفى حالات معينة تكون الزيادة فى عدد عمال المصانع ظاهرية فقط ، وسببها ضم الفروع المساعدة فى الصناعة تدريجاً ، وليس توسيع نطاق المصانع القائمة . ومثال ذلك أن « الزيادة فى الأنوال البخارية وعدد من تستخدمهم من العمال فى صناعة القطن (البريطانية) فيما بين ١٨٣٨ ، ١٨٥٦ كان السبب فيها امتداد هذا الفرع من الصناعة . أما فى الصناعات الأخرى فالسبب استخدام القوة البخارية فى أنوال نسج السجاجيد والدنتلا والتيل وهى الأنوال التى كانت تدار قبلا بواسطة الإنسان » (تقارير ... ٣١ أكتوبر ١٨٥٦ ص١٦) . ومن هنا كانت الزيادة فى عدد عمال المصانع فى تلك الحالات مجرد تعبير عن نقص

---

(١) تقارير .... ٣١ أكتوبر ١٨٦٥ ص ٥٨ وما بعدها ـ ولكن فى الوقت نفسه كانت الوسائل لاستخدام عدد متزايد من العمال موجودة على هيئة مصانع جديدة تدرها ١١٠ وبها ١١٠٫٦٢٥ من الأنوال البخارية ، ٦٢٨٫٧٥٦ من المغازل ، ٢٦٩٥٠ من الأحصنة البخارية (من القوة البخارية والقوة المائية) ,, شرحه ,, .

(٢) تقارير .... ٣١ أكتوبر ١٨٦٢ ص ٧٩ . ـ فى ختام ديسمبر سنة ١٨٧١ قال مفتش المصانع ا . ردج اف فى محاضرة ألقاها فى New Mechanics Institution والذى ,, استرعى اهتمامى منذ زمن ما طرأ من التغيير على مظهر مصانع الصوف . فقد كانت من قبل ملأى بالنساء والأطفال ، أما الان فيبدو كأن الآلات تقوم بالعمل كله . هنا سألت أحد رجال الصناعة تفسيراً لهـــذه الظاهرة فقال : فى ظل النظام القديم كنت أستخدم ٦٣ شخصاً ، وبعد استعمال الآلات الجيدة خفضت عدد الأيدى العاملة إلى ٣٣ ثم استطعت بعد ذلك أن أهبط العدد الأخير إلى ١٣ نتيجة لتغييرات جديدة واسعة النطاق ،، .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

فى عدد العمال الكلى. وأخيراً نلاحظ أن هذه الإحصائيات تغفل هذه الحقيقة وهى أنه فى كل مكان (عدا صناعات المعادن) نجد العناصر الغالبة التى تتكون منها طبقة عمال المصانع عبارة عن الأحداث (ممن لم يبلغوا الثامنة عشرة) والنساء والأطفال . ولهذا من السهل أن ندرك أنه برغم أن أساليب الإنتاج الآلية تحل محل جماهير من العمال فعلا ، فقد يحدث بفضل بناء معامل جديدة أو توسيع الموجود منها فى صناعة معلومة أن يصبح عمال المصانع فى النهاية أكثر عدداً من عمال الصناعة اليدوية أو رجال الحرف اليدوية ممن أخرجتهم الالات فى الأصل من أعمالهم وحلت محلهم . لنفرض مثلا أنه فى ظل طريقة الإنتاج القديمة يستخدم كل أسبوع رأس مال قدره ٥٠٠ جنيه يتكون من $\frac{2}{5}$ رأس مال ثابت ، $\frac{3}{5}$ رأس مال متغير بمعنى أن ٢٠٠ جنيه تخصص لأدوات الانتاج ، ٣٠٠ جنيه تنفق على قوة العمل . (وليكن باعتبار جنيه واحد عن كل رجل) . فاذا استخدمنا الالات تعدل تكوين رأس المال الكلى . لنفرض أن $\frac{4}{5}$ رأس مال ثابت والخمس عبارة عن رأس مال متغير أى أن ١٠٠ جنيه تنفق على قوة العمل . فعلى ذلك يكون ثلثا العمال الذين كنا نستخدمهم قبلا قد طردوا . فاذا اتسع المصنع بحيث أنه — مع ثبات الأحوال الأخرى — يرتفع رأس المال من ٥٠٠ إلى ١٥٠٠ جنيه ، وهنا يصبح عدد العمال ثلاثمائة أى كما كان قبل الثورة الصناعية . وإذا زاد رأس المال بعد ذلك ٢٠٠٠ جنيه صار لدينا ٤٠٠ عامل أى بزيادة الثلث عما كان عليه الحال فى ظل طريقة الانتاج الأصلية . لقد حدثت زيادة مطلقة قدرها ١٠٠ فى عدد العمال ، ولكن حدث نقص نسبى قدره ٨٠٠ أى بالنسبة إلى رأس المال الكلى ذلك أنه فى ظل الأحوال القديمة كان رأس مال قدره ٢٠٠٠ جنيه يهىء عملا إلى ١٢٠٠٠ عامل بدلا من ٤٠٠ ، ومن هذا نرى أن النقص النسبى فى عدد العمال المستخدمين يتمشى مع الزيادة المطلقة فى عددهم . لقد فرضنا فى المثال السالف الذكر أنه بينما يزداد رأس المال الكلى لا يطرأ تغيير على تكوين عنصريه بسبب حدوث أى تغيير فى أحوال الإنتاج . ولكننا علمنا أنه مع أى تقدم فى طريقة الانتاج بالآلة يزداد رأس المال الثابت (أى الجزء المكون من الالات والمواد الخام الخ) بينما ينقص الجزء المتغير (الذى ينفق على قوة العمل) . ونعلم كذلك أنه ما من نظام إنتاج نجد فيه التحسينات مستمرة وتكوين رأس المال عرضة لأمثال هذه التغييرات السريعة كما فى نظام المصانع . ولكن هذه التغييرات تتخللها فترات توقف لا يحدث فيها تغيير خلاف الامتداد الكمى على الأساس الفنى القائم . فى مثل هذه الفترات يزداد عدد العمال المستخدمين . ففى سنة ١٨٣٥ كان المجموع الكلى لعمال مصانع القطن والصوف والكتان والحرير بالمملكة المتحدة ٣٥٤،٦٨٤ فقط بينما بلغ عدد الغزالين على الأنوال البخارية (من الجنسين ومن سن

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

الثامنة فمافوقها) ٢٣٠٫٦٨٤ (١٨٦١) . وبالتأكيد لاتبدو هذه الزيادة كبيرة حين نتذكر أنه فى سنة ١٨٣٨ بلغ عدد الغزالين على الأنوال اليدوية بانجلترا ٨٠٠٫٠٠٠ (بما فى ذلك أفراد أسراتهم ممن يشتغلون معهم)[1] ؛ ولا نقول شيئاً عن عدد الغزالين على الأنوال اليدوية فى آسيا وفى القارة الأوربية ممن أخرجهم النول البخارى من العمل .

وفى الملاحظات الإضافية القلائل التى سأوردها ، سأشير إلى أحوال مادية محسوسة ظلت حتى الآن خارج نطاق عرضنا النظرى للموضوع .

طالما اتسع نطاق الصناعة الميكانيكية فى أى فرع من الصناعة على حساب الحرف اليدوية القديمة أو نظام الصناعة اليدوية فإن تقدمها الظافر محقق كتقدم الجيش المزود بالبنادق الحديثة أمام آخر لا يملك من السلاح سوى السهام والرماح . هذه الفترة التى تقوم فيها الآلة بغزو الميادين التى تعمل فيها ذات أهمية حاسمة نظراً للأرباح العالية بشكل غير معتاد والتى يمكن جنيها فى مثل هذا العهد. هذه الأرباح لا يقتصر أمرها على أنها مصدر للاسراع بعملية التجميع الرأسمالى ، بل إنها لتجتذب إلى ذلك المجال المحبوب للانتاج جانباً كبيراً من رأس المال الاجتماعى الإضافى الذى يتكون باستمرار ويبحث دواماً عن وجوه جديدة للاستثمار . هذه المزايا الخاصة التى تتسم بها تلك الفترة الافتتاحية تتجدد باستمرار فى فروع الإنتاج التى تدخلها الآلات لأول مرة . ولكن بمجرد أن يبلغ نظام المصانع قدراً طيباً من الإتساع والانتشار والنضوج ، وبعبارة أخرى بمجرد أن تقوم الالات بانتاج أساسه الفنى (الالات) ، وبمجرد أن يتعرض استخراج الفحم والحديد وصياغة المعادن وتغير نظام النقل إلى انقلاب فيها — وبكلمة واحدة ، بمجرد أن تستقر قواعد الأحوال الإنتاجية العامة الملاءمة للصناعة الكبيرة . فان هذه الطريقة فى الانتاج تكتسب مرونة أى مقدرة على الامتداد المفاجىء السريع لا تحد منها سوى القيود التى يفرضها عرض المواد الأولية وطاقة الأسواق . ولكن لاتستطيع الالات أن تسبب زيادة مباشرة فى مورد المواد الأولية . ومثال ذلك أن اختراع الحلج أدى إلى زيادة فى إنتاج القطن الخام [2] . ومن جهة أخرى نرى أن رخص المنتجات التى تصنعها الالات ، والانقلاب فى طرق النقل

---

(١) شكات لجنة ملكية للتحقيق فى مسألة الآلام التى يعانيها النساجون بالأنوال اليدوية ، وبرغم الاعتراف بما يقاسون من ضيق وإبداء الأسف له ، ترك أمر تحسين حالتهم للظروف وتقلبات الزمن بما نأمل الان (بعد عشرين عاماً !) ،،أن يكون قد محا آلامهم ويؤسهم تقريباً ، ومن المحتمل أن يكون ذلك بفضل اتساع نطاق استخدام النول البخارى فى الوقت الحاضر ،، — تقارير ٣١ أكتوبر ١٨٥٦ ص ١٥ .

(٢) وسنصف فى الكتاب الثالث طرقاً أخرى تؤثر بها الالات فى إنتاج المواد الخام .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

المواصلات ، يصبحان أسلحة لغزو الأسواق الأجنبية . حين تدمر الالات إنتاج الحرفة اليدوية فى البلاد الأخرى فإنها تحولها إلى ميادين تمدها بالمادة الأولية ، وهكذا أرغمت جزر الهند الشرقية على إنتاج القطن والصوف والقنب والجوت والنيلة الخ لبريطانيا العظمى (١) . وكما أنه فى البلاد التى تستقرفيها الصناعة الكبيرة تصبح أعداد من العمال « فائضة عن الحاجة » فكذلك ينمى تقدم الصناعة الميكانيكية الهجرة واستعمار البلاد الأجنبية التى تصير مواطن لإنتاج ما تحتاج إليه الدولة الأصلية من مواد أولية وبهذه الطريقة توافرت استراليا مثلا على إنتاج الصوف (٢). وهنا ينشأ تقسيم دولى جديد للعمل بحيث تصبح بلاد المواطنَ الرئيسية للصناعة الميكانيكية وتتحول أخرى إلى الانتاج الزراعى . هذا الإنقلاب ترتبط به تغييرات انقلابية فى الزراعة لا حاجة بنا إلى بحثها فى هذا الموضع (٣).

وبناء على اقتراح من المستر غلادستون أمر مجلس العموم فى ١٧ فبراير سنة ١٨٦٧

---

(١) صادرات القطن والصوف من الهند إلى بريطانيا العظمى مقدرة بالأرطال

	١٨٤٦	١٨٦٠	١٨٦٥
القطن	٣٤٬٥٤٠٬١٤٣	٢٠٤٬١٤١٬١٦٨	٤٤٥٬٩٤٧ ٦٠٠
الصوف	٤٬٥٧٠٬٥٨١	٢٠٠٬٢١٤٬١٧٣	٢٠٬٦٧٩٬١١١

(٢) صادرات الصوف إلى بريطانيا العظمى من : — (مقدرة بالارطال)

	١٨٤٦	١٨٦٠	١٨٦٥
مستعمرة الرأس	٢٬٩٥٨٬٤٥٦	١٦٬٥٧٤٬٣٤٥	٢٩٬٩٢٠٬٦٢٣
أستراليا	٢١٬٧٨٩٬٣٤٦	٥٩٬١٦٦٬٦١٦	١٠٩٬٧٣٤٬٢٦١

(٣) إن تقدم الولايات المتحدة ذاتها الاقتصادى من ثمار الصناعة الكبيرة فى أوربا وبخاصة انجلترا . واليوم (١٨٦٦) يجب اعتبار الولايات المتحدة من الناحية الاقتصادية مستعمرة أوربية .

صادرات القطن من الولايات المتحدة إلى بريطانيا العظمى (بالارطال)

١٨٤٦	١٨٥٢	١٨٥٩	١٨٦٢
٤٠١٬٩٤٩٬٣٩٣	٧٦٥٬٦٣٠٬٥٤٣	٩٦١٬٧٠٧٬٢٦٤	١٬١٩٥٬٨٩ ٬٦٠٨

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

بإجراء إحصاء عن المقادير الكلية من الحبوب والقمح والدقيق من جميع الأنواع التى استوردتها وصدرتها المملكة المتحدة فيما بين ١٨٣١ — ١٨٦٦ ، وتجد فى (صحيفة ٣٩٤) خلاصة نتائج الإحصاء . وقد أوردنا الدقيق بمعيار أرباع القمح .

إن الطاقة الكبيرة على الامتداد التى يتميز بها نظام المصانع ، والطريقة التى بها يزيد من الإنتاج بخطوات سريعة ، واعتماده على السوق العالمية — نقول إن فى هذا كله دافعاً على تنمية الانتاج فتمتلىء الأسواق ، ويتلو ذلك أن يصبح الطلب غير متلاءم نسبياً مع الانتاج وبذا تتعرض الصناعة للشلل . وتصبح حياة الصناعة وقد تميزت بفترات متتالية من النشاط المعتدل ، الرخاء ، الافراط فى الانتاج ، الأزمة ، والركود . وبفضل هذا التوالى الفترى فى حلقات الدورة الصناعية فان ما تفرضه الصناعة الميكانيكية على عمل العامل من عناصر عدم التأكد والاستقرار تصبح الآن مظاهر عادية مألوفة . وإذا استثنينا فترات الرخاء ألفينا الرأسماليين فى تنافس عنيف دائم فيما بينهم فى سبيل الحصول على مكان بالسوق ، ويتناسب حجم نصيب كل منهم تناسباً مباشراً مع رخص منتجه . هذه الحاجة إلى الرخص تسبب تنافسا بين الرأسماليين فى

صادرات الحبوب الخ من الولايات المتحدة إلى بريطانيا العظمى

بالهندرويت	١٨٥٠	١٠٦٢
القمح	١٦،٢٠٢،٣١٢	٤١،٠٣٣،٣٥٠
الشعير	٣،٦٦٩،٦٥٣	٦،٦٢٤،٨٠٠
القرطم	٣،١٧٤،٨٠١	٤،٤٢٦،٩٩٤
الشوفان	٣٨٨،٧٤٩	٧،١٠٨
الدقيق	٣،٨١٩،٤٤٠	٧،٢٠٧،٣١١
Buckwheat	١،٠٥٤	١٩،٥٧١
الذرة	٥،٤٧٣،٠٦١	١١،٦٩٤،٨١٨
Bere أو Bigg (نوع من الشعير)	٢،٠٣٩	٧،٦٧٥
الحمص	٨١١،٦٢٠	١،٠٢٤،٨٢٢
الفول	١،٨٣٢،١٧٢	٢٤،٠٣٧،١٣٧
المجموع الكلى	٣٤،٠٣٦٥،٨٠١	١٠٤،٠٧٣،٢٥١

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

استخدام آلات أكثر تحسيناً قادرة على أن تحل محل قوة العمل ، وفى تطبيق وسائل جديدة للانتاج . وعلاوة على ذلك تأتى اللحظة التى يحاولون فيها خفض ثمن السلع عن طريق انقاص الأجور دون قيمة قوة العمل . (١)

فترات كل منها خمس سنوات ، وسنة ١٨٦٦

المتوسط السنوى	١٨٣١ — ٣٥	١٨٣٦ ٤٠	١٨٤١ — ٤٥	١٨٤٦ — ٥٠
الوارد ..... (بالربع)	١٠٠٩٦٠٣٧٣	٢٠٣٨٩٠٧٢٠	٢٠٨٤٣٠٨٦٥	٧٧٦٠٥٥٢
الصادر ..... (بالربع)	٢٢٥٠٢٦٣	٢٥١٠٧٧٠	١٣٩٠٠٥٦	١٥٥٠٤٦١
زيادة الوارد على الصادر	٨٧١٠١١٠	٢٠١٣٧٠٩٥٩	٢٠٧٠٤٠٨٠٩	٨٠٦٢١٠٠٩٦
السكان				
المتوسط السنوى فى كل فترة	٢٤٢٦١٠١٠٧	٢٥٠٩٢٩٠٥٠٧	٢٧٠٢٦٢٠٥٦٩	٢٧٠٧٩٧٠٥٩٨
متوسط الكمية من القمح الخ (بالربع) والذى يستهلكه الفرد زيادة عما يستهلك من الانتاج المحلى	٠٠ ٣٦	٠٠٠٨٢	٠٠٠٩٩	٠٠٣١٠
المتوسط السنوى	١٨٥١ — ٥٥	١٨٥٦ — ٦٠	١٨٦١ — ٦٥	١٨٦٦
الوارد ..... (بالربع)	٨٠٣٤٥٠٢٣٧	٢٠٦ ٢٠٩ ١	١٥٠٠٠٩٠٨٧١	١٦٠٤٥٧٠٣٤٠
الصادر ..... (بالربع)	٣٠٧٠٤٩١	٣٤٠٠ ٥٠	٣٠٢٠٧٥٤	٢١٦٠٢١٨
زيادة الوارد على الصادر	٨٠٠٣٧٠٧٤٦	١٠٠٥٧٢٠٤٦٢	٢٤٠٧٠٧٠١١٧	١٦٠٢٤١٠١٢٢
السكان				
المتوسط السنوى فى كل فترة	٢٧٥٧٢٠٩٢٣	٢٨٠٣٩ ٠٥٤٤	٢٩٠٣٨٤٠٤٦٠	٢٩٠٩٣٥٠٤٠٤
متوسط الكمية من القمح الخ (بالربع) والذى يستهلكه الفرد زيادة عما يستهلك من الانتاج المحلى	٠٠٢٩١	٠٠٣٧٢	٠٠٥٤٣	٠٠٥٤٣

(١) فى يوليه سنة ١٨٦٦ رفع الخدامون فى ليفربول التماساً إلى Trade Societies بانجلترا وفيما يلى بعض ماجاء فيه « منذ عشرين عاماً تعرضت صناعة الأحذية فى ليفربول لانقلاب سببه استعمال التسمير بدلا من التغريز ، وكان فى الامكان إذ ذاك الحصول على أجور طيبة ، وتنافست الشركات المختلفة فى أيها تنتج أخف الأنوع ، ولكن مالبثت =

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

والزيادة فى عدد عمال المصنع تسبيها زيادة أسرع ومتناسبة فى مبلغ رأس المال المستثمر فى المصانع ، ولكن هذه العملية تستمر فقط خلال فترات الرخاء والركود من الدورة الصناعية ، وفضلا عن هذا فإنها تتوقف باستمرار بسبب التقدم الفنى الذى يحل أحيانا محل العمال وأحيانا يطردهم من المصنع بصفة واقعية . هذه التغييرات من حيث الكيف والتى تصيب الانتاج بالآلة تعمل باستمرار على طرد العمال من المصنع أو إغلاق أبوابه دون العمال الجدد . بينما مجرد امتداد كمى بحت للمصانع يؤدى إلى استخدام عمال جدد وهى عملية تسير جنبا إلى جنب مع عملية طرد الآخرين . وهكذا العمال عرضة باستمرار للطرد والجذب ، وفى الوقت نفسه هناك تغييرات غير منقطعة فى جنس هذه الفرق المجندة وعمرها ومهارتها .

وفى استطاعتنا أن نتخيل مصير عامل المصنع إذا قمنا باستعراض سريع لما حدث فى الصناعة القطنية في انجلترا . ففيما بين ١٧٧٥ ، ١٨١٥ أصيبت هذه الصناعة بالركود لمدة خمس سنوات فقط ، وخلال هذه الفترة الأولى وطولها خمس وأربعون سنة كان لأصحاب المصانع الإنجليز احتكار الآلات والسوق العالمية . ثم أصيبت الصناعة بالركود (١٨١٥ - ٢١) وأعقبه رخاء فى ١٨٢٣ ، وفى سنة ١٨٢٤ ألغيت القوانين المعروفة باسم Combination Laws فاتسع نطاق نظام المصانع بوجه عام ، وفى سنة ١٨٢٥ حدثت أزمة وتميزت سنة ١٨٢٦ بانتشار الفاقة والاضطرابات بين عمال الصناعة القطنية ، ثم حدث تحسين معتدل سنة ١٨٢٧ وشهدت سنة ١٨٢٨ زيادة عظيمة فى استعمال الأنوال البخارية والتصدير ، وزادت الصادرات

= المنافسة أن اتخذت شكلا أسوأ ألا وهو محاولة كل شركة أن تبيع بثمن دون ماتبيع به غيرها ، وسرعان مابدت النتائج الضارة لهذا العمل فى خفض الأجور وكان الخفض سريعاً كاسحاً بحيث أن شركات كثيرة تدفع الآن تلك الأجور التى كانت تدفعها من قبل . ومع هذا يبدو أن كل تغيير فى مستوى الأجور تصحبه زيادة فى الأرباح . وحتى أوقات الركود يستغلها أرباب المصانع لجنى أرباح استثنائية عن طريق خفض الأجور إلى أقصى حد وبعبارة أخرى عن طريق السرقة المباشرة لوسائل عيش العمال . ولأضرب مثلا لذلك ، والفقرة التى اعتزم اقتباسها تتعلق بالأزمة التى تعرضت لها صناعة نسج الحرير فى كوفنترى ويبدو من المعلومات التى حصلت عليها من أرباب الصناعة والعمال أنه لا شك أن الهبوط فى الأجور أعظم مما تقتضيه طبيعة المنافسة من جانب المنتجين الأجانب أو من ناحية الظروف الاخرى .... إذ تشتغل أغلبية النساجين بأجور خفضت بمقدار ٣٠ ـ ٤٠ ٪ فمنذ خمس سنوات كانت أجرة قطعة

بنس شلن بنس شلن

الدنتلا ٦ أو ٧ شلنات ، فأصبحت اليوم ٣ ٣ أو ٦ ٣ ، وثمن العمل الآخر الآن شلنان أو شلنان وثلاث بنسات مقابل ٤ شلنات وثلاث بنسات من قبل . ويبدو أن الخفض فى الأجر قد سار إلى حد أبعد مما هو مرووى للطالب الآخذ فى الازدياد . والواقع أن الخفض فى نفقة النسج فى حالة أنوع كثيرة من الشرائط ، لم يكن مصحوباً بهبوط مماثل له فى ثمن بيع السلعة المصنوعة ،، ـ لجنة تشغيل الاطفال ، التقرير الخامس ١٨٦٦ ، ص ١١٤ رقم ٥١ .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

سنة ١٨٢٩ إلى حد بالغ وبخاصة ما كان منها إلى الهند إذ فاق الصادر إليها في الأعوام السابقة . وفى ١٨٣٠ امتلأت الأسواق وعم الفقر ثم حدث ركود مستمر فيما بين ١٨٣١ ، ١٨٣٣ . وفى هذا الوقت سحب احتكار التجارة مع الشرقين الأوسط والأقصى (الهند والصين) من يد شركة الهند الشرقية . وشهد عام ١٨٣٤ امتداداً عظيما للمصانع وفي استخدام الآلات وحدثت كذلك ندرة فى العمل ، وشجعت قوانين الفقراء الجديدة هجرة العمال الزراعيين إلى الجهات الصناعية وجيء بالعدد الوفير من الأطفال من المقاطعات الزراعية إلى المدن . وهذه تجارة الرقيق الأبيض . وتميزت سنة ١٨٣٥ بأعظم الرخاء ولكن فى الوقت نفسه كان الغزالون على الأنوال اليدوية يموتون جوعا ، وساد الركود فى ١٨٣٧ ، ١٨٣٨ وحدثت أزمة أعقبها انتعاش سنة ١٨٣٩ ، ولكن فى سنة ١٨٤٠ حل الركود العظيم ووقعت الاضطرابات مما استدعى تدخل الجيش وقاسى عمال المصانع شديداً فى عام ١٨٤٠ ، ١٨٤٢ . وفى ١٨٤٢ طرد أصحاب المصانع العمال حتى يحملوا الحكومة على إلغاء قوانين الغلال ، وتدفق ألوف العمال على مدن لانكشير ويوركشير فطردهم الجيش وقدم زعماؤهم للمحاكمة فى لانكستر . وعم الفقر سنة ١٨٤٣ ثم حدث انتعاش سنة ١٨٤٤ وتلاه رخاء عظيم سنة ١٨٤٥ واستمر خلال الشهور الأولى من ١٨٤٦ ثم بدت علائم رد الفعل . ألغيت قوانين الغلال ووقعت أزمة فى عام ١٨٤٧ وخفضت الأجور بمقدار ١٠ ٪ أو أكثر ، ودام الركود في سنة ١٨٤٨ ووضعت منشستر تحت حماية السلطات العسكرية . بعد ذلك حدث انتعاش (١٨٤٩) ، ورخاء (١٨٥٠) وتميزت سنة ١٨٥١ بهبوط فى الأثمان والأجور وانتشار الاضطرابات . وفى سنة ١٨٥٢ هدد أصحاب المصانع بأن يأتوا بعمال أجانب . ثم ارتفعت الصادرات سنة ١٨٥٣ . وحدث فى برستن اضطراب وانتشرت الفاقة لمدة ثمانية أشهر ، ثم حل الرخاء سنة ١٨٥٤ وغمرت الأسواق . وفى سنة ١٨٥٥ انهالت أنباء الإفلاس من الولايات المتحدة وكندا وأسواق آسيا الشرقية . رخاء كبير سنة ١٨٥٦ ، وأزمة فى ١٨٥٧ . بدأ التحسن سنة ١٨٥٩ وزاد عدد المصانع ، وشهدت سنة ١٨٦٠ ذروة صناعة القطن الإنجليزية ، وامتلأت أسواق الهند وأستراليا وغيرها إلى حد أن الكميات المنتجة لم يتم تصريفها تماما حتى سنة ١٨٦٣ . وقعت انجلترا معاهدة تجارية مع فرنسا وحدث توسيع هائل فى المصانع واستخدام الآلات ، وفى سنة ١٨٦١ استمرت فترة التوسع زمنا ثم جاء هبوط وشبت الحرب الأهلية الأمريكية وقل مقدار القطن الخام ، وأصبح الانهيار كاملا فيما بين ١٨٦٢ ، ١٨٦٣ .

ويستحق تاريخ المجاعة القطنية أن نتوسع بشأنه قليلا . ونرى من دراسة أحوال السوق العالمية فى عامى ١٨٦٠ ، ١٨٦١ أن هذه المجاعة كانت ذات نفع بالنسبة إلى أصحاب

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

المصانع إلى حد ما ، وناقى الاعتراف بهذا فى تقارير غرفة منشستر التجارية وأعلن ذلك كل من بالمرستون ودربى فى البرلمان . وأيدت الحوادث وجهة النظر هـــذه (تقارير ... ٣١ أكتوبر ١٨٦٢ ص ٣٠) . لاشك أنه من مصانع القطن البالغ عددها ٢٨٨٧ فى سنة ١٨٦١ كان كثير منها ذا حجم صغير . وجاء فى تقرير المفتش ا . رد جراف الذى شملت منطقة إشرافه ٢١٠٩ مصنع كان ٣٩٢ منها أى ١٩ ٪ تدار بقوة بخارية تقل عن ١٠ أحصنة بخارية لكل منها ، ٣٤٥ منها أو ١٦ ٪ ذات قوة ما بين ١٠ ، ٢٠ حصاناً بخارياً ، وفى ١٧٣٢ منها قوة بخارية أكثر من ٢٠ حصاناً (شرحه ص ١٩) . ولم تزد أغلبية المصانع الصغيرة عن أماكن بسيطة للغزل بنيت خلال الرواج الذى حدث سنة ١٨٥٨ والسنوات التالية وقد أقامها فى الغالب المضاربون الذين كان أحدهم يقدم القطن ، وآخر الآلات ، وثالث المبانى ، ويديرها جماعة من ذوى الموارد المالية الصغيرة . وقد ساء حال معظم هذه المصانع الصغيرة وكان من الممكن أن يصيبها نفس المصير أثناء الأزمة التجارية التى أوقفتها الأزمة القطنية ، وبرغم أن هذه المصانع الصغيرة ثلث عدد المصانع الكلى إلا أن رأس مالها صغير بالنسبة إلى مجموع رأس المال المستثمر فى صناعة القطن . أما عن مدى التوقف فتدل الإحصائيات الصحيحة أنه فى أكتوبر سنة ١٨٦٢ تعطل من المغازل ٣ ر٦٠ ٪ ومن الأنوال ٥٨ ٪ . ويلاحظ أن هذه الأرقام خاصة بالصناعة بوجه عام ويجب تعديلها إذا تعلق الأمر بجهات خاصة . وكانت مصانع قليلة جداً تشتغل كل الوقت (٦٠ ساعة فى الأسبوع) أما الأغلبية فتشتغل جزءاً من الوقت . وحتى فى حالة العدد الصغير نسبياً من العمال الذين يشتغلون كل الوقت وبمعدلات الأجور حسب نظام القطعة ، فقد أنقصت الأجور الأسبوعية نظراً لاستخدام القطن الردىء محل الجيد . وإحلال القطن المصرى محل قطن سى أيلند فى معامل الغزل الرفيع ، وقطن سورات (بشرق الهند) محل القطن الأمريكى والمصرى ، والمزيج من نفاية القطن وسورات مكان القطن الخالص . وقصر ألياف قطن سورات وقذارته وسهولة تقطع فتلته واستخدام كافة أنواع المواد الثقيلة مكان الدقيق الناعم فى تجميع خيوط السداة . كل هذه قللت من سرعة الآلات أو من عدد الأنوال التى يستطيع النساج الواحد الإشراف عليها ، وزادت من العمل بسبب العيوب فى الآلات ، وخفضت أجر القطعة بخفض الإنتاجية . واشتغل العمال كل الوقت بقطن سورات فأضاعوا ٢٠ ٪ ، ٣٠ ٪ وأكثر من ذلك .

ويمكن أن نفهم بسهولة حالة العمال الذين كانوا يشتغلون ٣ ، ٣½ ، ٤ أيام (ولكن معظم أصحاب المصانع خفضوا أجر القطعة بنسبة ٥ ٪ ، ٧½ ٪ أو ١٠ ٪) أو ٦ ساعات فقط فى اليوم . وبعد أن حل تحسين نسبى فى سنة ١٨٦٣ لم يستطع كثير من النساجين والغزالين الخ

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

بنس شلن بنس شلن بنس شلن بنس شلن

أن يكسب الواحد منهم أكثر من ٤ ، ٣ ، ١٠ ، ٣ ، ٦ ، ٤ ، ١ ، ٥ ٥ شلنات و بنس واحد الخ فى الأسبوع (تقارير.... ٣١ أكتوبر ١٨٦١ ص ٤١ - ٤٥) وحتى حينما كانت الأحوال السائدة بين النساجين داعية إلى الرثاء استخدم أصحاب المصانع قواهم فى خفض الأجور .

وظل سيف إمكان الخفض معلقاً على رؤوس العمال كعقاب لهم على انحطاط نوع السلعة التامة الصنع وإن كان السبب فى هذا رداءة المادة الأولية واستخدام آلات غير صالحة وهكذا . وحينما كان صاحب المصنع المؤجرَ للعامل فى نفس الوقت تراه يدفع الإيجار باستقطاعه من هذه الأجور الهزيلة . ويحدثنا المفتش رد جراف عن عمال يديرون آلتين من نوع البغلة ويتقاضون أجراً قدره ٨ شلنات وأحد عشر بنساً فى نهاية الأسبوعين مع اشتغالهم كل الوقت ، ومن هذا المبلغ يخصم رَجل الصناعة إيجار مسكن العامل ولكنه يعيد اليه نصف الإيجار هبة منه وبذا يأخذ هؤلاء العمال ٦ شلنات ، ١١ بنساً . وفى أماكن كثيرة تراوحت أجور عمال هذا النوع من ٥ إلى ٩ شلنات فى الأسبوع ، وأجور النساجين من شلنين إلى ٦ شلنات فى الأسبوع ، وذلك خلال القسم الأخير من عام ١٨٦٢ (شرحه ٣١ أكتوبر ١٨٦٣ ص ٤١—٤٢) وحتى فى حالة اشتغال العمال جانباً من الوقت كان الإيجار يستقطع من أجورهم (شرحه ص ٥١) . ولهذا لا ندهش إذا انتشر نوع من حمى المجاعة فى لانكشير . وثمت أمر آخر وهو الثورة التى حدثت فى عملية الإنتاج على حساب العمال ، فأجريت التجارب على أجسامهم كتلك التجارب التى يجريها علماء الطبيعة على أجسام الضفادع . ويقول المستر رد جراف « ولو أنى ذكرت مكاسب العمال الفعلية فى المعامل المتعددة فهذا لا يستتبع أنهم يكسبون نفس المبلغ أسبوعاً بعد آخر . فهم يخضعون للتقلبات الناجمة من التجارب التى يجريها رجال الصناعة باستمرار .... وترتفع مكاسب العمال وتهبط تبعاً لنوع القطن وما يمتزج به ، فأحياناً تكون ١٥٪ من مكاسبهم السابقة وإذا بها تهبط فى أسبوع أو اثنين من ٥٠٪ إلى ٦٠٪ » (شرحه ص ٥٠ — ٥١) . لم تجر هذه التجارب على حساب وسائل عيش العامل فحسب ، بل كان عليه أن يدفع الثمن من حواسه الخمس كلها . « يشكو العمال الذين يشتغلون بقطن سورات كثيراً ، وهم يذكرون لى أنهم حين يفتحون بالات القطن تتصاعد رائحة لا تطاق تسبب المرض ..... وفى غرف المزج والتمشيط يتصاعد الغبار والقاذورات مما يسبب السعال وصعوبة التنفس ... وكذلك تُحدث قذارة قطن سورات تهيجاً مما يسبب مرضاً للجسم ... ونظراً لقصر الألياف يُستخدم مقدار كبير من الغراء الحيوانى

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

والنباتى ... والنزلة الشعبية أكثر انتشاراً بسبب الغبار . وحين يخرج النساج اللحمة من المكوك تتكسر وهذا يسبب المرض وسوء الهضم ، (شرحه ص ٦٢-٦٣) . وكان استخدام المواد الثقيلة مكان الدقيق مصدر ثراء لأصحاب المصانع المحترمين إذ مكنهم ذلك من زيادة وزن الغزل ، وبذلك تزن ١٥ رطلا من المادة الأولية ٢٦ رطلا بعد غزلها » ونقرأ ما يلى فى تقارير مفتشى المصانع (٣٠ أبريل ١٨٦٤) «إن التجارب استفادت من هذا الإجراء . لقد سمعت من مصدر طيب عن قماش وزنه ٨ أرطال مصنوع من ٥ ½ رطل من القطن ، ٢ ¾ رطل من الغراء ، وعن قماش وزنه ٥ ¼ رطل منها رطلان من الغراء . . وفى أنواع أخرى من الأقمشة أضيف أحياناً نحو ٥٠ ٪ من الغراء بحيث أن رجل الصناعة يفخر حقيقة أنه يثرى عن طريق بيع القماش بثمن يقل فى الرطل عما دفعه فى الغزل المصنوع منه القماش » (مصدر سابق ص ٢٧) . ولكن كان على العمال أن يتحملوا أشياء أخرى إلى جانب التجارب التى يجريها أصحاب المصانع داخل المعامل والتى تقوم بها البلديات خارج المعامل ، وهذه الشرور منها خفض الأجور أو التعطل التام ، والعوز والإحسان ، وخطابات الملق التى يلقيها أعضاء مجلسى اللوردات والعموم ، والإناث البائسات اللاتى تعطلن بسبب المجاعة القطنية وبذا أصبحن طريدات المجتمع ، وبرغم انتعاش التجارة ووفرة العمل يظل حال أولئك النسوة دون تغيير . وفى البلدة عدد من المومسات الشابات أكثر مما عرفت فى العشرين عاماً الأخيرة »[1] .

هكذا نجد أنه خلال الخمس وأربعين عاماً الأولى من حياة صناعة القطن البريطانية (١٧٧٠ - ١٨١٥) شاهدنا أزمة وركوداً فى خمس سنوات فقط ، ولكننا نذكر أن هذه كانت الفترة التى تمتعت فيها تلك الصناعة باحتكار السوق العالمية والفترة الثانية (١٨١٥-٦٣) وطولها ثمانية وأربعون عاماً تشمل فقط عشرين سنة من الإنتعاش التجارى والرخاء مقابل ثمانية وعشرين عاماً من الركود . وخلال السنوات الخمس عشرة الممتدة من ١٨١٥ إلى ١٨٣٠ بدأت أوروبا والولايات المتحدة فى منافسة انجلترا . ومنذ سنة ١٨٣٣ اتسع نطاق الأسواق الآسيوية بالقضاء الشامل على النساجين البدويين الهنود (وهى العملية التى قيل لها « تدمير الجنس البشرى ») . ومنذ إلغاء قوانين الغلال أى خلال الفترة (١٨٤٦ - ٦٣) نجد ثمان سنوات من الإنتعاش التجارى والرخاء مقابل تسع سنوات من الركود . ومن الحاشية التى نوردها[2] . نستطيع أن نحكم على حالة عمال صناعة القطن المذكور خلال فترة الرخاء .

---

(١) من خطاب كتبه المستر هاريس كبير رجال الهيئة التنفيذية فى بولتن (تقارير ... ٣١ أكتوبر ١٨٦٥ ، ص ٦١ — ٦٣) .

(٢) فى ربيع سنة ١٨٦٣ أصدر عمال الصناعة القطنية فى لانكشير الخ . القاسا الغرض منه تشجيع تكوين جمعية ...

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

٨ — الثورة التى أحدثها تقدم الصناعة الكبيرة وذلك فى الصناعة اليدوية والحرف اليدوية والصناعة المنزلية

١ — اختفاء التعاون القائم على أساس الحرفة اليدوية وتقسيم العمل

رأينا كيف تقضى الآلات على التعاون القائم على نظام الحرفة اليدوية ، وكيف يقضى ذلك على شكل من الصناعة اليدوية المرتكز على أساس تقسيم عمل الحرفة اليدوية . ومن أمثلة النوع الأول آلة الحصاد التى تحل محل الحاصدين اليدويين ، ومثل بارز عن النوع الثانى آلة عمل إبر الحياكة . ويحدثنا آدم سميث أن ١٠ رجال فى عهده كانوا ينتجون أكثر من ٤٨٠٠ إبرة فى اليوم وذلك بفضل تقسيم العمل ، أما اليوم فآلة واحدة تنتج ١٤٥,٠٠٠ فى يوم من ١١ ساعة ، وتستطيع امرأة أو فتاة بالاشراف على أربع من هذه الآلات أن تخرج ٦٠٠,٠٠٠

= لتنظيم الهجرة ، ونقرأ فى الالتماس « لا يفكر إلا القليلون أن الهجرة الكبيرة من جانب عمال المصانع ضرورة أساسية لرفعهم من هذه الحالة المنحطة التى تردوا فيها الآن ، وكى نوضح أن استمرار الهجرة أمر مطلوب فى كل وقت إذ بدونها يستحيل عليهم المحافظة على حالتهم فى الاوقات العادية نتشرف بلفت النظر إلى الحقائق الآتية : قدرت الاحصائيات الرسمية فى سنة ١٨١٤ قيمة صادرات البضائع القطنية بمبلغ ١٧,٠٦٦٥,٣٠٨ جنيه بينما القيمة الحقيقية بالسوق ٢٠٠,٠٧٠,٨٢٤ وفى سنة ١٨٥٨ صارت الارقام ٤٣,٠٠١,٢٢٢,١٨٢,١٢١,٦٨١ على التوالى بمعنى أن عشرة أمثال الكمية تباع بما لا يزيد عن ضعف الثمن السابق إلا قليلا . ولو كانت الظروف تسمح لاوردنا الاسباب التى أدت إلى هذه النتائج السيئة بالنسبة إلى البلاد عموماً وأرباب المصانع بوجه خاص ، ويكفى أن نقول الان إن أوضح سبب هو وفرة العمل الذى لولاه ما أمكن لصناعة ذات آثار مدمرة كهذه أن تستمر ، والتى تتطلب اتساع السوق باستمرار حتى لا تصاب بالدمار . وقد تتوقف معاملنا فى فترات ركود التجارة وهى فترات لا بد من حدوثها فى ظل الاحوال الحالية ولكن عقل الانسان لاينفك عن التفكير . وبرغم اعتقادنا بأننا دون الحقيقة حين نقدر عدد من غادروا هذه البلاد بمئات ملايين خلال السنوات الخمس والعشرين الاخيرة ، إلا أنه بسبب الزيادة الطبيعية فى السكان وإحلال الالات محل العمل بقصد ترخيص الانتاج يصبح من المستحيل على عدد كبير من الذكور البالغين فى أشد الاوقات رخاء أن يجدوا عملا فى المصانع بأى شروط مهما كانت » (تقارير ... أبريل ١٨٦٣ ص ٥١ — ٥٢) . وسنرى فى فصل تال كيف حاول أصحاب المصانع خلال نكبة الصناعة القطنية أن يحولوا دون هجرة عمال المصانع ، واستخدموا فى ذلك كافة الطرق التى قدروا عليها ، بل إنهم طلبوا من الدولة التدخل فى الامر .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

إبرة يوميا أو أكثر من ٣ ملايين فى الأسبوع . (١) وبقدر ماتحل آلة واحدة محل التعاون أو الصناعة اليدوية فإنها ذاتها تصلح أساساً للصناعة الحرفية اليدوية ، ولكن الأخيرة على هذا الوضع الجديد تصلح مجرد انتقال إلى صناعة المصنع وهى التى تنشأ عادة حالما تحل القوة الميكانيكية كالبخار والماء محل عضلات الإنسان ، بصفتها القوة المحركة للآلة . ولا يستطيع المشروع الصغير أن يمتزج بالقوة المحركة الآلية عن طريق البخار إلا بطريقة منعزلة وكظاهرة مؤقتة زائلة ، كما حدث فى بعض فروع الإنتاج ببرمنجهام ، أو بفضل استعمال العدد الكالورية فى بعض فروع صناعة الغزل(٢). الخ وفى صناعة غزل الحرير بكوفنترى قاموا بتجربة « مصانع الأكواخ » . فبنيت صفوف من الأكواخ حول ميدان قام فى وسطه بيت به الآلة التى تتصل بالأنوال فى الأكواخ . وكان أصحاب الأكواخ يدفعون شلنين وست بنسات مثلا عن كل نول مقابل استخدام البخار . وكانوا يدفعون بالأسبوع سواء كانت الأنوال فى حالة عمل أو عاطلة . واحتوى كل كوخ على عدد يتراوح بين نولين وستة أنوال وهى أحيانا ملك للعمال ، أو تشترى بطريق الائتمان أو تستأجر . دام الصراع بين المعمل الكوخى والمصنع بمعناه الصحيح أكثر من ١٢ عاما وانتهى بدمار شامل أصاب ٣٠٠ معمل من النوع الأول (تقارير مفتشى المصانع ٣١ / ١٠ / ١٨٦٥ ص ٦٤). وحيث لم تكن طبيعة العملية تتطلب من بادىء الأمر إنتاجا على نطاق واسع فإنا نجد أن الصناعات الجديدة التى قامت فى العقود الحديثة كعمل الظروف وأقلام الصلب الخ مرت بوجه عام فى مراحل قصيرة من الإنتاج الحرفى اليدوى وإنتاج الصناعة اليدوية قبل أن تصل إلى مرحلة إنتاج المصانع . وتحول مثل هذا النوع من أصعب الأمور حينما لاينحصر إنتاج السلعة التامة الصنع بواسطة الصناعة اليدوية فى سلسلة متدرجة من العمليات المتطورة وإنما ينحصر فى تعدد عمليات لا اتصال فيما بينها . وكان هذا مثلا عقبة كبيرة فى حالة صنع الأقلام الصلبية . وعلى كل فمنذ حوالى ١٥ سنة اكتشفت آلة أوتوماتيكية تقوم بست عمليات كل منها منفصلة عن الأخرى . وخاصة بعمل الأقلام وذلك فى وقت واحد . وبلغ الثمن الإجمالى لأقلام الصلب (١٨٢٠) بواسطة إنتاج الحرف اليدوية ٧ جنيه ، ٤ شلنات ثم صار ٨ شلنات بواسطة الصناعة اليدوية ، وهو اليوم مابين ٢ ، ٢½ شلن بفضل الصناعة الميكانيكية (٣) .

---

(١) لجنة تشغيل ... التقرير الرابع ١٨٦٤ ص ١٠٨ رقم ٤٤٧ .

(٢) إن تكرار نظام الحرفة اليدوية على أساس الآلة أمر شائع بالولايات المتحدة . ونتيجة لهذا حينما يقع حتماً الانتقال إلى نظام المصانع فان التركز الذى يتلوه يسير بخطوات واسعة جداً بالقياس إلى أوربا مل وانجلترا .

(٣) كان تأسيس أول مصنع على نطاق واسع لعمل الأقلام الصلبية فى برمنجهام على يد المصمر جيلوت =

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

ب — رد الفعل لنظام المصانع على الصناعة اليدوية والصناعات المنزلية

بتقدم نظام المصانع وقيام الثورة الملازمة له فى الزراعة لم تتغير الفروع الأخرى من الصناعة من حيث اتساع نطاق إنتاجها فحسب ، بل حدثت تغييرات فى صفتها وماهيتها . فالتعيين يصبح فى كل مكان أحد مبادىء الصناعة الميكانيكية ، وهذا ينحصر فى تحليل عملية الإنتاج إلى المظاهر التى تتكون منها . وفى حل المشاكل الناجمة إذن بتطبيق العلوم الطبيعية كالميكانيكا والكيمياء الخ . وعلى ذلك تدخل الآلات فى الصناعات اليدوية مبتدأة بعملية تفصيلية ثم بأخرى وهكذا . ويصحب هذا التنظيم المستقر لهذه الصناعات اليدوية وهو ماكان ملاءما لتقسيم العمل قديماً ، وتتلو ذلك عملية من التغيير المتواصل . وفضلا عن هذا يحدث تعديل أساسى فى تكوين العامل الجماعى أو بعبارة أخرى فى هيئة العمال المتحدة . وبخلاف ماكان حادثا أثناء عصر الصناعة اليدوية فتقسيم العمل هنا يقوم الآن على أساس استخدام النساء والأطفال من كافة الأعمار والعمال غير الحاذقين حيثما أمكن ، وبعبارة أخرى استخدام « العمل الرخيص » كما يقول التعبير الإنجليزى على سبيل التميز . وينطبق هذا الأمر لا على الإنتاج المتحد على نطاق كبير (سواء استخدمت الآلات أم لا) ، بل وعلى مايقال له الصناعة المنزلية سواء جرت فى بيوت العمال فعلا أو فى ورش صغيرة . هذه الصناعة المنزلية الحديثة لايربطها سوى الإسم بالنوع القديم منها الذى كان يفترض مقدما وجود حرفة يدوية مدنية مستقلة ، وطائفة مستقلة من الفلاحين ، وفوق هذا كله مسكنا للعامل وأسرته . لقد تحول النوع القديم إلى فرع خارجى من المصنع الميكانيكى . وفضلا عن الأعداد الوفيرة من عمال المصنع وعمال الصناعة اليدوية وأهل الحرف اليدوية ممن يخضعهم رأس المال لسيطرته المباشرة ، فإنه يحرك بواسطة خيوط غير منظورة جيشاً اخر مكوناً من العمال المنزليين المنتشرين فى كافة أرجاء المدن الكبرى والريف . ومن أمثلة ذلك أن فى مصنع السادة تيلى بلوندندرى ٩٠٠ عامل ، بينما هناك ٩٠٠٠ آخرون يستخدمون بصفة عمال منزليين وهم موزعون فى أرجاء الريف (لجنة تشغيل . . . التقرير الثانى ١٨٦٤ ص ٥٨ رقم ٤١٥) .

وفى الصناعة اليدوية الحديثة تجد أن استغلال قوة العمل الرخيصة غير الناضجة يتميز بأنه أشد ابتعاداً عن الحياء منه فى المصانع بمعناها الصحيح ، لأن الأولى يعوزها غالباً الأساس

= وبلغ إنتاجه السنوى (١٨٥١) أكثر من ١٨٠ مليوناً تستهلك ١٢٠ طناً من الصلب . وتحتكر برمنجهام هذه الصناعة وتنتج الان آلاف الملايين سنوياً . وحسب إحصاء سنة ١٨٦١ كان عدد الأفراد ١٤٢٨ منهم ١٢٦٨ من الاناث من سن الخامسة فما فوقها .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

الفنى لإنتاج المصنع ، وإحلال الآلات محل القوة العضلية بحيث يصير العمل سهلا من الوجهة الجثمانية . وفى نفس الوقت تجد النساء والأطفال الذين يعملون فى الصناعة اليدوية الحديثة خاضعين لتأثير كثير من المواد السامة دون مانظر إلى النتائج التى تترتب على مثل هذاالعمل . وتلقى الاستغلال فى الصناعة المنزلية أكثر شناعة منه فى الصناعة اليدوية ذلك أن تفرق العمال يضعف من قوة مقاومتهم . وأكثر من هذا تجد أن فى الصناعات المنزلية الحديثةتتوسط ربّ العمل والعامل طائفة من الطفيليين متعطشة للدماء مليئة بالجشع . وثمت أسباب أخرى يعزى اليها ذلك الاستغلال الشائن الذى يتعرض له العمال فى الصناعة المنزلية ذلك أن على الأخيرة أن تنافس نظام المصانع أو الصناعة اليدوية فى نفس الفرع من الإنتاج ، كما أن الفقر من جهة أخرى يجعل العامل سليباً من أشد الظروف اللازمة له . وسبب آخر وهو ازدياد عدم الانتظام فى استخدام هؤلاء العمال ، وأخيراً فالمنافسة تبلغ حدها الأقصى بين هؤلاء العمال الذين تجعلهم الصناعة والزراعة الكبيرتان « فائضين عن الحاجة » . والاقتصاد فى وسائل الإنتاج (الأمر الذى يصير فى أول الأمر منظما فى نظام المصانع ويوجد منذ البداية متفقاً مع أشد مظاهر الإسراف فى قوة العمل ومع حرمان العمال من الظروف اللازمة فى العادة لمواصلتهم العمل) ـ هذا الاقتصاد تبدو أشد مظاهره تناقضاً وفتكا بوضوح متزايد بنسبة عكسية إلى درجة تنمية الإنتاجية الاجتماعية للعمل ، والأساس الفنى لعملية العمل المتحدة .

(ج) الصناعة اليدوية الحديثة

سأضرب أمثلة قلائل لتوضيح ما سبق وإن كان القارىء حقيقة يعلم الكثير منها أثناء بحثنا يوم العمل . يقوم بالجانب الأكبر من العمل الثقيل اللازم للصناعة المعدنية فى برمنجهام وما يجاورها ٣٠،٠٠٠ طفل وحدث تساعدهم ١٠،٠٠٠ إمرأة . وترى النساء والأطفال يعملون فى ورش القماش ومصانع الزرابى التى لا تتوافر فيها الشروط الصحية (ويستخدم الأطفال الآن فعلا فى صناعة قطع المبارد بشفيلد). ويطلق اسم بيوت الذبح (السلخانات) على بعض بيوت لندن المشتغلة بطبع الصحف والكتب ، وذلك بسبب ما يتعرض له عمالها البالغون والأحداث من أشد صنوف العمل إرهاقاً ؛ ويقع مثل هذا الإرهاق المفرط فى صناعة تجليد الكتب ، وضحاياه فى الغالب من النساء والفتيات والأطفال (لجنة تشغيل ... التقرير الخامس ١٨٦٦ ص ٣ رقم ٢٤ ، ص ٦ رقم ٥٥و٥٦ ، ص ٧ رقم ٥٩ و ٦٠) . ويحدث تشغيل الصغار فى صنع الحبال الشاق ، وفى العمل الليلى بمناجم الملح ومصانع الشمع اليدوية وغيرها من مصانع المواد الكيماوية وكذلك الحمال فى صناعة غزل الحرير حيث

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

لا تستعمل الأنوال التي تديرها القوة البخارية ، فترى الصغار يشتغلون فوق طاقتهم إلى حد شنيع[1] . وترتيب الخرق من أبشع وأقذر أنواع العمل التي يشتغل فيها الفتيات الصغار والنساء وأقلها أجراً . ونعلم أن انجلترا إلى جانب إنتاجها الكبير من الخرق ، تعد مستودع هذه التجارة للعالم أجمع وهذه تتدفق عليها من اليابان وأبعد دول أمريكا الجنوبية وجزر كناريا . ولكن ألمانيا وفرنسا وروسيا وإيطاليا ومصر وتركيا وبلجيكا وهولنده البـــلاد الرئيسية التي تزودها بهذه المادة التي تستخدم في التسميد وصنع مراتب الأسرة وعمل الورق . وعن طريق عمال هذه الحرفة ينتشر الجدري وغيره من الأمراض المعدية وهم أول ضحايا هـذه الأوبئة[2] . وثمت مثال آخر عن العمل المرهق المؤذي بصورة وحشية بالنسبة إلى العامل منذ طفولته ، ونقصد به ـ فضلا عن استخراج الفحم والمعادن عموماً عمل القرميد والطوب ، إذ تجد أن الآلات التي اخترعت حديثاً لا تستعمل بانجلترا في هذه الصناعة إلا في حالات ومواضع متفرقة (كتب هـذا حوالي عام ١٨٦٦) ويستمر العمل فيما بين شهري مايو وسبتمبر من الساعة ٥ صباحاً حتى ٨ مساء ، وحيثما يجري التجفيف في العراء يكون العمل غالباً من ٤ صباحاً حتى ٩ مساء . وإن يوماً من العمل يبدأ في الخامسة صباحا وينتهي في السابعة مساء ليعد يوماً ، مخفضاً ، أو «معتدلا» . ويستخدم الأطفال من كلا الجنسين ومن سن السادسة بل والرابعة ، وهؤلاء يكدحون مثل البالغين بل ومدة أطول أحياناً . وتزيد حرارة الشمس من شدة الإرهاق والإعياء . وفي حقل معد لصنع القرميـد بموزلي كانت امرأة في الرابعة والعشرين من عمرها تصنع في اليوم ٢٠٠٠ قطعة بمساعدة فتاتين صغيرتين تحملان إليها الطين وتكومان القرميـــد وتحملان يومياً ١٠ أطنان يطلعن بها المنحدرات الزلقة لمناجم الطين من عمق قدره ٣٠ قدماً ثم تسيران مسافة أفقية قدرها ٢١٠ من الأقدام. من المستحيل على طفل أن يمر في مطهر حقل الطوب دون أن يصيبه الانحطاط الخلقي ... واللغة المنحطة التي يتعودون سماعها والعادات السيئة التي يشبون في أحضانها — كل هذا يجعلهم في المستقبل فئة منبوذة منحلة لا تعرف القانون والنظام . وأسلوب المعيشة مصدر مخيف للانحلال . وضارب الطوب وهو عادة عامل حاذق ورئيس مجموعة ، يمد السبعة الذين يعملون تحت إمرته بالمأكل والمسكن في كوخه وسواء كانوا من أسرته أو لم يكونوا ، ترى الرجال والأولاد والفتيات ينامون

---

(١) لجنة تشغيل ... التقرير الخامس ص ١١٤ – ١١٥ رقم ٦ و ٧ – ويبدي بعض اللجنة هـذه الملاحظة الحكيمة وهي أنه بينما تحل الآلات في الجهات الأخرى محل الانسان ، فهنا يحل الأطفال محل الآلات .

(٢) يتضمن التقرير الثامن عن الصحة العامة (لندن ١٨٦٦ ، ملحق ص ١٩٦ – ٢٠٨) وصفاً لتجارة الخرق به تفصيلات عدة .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

سوياً فى كوخ ذى غرفتين ، أو ثلاث على سبيل الاستثناء ، وكلها بالطابق الأرضى ورديئة التهوية . ويشتد الإرهاق بعد عمل اليوم بحيث لا يراعى هؤلاء قواعد الصحة أو النظافة أو اللياقة . هذا نظام يربط الفتيات منذ الطفولة إلى طائفة منبوذة من الأوشاب فيمتلأن خشونة وجفاء ويتعلمن أنهن صرن نسوة ولما يبلغن سن المراهقة . وإذ يرتدين الأسمال القذرة وتتعرى سيقانهن إلى ما فوق الركبة بكثير وتلوث القاذورات وجوههن ، تراهن يتعلمن ازدراء كافة مشاعر اللياقة والخجل . وفى أوقات وجبات الطعام يستلقين على ظهورهن فى الحقل ويراقبن الأولاد وهم يستحمون فى الترعة المجاورة . وإذ ينتهى اليوم الشاق يرتدين أحسن ملابسهن ويصحبن الرجال إلى الحانات . هذه الطبقة من الناس يسودها أشد ألوان الإفراط منذ الطفولة . وأسوأ ما فى الأمر أن ضاربى الطوب يتملكهم اليأس من أنفسهم ، حتى أنه قيل لقسيس إن محاولته تحسين مستوى مصانع الطوب كأنها محاولة لرفع حال الشيطان (لجنة تشغيل ... التقرير الخامس ١٨٦٦ ص ١٦ رقم ٩٦ و ٩٧ ، ص ١٣٠ رقم ٢٩ و ٦١ — انظر كذلك التقرير الثالث ١٨٦٤ ص ٤٨ ، ٥٦) .

أما عن الطريقة التى يتم بها الاقتصاد الرأسمالى فى النفقات فى الصناعة اليدوية الحديثة (وأدخل فيها كافة الورش عدا المعامل بمعناها الصحيح والتى تجرى فيها الصناعة على نطاق كبير) فاننا نجد مادة وفيرة فى التقارير عن الصحة العامة (الرابع ١٨٦١ ، السادس ١٨٦٤) حيث يقصر خيال الروائيين عن الوصف الذى نلقاه فيها للورش وبخاصة محل عمل الملابس بلندن . كتب الدكتور سيمون العضو الطبى بالمجلس المخصوص والمحرر الرسمى لتقارير الصحة العامة ، أظهرت فى تقريرى الرابع (١٨٦٣) استحالة إصرار العمال عملياً على ما يعد أول حق صحى لهم أى تحرر العمل من الأحوال غير الصحية التى يمكن تجنبها ، مهما كان نوع العمل الذى يجمعهم فيه رب العمل وما دام الأمر متوقفاً عليه . وأشرت أنه بينما يعجز العمال عملياً عن تحقيق هذا العدل الصحى لا يحصلون على أى عون فعال من رجال الإدارة الصحية الذين يؤجرون لهذا العمل ... إن الألم الجثمانى الذى لا ينتهى الناجم من عملهم يؤدى بغير ما نفع إلى تعذيب ألوف العمال رجالا ونساء وتقصير أمد حياتهم (الصحة العامة ، التقرير السادس ، لندن ١٨٦٤ ، ص ٣١) . ولتوضيح أثر غرف الورش على الصحة يورد الدكتور الجدول التالى عن الوفيات :[1] .

---

(١) التقرير السادس ص ٣٠ — يلاحظ الدكتور أن الوفيات بين الخياطين والطباعين بلندن فيما بين سن ٢٥ و٣٥ أكثر بكثير فعلا مما يدل عليه الجدول لأن أصحاب الأعمال يأتون من المناطق الزراعية بعدد كبير من الشبان

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

عدد العمال من كافة الأعمار فى الصناعات كل على حدة	الموازنة بين الصناعات فيما يختص بالصحة	نسبة الوفيات فى كل ١٠٠٫٠٠٠ رجل فى الصناعات المذكورة بين الأعمار الواردة بالجدول			
		سن ٢٥ - ٣٥	٣٥ - ٤٥	٤٥ - ٥٥
٩٥٣٫٢٦٥	الزراعة بانجلترا وويلز			
٢٢٫٣٠١ رجل ١٢٫٣٧٩ امرأة	الحاكة فى لندن	٧٤٣	٨٠٥	١٫١٤٥
		٩٥٨	١٫٢٦٢	٢٫٠٩٣
١٣٫٨٠٣	الطباعون فى لندن	٨٩٤	١٫٧٤٧	٢٫٣٦٧

(ى) الصناعة المنزلية الحديثة

حتى يتسنى لنا تكوين فكرة عن هذا الضرب من الاستغلال الرأسمالى وعن مساوئه البشعة تدرس صناعة عمل المسامير بقرية إنجليزية نائية (والإشارة هنا إلى المسامير المطروقة لا التى تقطع وتعمل بالآلات : لجنة تشغيل الأطفال ... التقرير الثالث ص ١١ ، ١٩ رقم ١٢٥-١٣٠ ص ٥٣ رقم ١١ ، ص ١١٤ رقم ٤٤٧ ، ص ١٣٧ رقم ٦٧٤) . وتكفينى كذلك أمثلة قلائل من فروع صناعات الدنتلا وتضفير القش التى لم تستخدم فيها الآلات بعد ولم تنافس الفروع التى تتم فى المصانع وفى المعامل اليدوية . فمن ١٥٠٫٠٠٠ عامل فى صناعة الدنتلا بانجلترا ينطبق قانون المصانع لعام ١٨٦١ على نحو ١٠٠٫٠٠٠ منهم ، والباقون من النساء والصغار أو الأطفال من كلا الجنسين وتشمل الفئة الأخيرة عدداً قليلا من الذكور . ويدل على صحة هذه المادة « الرخيصة » المعدة للاستغلال . الجدول التالى الذى جمعه الدكتور تروومان طبيب عيادة نوتنجهام العامة . فمن بين ٦٨٦ مريضة (معظمهن فيما بين سن ١٧ و ٢٤) بلغ عدد المصابات بالسل كما يأتى (شرحه - التقرير الثانى ص ٢٢ رقم ١٦٦)

١٨٥٢ - ١ فى ٤٥	١٨٥٥ - ١ فى ١٨	١٨٥٩ - ١ فى ٩
١٨٥٣ - ١ » ٢٨	١٨٥٦ - ١ » ١٥	١٨٦٠ - ١ » ٨
١٨٥٤ - ١ » ١٨	١٨٥٧ - ١ » ١٣	١٨٦١ - ١ » ٨
	١٨٥٨ - ١ » ١٥	

= دون سن الثلاثين ليتقنوا هذه المهنة ويقال لهم ,, الصبيان ,, أو ,, improvers ,, . هؤلاء يظهرون بالجدول على أنهم من أهل لندن وبذا يزيدون العدد الذى تحسب إليه نسبة الوفيات دون أن يزيدوا بصفة جدية عدد الوفيات . ومعظم هؤلاء يعودون إلى الريف ، وبصفة خاصة يرجعون إلى بيوتهم إذا مرضوا .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

هذه الزيادة فى نسبة إصابات السل يجب أن ترضى أشد التقدميين تفاؤلا ، وحتى الكذابين من أبواق حرية التجارة بألمانيا . ويسرى قانون المصانع الصادر عام ١٨٦١ على عمل الدنتلا ما دام ذلك بالآلات وهذه هى القاعدة فى انجلترا . والفروع التى سنعالجها بايجاز (ونقتصر على العمال الذين يعملون فى بيوتهم ونتجاهل من يعملون فى المصانع اليدوية الخ) . تنقسم إلى (١) الإعداد النهائى (٢) الدنتلا للوسائد . ويشمل الأول الدنتلا التى تصنعها الآلات وهذا بدوره يضم عدة أقسام فرعية . وتقوم بالعمل فيه نسوة فى بيوتهن بمساعدة أطفالهن أو غيرهم . وهؤلاء النسوة فقيرات للغاية وحجرة العمل جزء من مسكنهن ، ويتسلمن الطلبات من أصحاب المصانع والمخازن الخ . ويستخدمن النساء والبنات وصغار الأطفال . ويتوقف عدد هؤلاء على مساحة حجرة العمل وتقلبات الطلب ، ويتراوح بين ٢٠ ، ٤٠ أو بين ١٠ ، ٢٠ . ومتوسط سن الأطفال السادسة ولكن الكثيرين منهم يبدأون العمل قبل الخامسة . ويمتد يوم العمل من ٨ صباحاً حتى ٨ مساء مع تخصيص ١½ ساعة للراحة والطعام ، وغالباً ما يتناول العاملات الغذاء فى غرفة العمل الفاسدة . فاذا كانت التجارة رائجة استمر العمل من الساعة ٨ (وأحياناً ٦) صباحاً حتى ١٠ أو ١١ أو ١٢ ليلا . يحتم القانون فى المعسكرات البريطانية أن يخصص لكل جندى ٦٠٠ قدم مكعب من الفراغ الهوائى ، ١٢٠٠ فى المستشفيات العسكرية بينما النسبة فى هذه الجحور ٦٧ - ١٠٠ من الأقدام المكعبة للفرد الواحد ، وذلك بالإضافة إلى مصابيح الغاز التى تستهلك الهواء . وبرغم أن الأرضية من الطوب أو الحجارة لضمان نظافة الأسرة برغم الأطفال حتى فى برد الشتاء على خلع نعالهم ، وليس من غير المعتاد فى نوتنجهام أن تلقى ما بين ١٤ ، ٢٠ طفلا متراصين فى غرفة صغيرة لا تزيد مساحتها عن ١٢ قدم مربعة ويعملون ١٥ ساعة يومياً فى عمل مرهق فى حد ذاته ويجرى فى أحوال لا تتوافر فيها الشروط الصحية ... وحتى صغار الأطفال يشتغلون بانتباه مجهد لأعصابهم وبسرعة مدهشة لا يكادون يربحون أصابعهم أو يقللون من سرعة حركتها . وإذا ما وجه اليهم سؤال لما رفعوا العين عن العمل خشية إضاعة لحظة واحدة » . وتستخدم المديرات « عصاً طويلة » للتنبيه والتنشيط » فيتعب الأطفال تدريجاً ويشتد قلقهم كالطيور ، وذلك عند ما تدنو نهاية احتجازهم الطويل فى عمل مجهد للعين ومهلك بسبب الوضع المتسق الذى يكون عليه الجسم . إن عملهم شبيه بالرق » (التقرير الثانى للجنة تشغيل الأطفال ١٨٦٤ ص ١٩ ، ٢٠ ، ٢١) . وفى حالة اشتغال النساء فى البيت بمساعدة أطفالهن (ونقصد البيت بمعناه الحديث أى غرفة واحدة مؤجرة غالباً ما تكون فوق السطح) فالأحوال أسوأ . ويعطى العمل الذى من هذا النوع فى دائرة قطرها ٨ أميال

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

من نوتنجهام . وحينما يخرج الأطفال من المخازن فى التاسعة أو العاشرة ليلا يعطيهم الرأسمالى القاسى حزمة لإكمالها فى بيوتهم قائلا للطفل « هذا لأمك » وهو يعلم تمام العلم أن المسكين سيسهر على العمل ويساعد فى إتمامه (شرحه ص ٢١ ، ٢٦) .

وتجرى صناعة pillow lacemaking فى جهتين زراعيتين بانجلترا إحداهما هونيتون وتمتد مسافة من ٢٠ إلى ٣٠ ميلا على شاطىء ديفون الجنوبية وإن شملت أماكن قليلة فى ديفونشير الشمالية . وتشمل الجهة الثانية الشطر الأكبر من مقاطعات بكنجهام وبدفورد ونورثمبتن مع الأجزاء المجاورة من مقاطعتى أكسفورد وهنتنجتن . والورش فى العادة عبارة عن أكواخ العمال الزراعيين . ويستخدم كثير من رجال الصناعة أكثر من ٣٠٠٠ من هؤلاء العمال المنزليين معظمهم من الأطفال والأحداث ، وجميع هؤلاء من الأناث . وتتكرر هنا نفس الأحوال التى أشرنا إليها بصدد إعداد الدنتلا والفارق الوحيد أننا نجد بدلا من بيوت صاحبات العمل مايقال له « مدارس الدنتلا » تتولاها نسوة فقيرات فى أكواخهن . وفى هذه « المدارس » يعمل أطفال تتراوح أعمارهم بين الخامسة والثانية عشرة أو الخامسة عشرة . ويشتغل الصغار جداً من ٤ إلى ٥ ساعات ، وعند ما يكبرون يشتغلون يوماً كاملا من ٦ صباحاً حتى ٨ أو ١٠ مساء . وغرف العمل هى حجرات الخزين ذاتها فى تلك الأكواخ الصغيرة وتُسد المدخنة لمنع التيارات الهوائية ويعتمد من فى الحجرات على حرارة الجسم الطبيعية للتدفئة ، ويحدث هذا غالباً فى الشتاء . وفى حالات أخرى تكون غرف الدراسة هذه كما يقال لها شبيهة بغرف خزين صغيرة بدون مواقد التدفئة ... ويبلغ الازدحام فى هذه المغارات والفساد الناجم عن هذا أقصاهما . ويضاف إلى هذا الأثر الضار الناجم من المجارى والمواد المتحللة وغير ذلك من القاذورات التى نجدها عادة فى جوار الأكواخ الصغيرة . أما عن الفراغ « ففى غرفة بها ١٨ فتاة ورئيستهن ٣٥ قدماً مكعباً ، ويكون ذلك ٢٤½ فى غرفة أخرى بها ١٨ شخص ورائحتها لاتطاق . وتلقى فى هذه الصناعة أطفالا فى سن الثانية والثانية والنصف (شرحه ص ٢٩ ، ٣٠) . وفى مقاطعتى بكنجهام وبدفورد يبدأ تضفير القش وينتشر فى قسم كبير من مقاطعة هرتفورد والأجزاء الغربية والشمالية من إسكس . وفى سنة ١٨٦١ بلغ عدد المشتغلين فى تهيئة القش وعمل القبعات منه ٤٠٠٤٣ منهم ٣٨١٥ من الذكور من كافة الأعمار والباقون من الإناث منهم ١٤٩١٣ دون سن العشرين ، ٧٠٠ من الأطفال . وهنا نجد بدلا من مدارس الدنتلا « مدارس تهيئة القش » ، ويبدأ الأطفال عادة فى تعلم الصنعة فى سن الرابعة بل والثالثة فى حالات كثيرة . ويتحدث الأطفال أنفسهم عن المدارس الأولية بأنها « مدارس طبيعية » تمييزاً لها عن هذه المنشآت القاتلة التى يضطرون فيها إلى أداء

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

العمل الذى تفرضه عليهم أمهاتهم الجائعات واللائى يحملنهم على العمل فى البيت بعد انتهاء المدرسة حتى الساعة ١٠ أو ١١ أو ١٢ مساء . والقش يقطع أصابعهم وكذلك أفواههم لأنهم يعملون دائماً على ترطيبه بلعابهم . وبناء على أقوال الدكتور بالارد يعتقد موظفو الصحة فى لندن بضرورة تخصيص ٣٠٠ قدم مكعبة لكل فرد فى غرفة نوم أو عمل على أساس أن هذا هو الحد الأدنى . ولكن هذه النسبة أقل فى هذه المدارس منها فى مدارس الدنتلا فهى ١٢½ ، ١٧ ، ١٨½ وأقل من ٢٢ قدم مربعة لكل شخص . ويقول عضو اللجنة هوايت إن أقل هذه الأرقام دون نصف الفراغ الذى قد يشغله طفل وضع فى صندوق طول كل ضلع منه ٣ أقدام . وهكذا ينعم الأطفال بالحياة حتى سن ١٢ أو ١٤ . وأما الآباء التعساء وهم أنفسهم يتضورون جوعاً فإنهم لا يفكرون إلا فى الحصول على أكبر قدر قدر من العمل من أطفالهم . وبطبيعة الحال حين يكبر الأخيرون يهجرون والديهم إذ لا يأبهون لهم « فلا عجب أن عظم انتشار الجهل والرذيلة فى قوم شبوا على هذا النحو ... ومستواهم الأخلاقى منحط للغاية ... فلعدد كبير من النساء أطفال غير شرعيين ويحدث ذلك فى سن مبكرة جداً يدهش لها أولئك الذين لهم دراية واسعة بالاحصائيات عن المجرمين » (شرحه ص ١١ ، ١٤) . ومع ذلك يتحدث الكونت متنالمبرت عن هذا البلد الذى تسكن فيه هذه الأسرات النموذجية فى مثل هذه البيوت بأنها البلد النموذجى فى أوربا المسيحية ! والأجور منخفضة بالنسبة إلى الأجور الحقيقية (إذ يندر أن يتناول الطفل ثلاث شلنات) وذلك بفضل نظام truck System الواسع الانتشار فى الجهات المختصة بصناعة الدنتلا (شرحه التقرير الأول ١٨٦٣ ص ١٨٥) .

(هـ) الانتقال من الصناعة اليدوية الحديثة والصناعة المنزلية الى الصناعة الكبيرة

الاسراع بهذه الثورة بسبب تطبيق قوانين المصانع على النوعين الأولين

إن العمل على رخص قوة العمل بسبب سوء استعمال عمل النساء والأطفال ، وسلب كافة الأحوال والظروف العادية اللازمة للحياة والعمل ، والطابع الوحشى للارهاق والعمل الليلى ـ هذه العوامل جميعها لها حدود معينة تفرضها الطبيعة ولا يمكن تخطيها . وعلى ذلك هناك حدود مفروضة على محاولات إنقاص ثمن السلع (على هذا الأساس) وعلى الاستغلال الرأسمالى بوجه عام . وإذ نصل إلى هذه النقطة أخيراً (بعد وقت طويل) تدق الساعة التى يجب فيها استخدام الآلات وتحويل هذه الصناعات المنزلية المتفرقة (أو الصناعات اليدوية المتناثرة) إلى صناعة المصانع بسرعة . وتلقى فى إنتاج الملابس مثلا لهذا التحويل على نطاق

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

هائل . وحسب تقسيم «لجنة تشغيل الأطفال» تشمل هذه الصناعة صانعي قبعات القش والسيرات والخياطين والخياطات وصانعي القمصان وأحزمة السيدات ، وكذلك فروعاً صغيرة كثيرة كعمل ربطات العنق والياقات الخ . وفي سنة ١٨٦٠ بلغ عدد الإناث المشتغلات فيها بانجلترا وويلز ٥٨٦٠٢٩٨ منهن ١١٥٠٢٤٢ على الأقل دون العشرين ، ١٦٠٦٥٠ دون الخامسة عشرة وكان عددهن (١٨٦١) بالمملكة المتحدة ٧٥٠٠٣٣٤ . وفي نفس التاريخ كان عدد العمال الذكور في عمل القبعات والجوانتيات والأحذية وتفصيل الملابس ٤٣٧٠٩٦٩ في انجلترا وويلز منهم ١٤٠٩٦٤ دون الخامسة عشرة ، ٨٩٠٢٨٥ فيما بين الخامسة عشرة والعشرين ، ٣٣٠١١٧٠ يزيدون عن العشرين . والأرقام المذكورة لا تشمل عدداً كبيراً من الحرف الصغيرة الشأن التي تشملها هذه الصناعات . ومع هذا فمن هذه الأرقام ـ كما هي عليه ـ نجد أنه حسب إحصاء سنة ١٨٦١ بلغ عدد المشتغلين في صناعة الملابس بانجلترا وويلز ١٠٠٢٤٠٢٧٧ وهذا يعادل عددهم في الزراعة وتربية الماشية . هنا نبدأ في إدراك السبب الذي من أجله تستطيع الآلات أن تسحر هذه المقادير الضخمة من المنتجات وبذلك تساعد على تحرير أو « إطلاق سراح » مثل هذه الأعداد الوفيرة من العمال .

ويحدث جانب من إنتاج الملابس في المصانع اليدوية التي لا يتوافر في نطاقها تكرار تقسيم العمل الذي يجد المواد المتفرقة على استعداد له . كذلك يقوم بقدر آخر من إنتاج الملابس صغار أرباب الحرف اليدوية الذين لم يعودوا يعملون من أجل المستهلكين الفرديين كما كان شأنهم من قبل وإنما يعملون للمصانع اليدوية والمخازن بحيث أن مدناً ومناطق زراعية بأكملها قد تشتغل في بعض فروع كعمل الأحذية وما إلى ذلك على أنها من خصائصها . وثمت جانب ثالث أوسع انتشاراً يزاوله العمال المنزليون وهم الذين يكوّنون القسم الخارجي من المصانع اليدوية والمخازن بل والورش التابعة لصغار أرباب الحرف اليدوية[١] . وتهيء الصناعة الكبيرة مواد العمل (كالمواد الأولية والمنتجات المتوسطة الخ) ، ويتكون العمل الرخيص ممن «حررتهم» الصناعة والزراعة الكبيرتان . ومصنوعات هذه الطبقة منشؤها في الغالب حاجة الرأسماليين الى أن يجعلوا تحت يدهم جيشاً من العمال على استعداد لمواجهة كل زيادة في الطلب[٢] . ولكن هذه

---

(١) العادة أن تجرى ممارسة عمل الملابس للسيدات في مسكن صاحب العمل بواسطة عاملات يعشن فيه ، وعاملات يقمن في بيوتهن ويحضرن نهاراً لأداء العمل.

(٢) زار المستر هوايت عضو اللجنة أحد رجال الصناعة المشتغلين بعمل ملابس الجيش وكان يستخدم (١٠٠٠ - ١٢٠٠ كلهم تقريباً من النساء ، وقام كذلك بزيارة لأحد المشتغلين بصناعة الأحذية ويستخدم ١٣٠٠ نصفهم تقريباً من الأحداث والأطفال الخ) شرحه ، التقرير الثاني ص ١٧ رقم ٣١٩ .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

المصنوعات سمحت ببقاء الحرف اليدوية المبعثرة والصناعات المنزلية كأساس واسع تقوم عليه . والإنتاج الكبير لفائض القيمة فى مثل فروع العمل هذه ، مضافاً إلى اطراد ترخيص السلع التى تنتجها ، يرجع الى انخفاض الأجور فيها الى حد لا تكفى معه مجرد المعيشة ، وكذلك الى امتداد ساعات العمل الى أقصى حد ممكن من الوجهة الانسانية . والحقيقة إن هذا الامتداد الذى لا ينقطع للسوق التى تستوعب هذه السلع التى يتم إنتاجها على هذا النحو ، إنما يرجع فى الواقع الى رخص ذلك العرق والدم البشريين اللذين يتحولان إلى سلع . وتجد انجلترا هذه السوق بالمستعمرات حيث تغلب العادات والأذواق الانجليزية . وأخيراً تصبح الطريقة القديمة وهى الوحشة المجردة فى استغلال العمل ، عاجزة عن سد مطالب السوق النامية وعن الصمود أمام المنافسة المتزايدة بسرعة بين صنوف الرأسماليين . هنا تدق الساعة مؤذنة بضرورة استخدام الآلات . وماكينة الحياكة هى الآلة الانقلابية الحاسمة الأثر والتى تمد قبضتها على الفروع التى لا عد لها فى هذا الميدان من الإنتاج مثل عمل الملابس والحياكة وصنع الأحذية وأشغال الإبرة وعمل القبعات وغير ذلك . وأثرها العاجل بالنسبة الى العمال شبيه بأثر كافة أنواع الآلات التى تغزو فروعاً جديدة خلال عصر الصناعة الكبيرة . فيبطل استخدام الأطفال الصغار جداً ، وترتفع أجور عمال الآلات بموازنتها بأجور العمال المنزليين الذين ينتمى أغلبهم إلى الفقراء جداً ، وتهبط أجور العمال الحاذقين إذ تنافسهم الآلات بعد أن كانوا حتى ذلك الوقت فى مركز طيب نسبياً ، وتصبح غالبية العمال من الفتيات والنساء خاصة وهؤلاء يحطمن بمساعدة القوة الآلية ما للذكور من احتكار العمل الثقيل ، بينما يطردن أيضاً من الأعمال الأخف نوعاً أعداداً من القسوة المتقدمات فى السن وصغار الأطفال . والمنافسة القوية الطاغية تسحق الضعيف فى صفوف أهل الحرف اليدوية .

وقد سارت الزيادة الشنيعة فى الوفيات من الموت جوعاً فى لندن خلال العقد الأخير جنباً إلى جنب مع اتساع نطاق آلة الحياكة (١) . وتدير العاملات الجدد آلات الحياكة باليد أو القدم ، واقفات أو جالسات ، طبقاً لما يتطلبه ثقل الآلة وحجمها وخواصها ، وبذا ينفقن مقداراً كبيراً من قوة العمل . وعملهم غير صحى بسبب الساعات الطويلة وإن كانت فى العادة أقصر منها فى ظل النظام القديم . وحينما تشق آلة الحياكة سبيلها إلى غرف العمل الصغيرة المزدحمة يزداد ابتعاد هذه المحال عن الشروط الصحية . ويقول مستر لورد « إن الأثر الذى

---

(١) وإليك مثال ، ففى تقارير المسجل العام الأسبوعية (بتاريخ ٢٦ فبراير ١٨٦٤) نجد خمس حالات من الموت جوعاً ، وذكرت صحيفة التيمس حالة أخرى فى نفس اليوم ... معنى هذا ستة ضحايا من الجوع فى أسبوع واحد !

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

تلمسه عند دخول حجرات العمل ذات السقوف المنخفضة وحيث يتراص ما بين ٣٠ ، ٤٠ آلة حياكة ، أثر لا يطاق ... وحتى فى ساعات العمل المعتدلة أى التى تمتد من ٨ صباحاً حتى ٦ مساء يصاب ٣ - ٤ أشخاص بالإغماء يومياً » (التقرير الثانى ١٨٦٤ ص ٥٧ رقم ٤٠٦ - ٤٠٩ ، ص ٨٤ رقم ١٢٤ ، ص ٦٣ رقم ٤٤١ ، ص ٦٦ رقم ٦ ، ص ٨٤ رقم ١٢٦ ، ص ٧٨ رقم ٨٥ ، ص ٧٦ رقم ٦٩ ، ٦٢ رقم ٤٨٣) . والانقلاب فى الوسائل الإجتماعية للقيام بالصناعة وهو الانقلاب الذى يعقب بالضرورة الثورة فى أدوات الإنتاج ، يعبر عن نفسه بمزيج من الأشكال الإنتقالية . وتختلف هذه الأشكال طبقاً لمدى استعمال آلة الحياكة فى فرع أو آخر من الصناعة ، والوقت الذى استخدمت أثناءه ، والحالة السابقة التى كان عليها العمال ! وغلبة الصناعة اليدوية والحرفة اليدوية أو الصناعة المنزلية ، وإيجار الورشة(١) وغير ذلك ، ففى حالة عمل الملابس للسيدات حيث نظم العمل (فى الغالب على هيئة تعاون بسيط) لا تعدو آلة الحياكة أن تكون عاملا جديداً من عوامل الإنتاج فى الصناعة اليدوية . وفى حياكة الملابس وعمل القمصان والأحذية الخ تمتزج أشكال الإنتاج كلها امتزاجاً لا انفصام لأجزائه ، وهنا نجد نظاماً بحتاً من إنتاج المصانع . هناك يتسلم الوسطاء المادة الأولية من الرأسمالى الرئيسى ويجمعون حول آلات الحياكة فى غرف أو حجرات صغيرة فوق الأسطح ما بين ١٠ ، ٥٠ من العاملات أو أكثر . وفى أماكن أخرى ، كما هو الشأن حيث تستخدم الالات على نطاق ضيق ، يستعمل بعض عمال الصناعة اليدوية آلات يملكونها ويعاونهم أهلوهم أو عمال مأجورون (٢) . والغالب اليوم فى انجلترا أن يجمع الرأسمالى عدداً كبيراً من الالات فى ورشته ويوزع ما أنتجته الآلات على ذلك الجيش من العمال المنزليين لإعداده بصورة نهائية (مصدر سابق ص ٢ رقم ١٢٢) . ومع هذا فتعدد الأشكال الانتقالية لا يخفى الميل إلى تحويل الصناعة إلى صناعة مصانع بالمعنى الصحيح الذى تدل عليه هذه العبارة . ويعظم هذا الاتجاه بسبب نفس طبيعة آلة الحياكة والاستعمالات المتعددة الجوانب لها ، مما يشجع تركز فروع المهنة المتفرقة من قبل فى مكان واحد وتحت إدارة واحدة . ويساعد على ذلك أيضاً أن بعض العمليات التمهيدية الأخرى كأشغال الإبرة يحسن القيام بها فى نفس المكان الذى تستخدم فيه الالة . وأخيراً يشتد هذا الإتجاه بسبب سلب أرباب الحرف اليدوية والعمال المنزليين

---

(١) يبدو أن إيجار الأماكن اللازمة لتكون حجرات عمل هو العنصر الذى يعين هذه النقطة فى النهاية ، ونتيجة لذلك فهو المركز الرئيسى الذى احتفظ به النظام القديم فى إعطاء العمل لصغار أرباب العمل والاسرات أطول زمن ، ورجع إليه قبل غيره (مصدر سابق ص ٨٣ رقم ١٢٢) . والعبارة الختامية تشير خاصة إلى صنع الاحذية .

(٢) لا يقع هذا فى صناعة عمل البنفازات وغيرها من الصناعات التى يكاد فيها أن تميز بين العمال والفقراء المساكين .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

الذين ينتجون بآلاتهم ، وهؤلاء أصابهم هذا المصير إلى حد بالغ ، فاطراد زيادة كمية رأس المال المستثمر فى آلات الحياكة [١] يُنشّط الإنتـــاج ويُتخم السوق ، وهذه ترغم العمال اليدويين على بيع آلاتهم . والإفراط فى إنتاج آلات الحياكة ذاتها يؤدى بالمنتجين الذين يتعين عليهم إيجاد أسواق لبضائعهم إلى تأجير آلاتهم وهذا يسبب منافسة قاتلة بالنسبة إلى صغار مالكى الآلات (مصدر سابق ص ٨٤ حاشية ١٢٤) . والتغيرات التالية فى بنـاء الآلات وازدياد ورخص أثمانها مما يؤدى إلى خفض مطرد فى قيمة الأنواع الأقدم عهداً والتى تباع حينئذ بأعداد كبيرة بأسعار قاضية والمشترون هم كبار الرأسماليين وهم وحدهم القادرون على استخدامها بطريقة مربحة . وأخيراً كما هو الشأن فى كافة الانقلابات الصناعية المشابهة ينتهى الإشكال بإحلال القوة البخارية محل عضلات الإنسان كالقوة المحركة . فأولا يلاقى استخدام القوة البخارية صعاباً فنية كعدم الانتظام فى الالات ، والصعاب الناشئة عن السيطرة على سرعتها ، وسرعة فساد الالات الخفيفة وهكذا — وكلها مما تتيح التجارب التغلب عليه [٢]. بينما من جهة أخرى يكون فى تركيز آلات عمل كثيرة فى مصانع يدوية كبيرة دافع على استخدام القوة البخارية ، فمنافسة البخار للعضلات الإنسانية تعجل بتركيز العمال والالات فى مصانع كبيرة . وبذلك نرى اليوم فيما يختص بالصناعة الإنتاجية الهائلة لعمل الملابس فى انجلترا وبلاد كثيرة غيرها ، تحولا من الصناعة اليدوية والحرف اليـــدوية والصناعة المنزلية إلى صناعة المصانع ، وذلك منذ وَلَّد كل من هذه الأشكال المبكرة جميع مساوىء نظام المصانع أو فاقها بدون الاشتراك فى أى ناحية من نواحى تقدمها الحقيقى [٣] . وذلك بعد أن تعرضت هذه الأشكال للتغيير والانحلال كلية تحت تأثير الصناعة الكبيرة .

هذا الانقلاب الصناعى وهو عملية تحدث من تلقاء ذاتها يعجل به توسيع مدى تطبيق

---

(١) كانت صناعة الاحذية بالجملة فى ليستر سنة ١٨٦٤ تشمل ٨٠٠ آلة حياكة .

(٢) وعلى هذا امكن التغلب على هذه الصعاب فى مصنع ملابس الجيش فى بيمليكو ، وحدث نفس الشىء فى مصنع تيلى وهندرسن لعمل القمصان فى لندندرى ، وكذلك فى مصنع الملابس بليمريك حيث يشتغل حوالى ١٢٠٠ عامل.

(٣) ,, الاتجاه إلى نظام المصانع ،، (ص ٥٧) — ,, العمل كله فى هذا الوقت فى حالة انتقال ويتعرض لنفس التغيير الذى حصل فى صناعة الدنتلا والنسج الخ ،، رقم ٤٠٥ — ,, انقلاب شامل ،، رقم ٣١٨ — وحينما تألفت لجنة تشغيل الاطفال سنة ١٨٤٠ كان صنع الجوارب يتم بواسطه العمل اليدوى ثم استخدمت آلات تدار بقوة البخار وذلك منذ سنة ١٨٤٦ . والمجموع الكلى للمشتغلين فى صناعة عمل الجوارب بانجلترا من كلا الجنسين ومن كافة الاعمار فوق الثالثة كان حوالى ١٢٩,٠٠٠ (١٨٦٢) ، ولكن ٤٠٦٣ منهم فقط داخلون فى نطاق قوانين المصانع

(Parliamentary Return, February 11, 1862) .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

قوانين المصانع على كافة فروع الصناعة التى يشتغل فيها النساء والأحداث والأطفال . فالتنظيم الإجبارى ليوم العمل من حيث طوله وفترات الراحة وبدايته ونهايته ونظام المناوبات للأطفال وتحريم استخدامهم دون سن معينة الخ - هذا التنظيم يتطلب بالضرورة زيادة استعمال الآلات[1] وإحلال القوة البخارية محل عضلات الإنسان كقوة محركة[2] ، كما ينشأ عنه من جهة أخرى توسيع المجال الذى تستخدم فيه أدوات الإنتاج بالاشتراك مثل الأفران والمبانى الخ حتى يتسنى التعويض فى الحيز عما ضاع فى الوقت . وبكلمة واحدة يعقب ذلك تركيز أعظم فى أدوات الإنتاج وتجميع أعظم مماثل فى نفس الوقت للعمال . ويتفق أرباب الصناعة الذين يهددهم تطبيق قوانين المصانع على مشروعاتهم ، بأن من الضرورى استخدام قدر أكبر من رأس المال إن شاءوا مواصلة أعمالهم على الأساس القديم . وفيما يتعلق بالأشكال المتوسطة بين الصناعة اليدوية والصناعات المنزلية ، وكذلك الصناعة المنزلية ذاتها ، فان الأرض تميد من تحت أقدامها حين تفرض القيود القانونية على طول يوم العمل واستخدام الأطفال ، إذ تتعذر المنافسة لانهيار الأساس اللازم لها وهو الاستغلال غير المحدود لقوة العمل الرخيصة .

ومن الضروريات الأساسية لإنتاج المصانع - وبخاصة فى حالة إخضاعه لتنظيم يوم العمل ضرورة التأكد من النتيجة أى إنتاج مقدار محدود من السلع ، أو من النتيجة النافعة المرغوب فيها فى فترة معلومة من الزمن . وفترات التوقف عن العمل التى ينص عليها القانون أثناء يوم العمل تتضمن معنى إمكان تنظيم مثل هذه الفترات الفجائية والضرية فى عملية الإنتاج بدون إفساد نوع السلعة . مثل هذا التأكد من النتيجة ، ومثل هذه الطاقة على احتمال آثار الراحة فى عمليات العمل ، يسهل تحقيقها بطبيعة الحال فى العمليات الميكانيكية الصرفة أكثر منه فى العمليات التى تلعب فيها التغييرات الكيماوية والجثمانية دوراً كما هو الحال فى صناعة عمل الفخار والصباغة والخبز ومعظم صناعات المعادن . حينما ساد يوم العمل غير المقيد والعمل الليلى وتهدد المادة البشرية كان الناس يعدون الصعاب الطبيعية التى تنشأ فى عملية الإنتاج « عوائق

---

(١) عن صناعة الفخار يقول السادة كوشرين أصحاب مصنع برتيين بجلاسجو ,, للاحتفاظ بالكمية التى ننتجها توسعنا فى استخدام آلات صنعها العمل غير الحاذق ، وكل يوم يزيدنا اقتناعاً بأن فى استطاعتنا أن ننتج كمية أكبر مما كنا ننتجها بواسطة الطريقة القديمة ،، (تقارير ... ٣١ أكتوبر ١٨٦٥ ص ١٣) . ,, ويترتب على قوانين المصانع ارغام أصحاب الصناعات على التوسع فى استخدام الآلات ،، (ص ١٣ - ١٤) .

(٢) بعد تطبيق قوانين المصانع على محال عمل الادوات الفخارية حدثت زيادة كبيرة فى استخدام المناخل البخارية power jiggers بدلا من النوع القديم الذى كان يتم تحريكه باليد .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

طبيعية لا يمكن فصلها » . إن أى مادة سامة لا تقتل الحشرات بمثل ما تتغلب قوانين المصانع على هذه العوائق الطبيعية . ولم يتغلب على هذه المستحيلات أكثر من السادة أصحاب محال عمل الفخار . فى سنة ١٨٦٤ طبق القانون على مشروعاتهم وبعد انقضاء ١٦ شهر زالت جميع هذه المستحيلات ولم تزد نفقة الآنية الفخارية وإن كانت هناك زيادة بالغة فى مقدار المنتج بحيث بلغت الصادرات ١٣٨٫٦٢٨ جنيه (خلال السنة المنتهية فى ديسمبر ١٨٦٥) زيادة على متوسط السنوات الثلاث السابقة لذلك . وفى عمل الكبريت كانوا يعدون من القوانين الطبيعية أن يواصل الأولاد غمس عيدان الثقاب فى الفسفور المذاب حتى أثناء الطعام بينما يتصاعد الغاز السام إلى وجوههم ، وترتب على استخدام قانون المصانع فى عام ١٨٦٤ أن بدأ استعمال آلة لهذه العملية فلا يحتك البخار المتصاعد منها بالعمال(١) . ويحدثوننا الآن عن فروع فى صناعة الدنتلا لم تدخل بعد فى نطاق قانون المصانع ، بأن أوقات تناول الطعام لا يمكن أن تكون منتظمة بسبب الحاجة إلى فترات مختلفة للتجفيف تتراوح بين ثلاثة دقائق وساعة أو أكثر ، وقد أصر بعض رجال هذه الصناعة على أن طبيعة المواد المستعملة وعملياتهم المختلفة تجعل فى التوقف أى لحظة خلال أوقات الطعام خسارة خطيرة ، ولكن وضح إمكان التغلب على هذه الصعوبة بفضل العناية والتنظيم . وقد أمهلهم القانون (المادة ٦ من القسم السادس) ١٨ شهر قبل تطبيق النصوص الخاصة بساعات الغذاء عليهم (لجنة ... التقرير الثانى ١٨٦٤ ص رقم ٥٠) . وما أن صدر القانون حتى اكتشف أرباب الصناعة أن هذه الصعاب التى تخوفوا منها لم تنشأ ولم يؤثر تطبيق القانون فى الانتاج بل قال أحدهم « إننا ننتج مقداراً أكبر فى نفس الوقت » (تقارير ، ٣١ أكتوبر ١٨٦٥ ص ٢٢) . لقد تعلم البرلمان بالتجربة إن الإلزام القانونى كاف للقضاء على ما يقال له العوائق الطبيعية في العملية الإنتاجية ، ويلاحظ أن القانون يمهل رجال الصناعة فترة من الوقت ليتخلصوا منها . لقد قال ميرابو « مستحيل ؟ لا تستعمل هذه الكلمة الغبية معى ! » ، وينطبق هذا على التعبير الفنى الحديث بصفة خاصة . ومع هذا فرغم أن قوانين المصانع تهيء الأحوال المادية لتحويل الصناعة اليدوية إلى نظام المصانع ، فانها كذلك تعجل بانهيار صغار أصحاب الأعمال ، وتركيز رأس المال إذ تجعل من الضرورى استخدام مقدار كبير منه(٢) .

---

(١) أدى استخدام هذه الالة وغيرها فى صناعة الكبريت إلى النتائج التالية فى قسم واحد : حل ٣٢ ولداً ويفتاً تتراوح أعمارهم بين ١٧،١٤ سنة محل ٢٣٠ من الشبان ، وترتب على استخدام القوة البخارية سنة ١٨٦٥ ازدياد مقدار الوفر فى العمل .

(٢) « ويجب أن نذكر أن هذه التحسينات برغم تطبيقها تماما فى بعض المنشئات ، إلا أنها ليست عامة ولا =

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

وبغض النظر عن العقبات الفنية البحتة التى يمكن التغلب عليها بوسائل فنية ، يتصادم تنظيم يوم العمل مع عادات العمال غير المنتظمة وبخاصة حين يسود نظام الدفع بالقطعة بحيث يمكن تعويض الكسل فى جانب من اليوم أو الأسبوع بزيادة مفرطة فى حدة العمل أو عن طريق العمل الليلى الأمر الذى له آثار وحشية على الذكور البالغين وهدامة فى حالة النساء والصغار[1] . وبرغم أن عدم الانتظام فى بذل قوة العمل يعتبر رد فعل طبيعى ساذج للاعياء فانه ينشأ إلى حد أكبر عن فوضى الإنتاج التى تمثل استغلال وأس المال لقوة العمل استغلالا غير مقيد . ذلك أنه ، إلى جانب التقلبات الفترية للدورة الصناعية وإلى جانب تقلبات السوق فهناك الاختلافات الفصلية التى تتوقف من جهة على ملاءمة بعض الفصول للملاحة البحرية ، ومن جهة أخرى على المودة أو طلبات فجائية كبيرة يتعين إنجازها بسرعة . وكلما عظم انتشار السكك الحديدية والتلغراف كثرت عادة تنفيذ هذه الطلبات فى الحال . « إن امتداد نظام السكك الحديدية مال إلى تشجيع طريقة الطلب قبل نفاذه بوقت قصير . فيأتى المشترون من جلاسجو ومنشستر وإدنبره مرة كل أسبوعين أو نحو ذلك إلى مخازن بيع الجملة التى تمدها بالسلع ويتقدمون بطلبات صغيرة عاجلة التنفيذ بدلا من أن يشتروا المخزون . ومنذ سنوات كنا قادرين دائماً على العمل فى أوقات الركود حتى تتمكن من مواجهة الطلب فى الفصل التالى ولكن من الصعب الآن التكهن بما يكون عليه الطلب حينذاك »[2] . وفى المصانع والمعامل اليدوية التى لم يطبق عليها قانون المصانع يلجأون من وقت لآخر إلى أشد أنواع العمل إرهاقاً فى مثل هذا الفصل لمواجهة الطلبات المفاجئة بسرعة . ففى القسم الخارجى من المصنع أو

يمكن استخدامها فى كثير من المصانع اليدوية القديمة إذ يتطلب ذلك انفاق مقادير من رأس المال تزيد عن طاقة أصحاب هذه المصانع ،، ـ ويحدثنا المفتش المساعد هاى أن نوعاً من الاضطراب المؤقت لا بد أن يصاحب تطبيق قوانين ، المصانع ولكن هذا دليل على الشروط التى أريد علاجها بتطبيق القانون (٣١ أكتوبر ١٨٦٥).

(١) فى حالة أوان الصهر مثلا ،، يزاد العمل بوجه عام حوالى نهاية الاسبوع نظراً لما اعتاده العمال من التكاسل فى يوم الاثنين وكذلك فى جزء من يوم الثلاثاء أو اليوم كله ،، (لجنة تشغيل ... التقرير الثالث ص ٦) ،، ولا ينتظم صغار الاسطوات بوجه عام ، فتراهم يضيعون يومين أو ثلاثة ثم يشتغلون ليلا لتعويض ذلك ... وهم يستخدمون دائماً أطفالهم إن كان لهم أطفال ص ٢ ـ ،، وعدم الانتظام فى الحضور إلى العمل الامر الذى يشجع عليه عادة تعويض ذلك بالعمل ساعات أطول ،، ص ١٨ ـ ،، ويضيع مقدار كبير من الوقت فى برمنجهام ... التكاسل فى خلال بعض الوقت والارهاق فى بقيته ص ١١ .

(٢) لجنة تشغيل الاطفال ، التقرير الرابع ص ٣٢ ـ ،، يقال إن توسيع نطاق نظام السكك الحديدية ساعد إلى حد كبير على انتشار عادة إعطاء هذه الاوامر الفجائية بالطلبات وما ينجم عن ذلك من إسراع العمال وإهمالهم أوقات تناول الطعام واشتغالهم حتى ساعة متأخرة من الليل ،، (المصدر السابق ص ٣١) .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

المعمل اليدوى أى فى مجال الصناعة المنزلية (حيث العمل غير منتظم لأن توريد المادة الأولية وتقديم الطلبات متوقفان على أهواء الرأسمالى الذى لا يتقيد بأية اعتبارات لحسن استخدام الأبنية والآلات الخ والذى لا يخاطر بشىء سوى جلد العامل ، فى حالة الصناعة المنزلية) ـ نقول فى هـذا القسم الخارجى تتخـذ الخطوات بانتظام للتأكـد من وجود جيش صناعى احتياطى يمكن استخدامه ، فنى جزء من العام ينقص عدده بسبب الكمد الشديد وفى بقية العام يهبط إلى درجة التسول بسبب عدم توفر العمل . ويستغل أرباب الأعمال طابع عدم انتظام العمل المنزلى هذا بحيث أنه يستمر فى حالة الطلب الإضافى المفاجىء حتى الساعة ١١ أو ١٢ مساء أو ٢ صباحاً ، أو « كل الساعات » كما يقولون . وقد وصف شاهد أرباب العمل بأنهم قوم غريبون إذ يظنون أن الولد لا يصيبه الضر إذا أسرف فى العمل خـلال نصف العام وتعطل فى النصف الآخر (لجنة ... التقرير الرابع ص ١٢٧ رقم ٥٦) . وكما هو الشأن في الصعاب الفنية يتحدث الرأسماليون عمـا يقال لها « العادات » وهى التى نمت بنمو التجارة ويصفونها بأنها قيود طبيعية » فرضت على الإنتاج ، وتلك هى شكوى أصحاب الصناعة القطنية حينما هددهم تطبيق قانون المصانع . وبرغم اعتماد هذه الصناعة على السوق العالمية وبالتالى على الملاحة فقد كذبتهم التجارب ، ومنذ ذلك الحـــين يصف مفتشو المصانع كل عقبة من هذا القبيل بأنها هراء[1] . وأثبتت الأبحاث النزيهة التى قامت بها لجنة استخدام الأطفال عدة أمور منها : أولا فى بعض الصناعات يرجع إلى تنظيم يوم العمل الفضل فى تنظيم العمل المستخدَم على مدار السنة (لجنة... التقرير الرابع ص ١٧١ رقم ٣١) . ثانياً ـ كان تنظيم يوم العمل أول قيد معقول على أهواء الذوق القاتلة والعديمة المعنى والتى لا تتفق مع تنظيم الصناعة الـكبيرة[2] . ثالثاً . قضى تقدم النقل فى المحيط ووسائل المواصلات

(١) « وبخصوص خسارة التجارة بسبب عـدم انفاذ أوامر الشحن فى الوقت المناسب ، أذكر أن هـذه كانت الحجة التافهة التى تذرع بها أصحاب المصانع فى عامى ١٨٣٢ ، ١٨٣٣ . ولا يمكن لأى شىء يقال الآن بصدد هذا الأمر أن تكون له قوته فى ذاك الوقت قبل أن يختصر البخار المسافات بما يعـادل النصف ويقيم تنظيمات جديدة للنقل » (تقارير ... ٣١ أكتوبر ١٨٦٢ ص ٥٤ — ٥٥) .

(٢) فى سنة ١٦٩٩ لاحظ جون بيلرز ما يأتى « ويزيد عدم التأكد من الأذواق عدد الفقراء المحتاجين ولهذا الأمر ضرران : أولهما بؤس عمال اليومية فى الشتاء لعدم توافر العمل ، ولا يستطيع الخردواتية والنساجون استخدام هؤلاء العمال قبل حلول الربيع حيث يعرفون نوع المودة ، وثانيهما أن عـدد عمال المياومة لا يكون كافياً فى الربيع ولـكن النساجين يجب عليهم استخدام عدد كبير من الصبيان حتى ينتهى إنتاج مطالب التجارة فى البلد خلال ربع السنة أو نصفها وهذا يحرم الأرض من العمال ويملأ المدينة بالمتسولين ويجبر البعض فى الشتاء ممن يخجلون من الاستجداء »

Essays about the Poor, Manufactures, etc., p. 9.

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

عموماً على السبب الحقيقي الوحيد للعمل الفصلي (لجنة ... التقرير الخامس ص ١٧١ رقم ٣١) رابعاً : تختفي جميع الصعاب الأخرى التي يقال إنها , لا تنفصل ، عن العمل ، وذلك حين تتوسع المباني وتضاف آلات أخرى وتحدث زيادة مناسبة في عدد العمال[١] ، وحين يكون لهذه التغييرات أثرها الطبيعي على طريقة إجراء تجارة الجملة[٢] . ولكن ، مع هذا كله ، كما اعترف الرأسماليون دواماً ، لا يمكن التوفيق مطلقاً بين رأس المال ومثل هذه التغييرات إلا « تحت ضغط قانون برلماني عام[٣] » للتنظيم الإجباري لساعات العمل .

(٩) قوانين المصانع . المواد الخاصة بالصحة والتعليم في هذه القوانين .

تطبيق قوانين المصانع على انجلترا كلها

إن تشريع المصانع أول رد فعل منظم مقصود الهدف من جانب المجتمع إزاء التطور التلقائي غير المقيد لعملية الإنتاج ، وهو نتيجة حتمية للصناعة الكبيرة لا تلف في هذا عن غزل القطن والمحركات الآلية والتلغراف . وقبل أن نعرض لتطبيق قوانين المصانع في انجلترا كلها تحسن الإشارة إلى موادها التي لا تتصل بساعات العمل .

وبرغم صيغتها التي تجعل من السهل على الرأسماليين التهرب منها ، فالمواد الصحية ضئيلة إذ تقتصر على تبييض الجدران والنظافة في مسائل معينة والحماية ضد الآلات الخطرة .

---

(١) وقد شهد ممثلو بيوت برادفورد للتصدير بما يلي ,, ويبدو واضحاً في هذه الظروف أنه لا حاجة لتشغيل الأولاد أكثر من مدة تمتد من ٨ صباحاً حتى ٧ و ٧/٣٠ مساء وذلك على سبيل التعويض . إن المسألة مجرد أيدي عاملة ونفقات زيادة عن المعتاد . لو لم يكن بعض أصحاب الأعمال بهذا القدر من الجشع لما اشتغل الأولاد إلى ساعة متأخرة من الليل ، إن آلة إضافية (علاوة على العدد المعتاد) تكلف ٦ أو ١٨ جنيه فقط ، وإن جانباً كبيراً من الوقت الخارج عن المقرر والمشار إليه يرجع السبب فيه إلى عدم كفاية الآلات والأجهزة وعدم توفر الفراغ ،، (لجنة التقرير الخامس ص ١٧١ رقم ٣١ ، ٣٦ ، ٣٨) .

(٢) فيما يلي ما قاله صاحب مصنع بلندن وهو ممن يعد التنظيم الاجباري ليوم العمل حماية للعمال ضد أصحاب المصانع ، وللاخرين ضد تجار الجملة ,, ويرجع الضغط الذي نعانيه في العمل الذي نقوم به إلى أصحاب السفن الذين يريدون مثلا إرسال البضائع بالسفن الشراعية لكي تصل إلى هدفها في فصل معلوم ويريدون في الوقت ذاته أن يستولوا على الفرق في أجرة النقل بين السفينة الشراعية والسفينة البخارية ، كما يرجع السبب إلى الذين يختارون الباخرة التي تبحر قبل غيرها حتى تصل البضائع إلى السوق الأجنبية قبل بضائع منافسيهم ،، — نفس التقرير .

(٣) ويقول أحد أصحاب المصانع ,, ويمكن القضاء على هذا على حساب توسيع المصانع إذا ما صدر قانون برلماني بذلك ،، — نفس التقرير ص ١٠ رقم ٣٨ .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

وسنعالج فى الكتاب الثالث مقاومة أرباب المصانع لتلك المواد التى أرغمتهم على إنفاق مبلغ إضافى حماية لعمالهم ، وهى مقاومة تلقى الضوء مرة أخرى على مبدأ الحرية الذى يقول إنه حيث تتفاعل المصالح المتعارضة فى المجتمع يرعى المرء مصالح الجماعة حين يعمل على تنمية صالحه الشخصى ، ومثل واحد يكفى . خلال العشرين سنة الأخيرة تقدمت صناعة الكتان كثيراً بإرلنده وتبع هذا ازياد عدد Scutching mills بحيث بلغ ١٠٠٨ عام ١٨٦٤ . وتجتذب هذه الصناعة عاماً بعد آخر فى الخريف والشتاء عمالا كثيرين أغلبهم من النساء والصغار من أبناء وبنات وزوجات المستأجرين الزراعيين بالجهات المجاورة . والحوادث لامثيل لها فى تاريخ الآلات ، سواء من حيث عددها أو شدتها ، ففى مصنع بكيلدينان بجوار كورك بلغ عدد الإصابات المميتة ٢٦ والتشويه ٦٠ فى الفترة (١٨٥٢ — ٥٦) ، وكان فى المستطاع تجنبها ببعض أجهزة بسيطة وبإنفاق بضع شلنات . ويقرر الدكتور هوايت (جراح مصانع جهة داون باتريك فى تقريره بتاريخ ١٥—١٢ — ١٨٦٥) أن الحوادث فظيعة ، ففى حالات كثيرة يقطع ربع الجسم من الجذع وقد يؤدى إلى الموت أو إلى مستقبل من الألم والعجز . وبطبيعة الأمر تزداد هذه النتائج المرعبة بازدياد المعامل . وإنها لنعمة كبرى لو خضعت هذه المصانع لسلطان التشريع ، ولو أحكمت الرقابة لأمكن تجنب تضحيات هائلة فى الأرواح وأعضاء الجسم (مصدر سابق ص ١٥ رقم ٧٢) .

كيف يستطاع إظهار حقيقة الأسلوب الرأسمالى فى الإنتاج بأكثر من الحاجة إلى فرض أبسط أساليب المحافظة على النظافة والصحة بواسطة التشريع ؟ ففى الصناعة الفخارية سبب قانون ١٨٦٤ تبييض أكثر من ٢٠٠ ورشة وتنظيفها بعد امتناع دام ٢٠ عاماً فى حالات كثيرة وامتناع مطلق فى بعض الحالات . وحتى ذلك الوقت ظل عمالها البالغون ٢٧٫٨٠٠ يتنفسون خلال الأيام الطويلة وأحياناً الليالى جواً فاسداً جعل العمل مليئاً بالمرض والموت ، وقد عمل القانون على تحسين التهوية كثيراً (تقارير ٣١ — ١٠ — ١٨٦٥ ص ١٢٧) . وأظهر التنفيذ أن نفس طبيعة الإنتاج الرأسمالى تحول دون تحسين معقول بعد حد معين . أشرت إلى ما يراه الأطباء الإنجليز من اعتبار فراغ قدره ٥٠٠ قدم مكعبة كحد أدنى للفرد فى الأماكن التى يجرى فيها عمل متواصل . هذه النصوص تعجل بتحويل الورش الصغيرة إلى مصانع وهذا اعتداء على حقوق الامتلاك بالنسبة لصغار الرأسماليين ، كما يضمن احتكاراً لكبارهم . فتحتيم فراغ هوائى كاف يُفقد الألوف من صغار أرباب الأعمال ملكيتهم بضربة واحدة . ويتحطم نفس أساس طريقة الإنتاج الرأسمالية أى التمدد الذاتى لرأس المال (كبيراً كان أم صغيراً) بواسطة « حرية » شراء واستهلاك قوة

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

العمل . وتتفق السلطات الصحية ولجان التحقيق والمفتشون على ضرورة توفير ٥٠٠ قدم مربعة كحد أدنى ، وتصر على القول باستحالة حمل الرأسماليين على قبول هذا الإصلاح ، وتصرح بأن السل وغيره من أمراض الرئة بين العمال ظروف لا بد منها لبقاء رأس المال(١) .

ومع أن المواد الخاصة بالتعليم لم تخط إلا خطوة قصيرة فانها تنص على أن التعليم الأولى يجب أن يصحب عمل الأطفال(٢) . وكان فى نجاح القانون أول دليل على إمكان الجمع بين التعليم والتربية الجثمانية (٣) وبين العمل اليدوى من جهة ، وربط العمل اليدوى بالتعليم والتربية الجثمانية من جهة أخرى . وكشف مفتشو المصانع أن أطفال المصانع ، وإن كانوا لا ينالون من التعليم إلا نصف ما يحصل عليه التلاميذ النظاميون ، فانهم يتعلمون مثلهم وأحياناً أكثر منهم ، وتعليل ذلك أن بقاءهم بالمدرسة نصف يوم يجعلهم نشيطين على الدوام وعلى استعداد لتلقى العلم . وقضاء نصف اليوم فى العمل اليدوى والآخر بالمدرسة فيه نوع من الراحة والتنويع فيعظم إقبال الطفل على كل من الأمرين ، والطفل الذى كان بالمدرسة طول الصباح لا يجارى (وبخاصة فى الطقس الحار) زميله الذى يأتى نشيطاً ومبتهجاً من عمله(٤) . ونرى

---

(١) دلت التجارب على أن الفرد المتوسط الصحة يستهلك ٢٥ بوصة مكعبة من الهواء حين يتنفس مرة واحدة وهو يتنفس حوالى عشرين مرة فى الدقيقة . وعلى ذلك يبلغ ما يستهلكه الفرد ٧٢٠,٠٠٠ بوصة مكعبة أو ٤٦ قدم مكعبة من الهواء فى اليوم المكون من ٢٤ ساعة . ونعلم علاوة على ذلك أن الهواء الذى نستنشقه لا يصلح بعد ذلك إلا إذا أعادته الطبيعة نقياً من جديد . ويبدو من نتائج التجارب التى أجراها فالنتين وبرونر أن الرجل المتمتع بصحة سليمة يقدر ما يخرجه من الزفير فى الساعة الواحدة ٣٠٠ بوصة مكعبة من أكسيد الكربون ، ومعنى هذا أن ماتخرجه الرئتان فى ٢٤ ساعة يعادل ٨ أوقيات من الكربون الصلب . ويقول هكسلى ,, يجب أن يكون لكل إنسان ٨٠٠ من الأقدام المكعبة ،، .

(٣) ينص قانون المصانع الانجليزى ألا يبعث الوالدون بأطفالهم إلى المصانع ,, الخاضعة له ،، ما داموا دون سن الرابعة عشرة من العمر إلا إذا سمحوا لهم فى نفس الوقت بالحصول على التعليم الأولى ، وصاحب المصنع مسئول عن تنفيذ القانون . التعليم بالمصنع إجبارى وشرط من شروط العمل، تقارير ... ٣١ أكتوبر ١٨٦٣ ص١١١

(٣) أما عن النتائج الطيبة المترتبة على ربط التربية البدنية (والتمرينات الرياضية فى حالة الأولاد) بالتعليم الاجبارى لأطفال المصانع والطلاب الفقراء ، فعليك أن تقرأ خطاب ن . و. سينيور الذى ألقاه بالمؤتمر السنوى السابع للجمعية الأهلية لترقية العلوم الاجتماعية ـ تقرير عن أعمال المؤتمر الخ ، لندن ١٨٦٣ ص ٦٣ ، ٦٤ ـ وكذلك تقارير ... ٣١ أكتوبر ١٨٦٥ ص ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢٦ وما بعدها ..

(٤) تقارير ... ٣١ أكتوبر ١٨٦٥ ص ١١٨ ـ وقد صرح صاحب مصنع حرير بما يأتى ببساطة أمام لجنة تشغيل الأطفال ,, إنى متأكد تماماً أن السر الحقيقى فى إنتاج عمال أكفاء ينحصر فى ربط التعليم والعمل منذ الطفولة وبطبيعة الحال يجب ألا تكون المهنة قاسية أو مجهدة أو غير صحية ، ولكنى لا أشك فى ميزة الربط بين التعليم والعمل ـ

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

من خطاب سينيور أمام مؤتمر العلوم الإجتماعية بإدنبره سنة ١٨٦٣ أن يوم المدرسة الممل الطويل بغير حاجة بالنسبة لأطفال الفصول العليا والمتوسطة ويزيد من مجهود المعلم بلا فائدة . وهـــذا ليس عديم الجدوى وضاراً بصفة مطلقة فحسب ، بل إنه يبدد وقت الأطفال وصحتهم ونشاطهم(١) . ونعلم مما توافر عليه أوِن أن بذور التعليم فى المستقبل توجد فى نظام المصانع . وسيكون هذا تعليما يربط فى حالة كل طفل فوق سن معينة بين العمل الإنتاجى وبين التعليم والتربية الجثمانية ، لا على أن ذلك وسيلة لزيادة الإنتاج الاجتماعى فحسب . بل على أنه الطريقة الوحيدة لتخريج مخلوقات آدمية كاملة النمو .

رأينا أن الصناعة الكبيرة بسبب التطورات الفنية المصاحبة لها تضع حداً لتقسيم الصناعة اليدوية للعمل وهو ذلك النوع الذى يرتبط فيه كل فرد طيلة حياته بعملية تفصيلية واحدة . ولكنه يعود إلى الظهور فى عهد الصناعة الكبيرة بشكلها الرأسمالى فيتحول العامل إلى ملحق واع بآلة تؤدى عملية جزئية ، بينما فى غير ذلك تحدث أمثال هذه الشرور على غير انتظام بفضل الاستعمال المتناثر للآلات وعمل الآلة(٢) ، ومن جهـــة نظراً لإدخال عمل النساء

=== وإنى لأود لو تهيأ لأطفال العمل إلى جانب اللعب إذ فى هذا نوع من التنويع لتعليمهم ،، (التقرير الخامس ص ٨٢ رقم ٣٦)

(١) سينيور ص ٦٦ — إن الموازنة بين الخطاب الذى ألقاه سينيور سنة ١٨٦٣ وهجومه على قانون المصانع الصادر سنة ١٨٣٣ ، أو إن الموازنة بين الآراء التى أبداها المؤتمر المشار إليه وبين ما نراه فى بعض مناطق ريفية معينة بانجلترا يحرم فيها على الوالدين الفقراء أن يعلموا أطفالهم وإلا مات هؤلاء الوالدون من الجوع — نقول إن مثل هذه الموازنة تكفى لبيان كيف أن الصناعة الحديثة تستطيع إذا بلغت مستوى معيناً من النمو أن تحدث انقلاباً فى عقول الناس بفضل الثورة التى تحدثها فى طريقة الانتاج وفى علاقات الانتاج الاجتماعية . مثال ذلك أن المستر Snell يقرر عن مقاطعة سمرست أنه حين يطالب فقير بالمعونة من الأبرشية فغالباً ما يضطر إلى إخراج أطفاله من المدرسة . ويحدثنا المستر ولارتن القسيس فى فلتام عن حالات رفض فيها منح المساعدة لأسرات معينة ,, لأنها كانت تبعث بأطفالها إلى المدرسة ،، !

(٢) حينما تبدأ المنافسة المباشرة أو غير المباشرة بين آلات الحرفة اليدوية التى تدار بواسطة عضلات الانسان وبين الآلات التى بلغت مبلغاً عالياً من النمو (أى التى تديرها القوة الميكانيكية) ، يحدث تحول عظيم فيما يتعلق بالعامل الذى يدير الآلة . لقد حلت الالة فى الأصل محل هذا العامل ، أما الان فقد تعين عليه أن يشغل مكان الالة البخارية وتبعاً لذلك يشتد إرهاق ما له من قوة العمل ويبلغ درجة هائلة ، ويتعرض لمثل هذا العذاب بصفة خاصة صغار السن ومن أمثلة ذلك أن عضو اللجنة لوتج وجد فى كوفنترى وما جاورها أولاداً فيما بين العاشرة والخامسة عشرة من أعمارهم يشتغلون فى إدارة أنوال نسج الأشرطة ribbon خل عنك الأطفال الاصغر سناً والذين كانوا يقومون بادارة آلات أصغر ,, انه عمل متعب إلى حد غير معتاد ، وما الولد إلا مجرد بديل عن القوة البخارية ،، — لجنة تشغيل .. التقرير الخامس ١٨٦٦ ص ١١٤ رقم ٦ — وهـذا الجزء نفسه من التقرير يحتوى على أدلة بخصوص النتائج القاتلة المترتبة على ,, نظام العبودية هذا ،، .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

والأطفال والعمل غير الحاذق كأساس جديد لتقسيم العمل . والآن يتضح التناقض بين تقسيم العمل فى ظل الصناعة اليدوية وبين الطبيعة الأساسية للصناعة الحديثة . ومن الوسائل التى يبدو بها هذا التناقض أن نسبة كبيرة من الأطفال فى المصانع الحديثة يخضعون لأشد الاستغلال عاماً بعد آخر دون أن يتعلموا حرفة تجعلهم نافعين فى المستقبل فى نفس الصناعة اليدوية أو عمل المصنع . مثال ذلك طبع الكتب بانجلترا حيث كان الصبيان فى الأيام السالفة ينتقلون تدريجاً من عمل سهل إلى آخر أصعب نسبياً وهكذا يتعلمون الحرفة كلها حتى يحصلوا على ما يؤهلهم لعمل الطباعين ، وهذا إلى جانب تعلم القراءة والكتابة وقد تغير هذا كله بسبب استخدام الطباعة الآلية التى تستخدم اليوم صنفين من العمال : البالغين (الذين يرعون الآلات) والأحداث فيما بين سن ١١ ، ١٧ وعملهم الوحيد نشر أفرخ الورق تحت الآلة ثم إخراجها بعد ذلك . وهم يزاولون هذا العمل المتعب وبخاصة فى لندن حوالى ١٤ ، ١٥ أو ١٦ ساعة خلال أيام عدة وأحياناً لمدة ٣٦ ساعة مرة واحدة مع منحهم ساعتين فقط للطعام والراحة[١] . وكثيرون منهم لا يقرأون وليس من الضرورى أن يحصلوا على تدريب فكرى إذ ليس فى العمل سوى مجال صغير للمهارة ومجال أصغر منه للتقدير الحسن . والأجور لا تتناسب زيادتها مع تقدمهم فى السن ، وأغلبهم لا يتطلعون إلى الوظائف الأحسن أجراً والأكثر مسئولية وهى وظائف المشرفين على الآلات « لأن لكل آلة مشرفاً واحداً ومعه ولدان أو أربعة »[٢] . فاذا ما بلغوا السابعة عشرة من العمر طردوا من المطبعة وبذا يزداد عدد الطبقات المجرمة . وتفشل محاولات إيجاد عمل لهم فى ميادين أخرى بسبب جهلهم ووحشيتهم وانهيارهم العقلى والجثمانى .

وما ينطبق على تقسيم الصناعة اليدوية للعمل داخل المصنع ينطبق بالمثل على تقسيمه فى المجتمع . فما دامت الحرفة اليدوية والصناعة اليدوية أساس الإنتاج الاجتماعى يصبح تخصيص المنتج لفرع من الإنتاج خاصة وتكسير الجوانب الأولية المتعددة النواحى لمهنته [٣] خطوة

---

(١) شرحه ص ٣ رقم ٢٤ .

(٢) شرحه ص ٧ رقم ٦٠ .

(٣) « جاء فى Statistical Account عن إقليم المرتفعات باسكلندة أن كل فلاح منذ سنوات ليست بالكثيرة كان يصنع أحذيته من جلد يدبغه بنفسه . وكثيراً ما كنا نجد فى الكنيسة الكثيرين من الرعاة وسكان الأكواخ من صغار الفلاحين cottars وقد ارتدوا ثياباً من صنع أيديهم مادتها الأولية صوف أغنامهم والكتان الذى زرعوه فى حقولهم ، ونادروا ماكانوا يشترون أداة واحدة مما يحتاجون إليه فى هذا العمل وذلك باستثناء المخرز والابرة والكستبان وبعض أجزاء قليلة جداً من الأدوات الحديدية التى تستخدم فى النسج . وكان

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

ضرورية فى طريق التطور ، وعلى هذا الأساس وكثمرة التجربة يتخذ كل فرع خاص من الإنتاج الشكل الفنى المناسب ، ويتقنه بالتدريج ثم يتبلور فى ذلك الشكل عند بلوغ درجة معينة من النضج . والشىء الذى يحمل على التغيير هنا وهناك هو التغيير التدريجى فى أدوات العمل بالإضافة إلى مايرد من أنواع جديدة من المادة الأولية عن طريق التجارة . وحين يمكن الحصول على ذلك الشكل الذى أثبتت التجارب صلاحيته تراه يجمد ويبدو ذلك من الطريقة التى ينتقل بها من جيل لآخر مدى آلاف السنين . ومن مظاهر هذا التطور أنه حتى فى القرن الثامن عشر كان يقال للحرف اليدوية « الخفايا » (١) التى لايعلم أسرارها سوى الذين يعلمون السحر . لقد مزقت الصناعة الكبيرة القناع الذى اعتاد إخفاء عملية الإنتاج الاجتماعية عن الناس ، وجعل ألغازاً من مختلف فروع الإنتاج التى نمت من تلقاء ذاتها . وهى ألغاز لا للخارجين عنها بل لمن يبعثونها . والمبدأ الذى تسير عليه الصناعة الحديثة وبمقتضاه تتحلل كل عملية إلى الأجزاء التى تكونها بغض النظر عن وجود أية علاقة بينها وبين أساليب المبدع الإنسانى لها ، هو الذى خلق علم الصناعات والحرف . فالأشكال المتعددة من عملية الإنتاج الاجتماعية والتى تبدو فى ظاهرها غير متصلة الحلقات إنما تتحول إلى تطبيقات مقصودة الهدف للعلوم الطبيعية ، وكل منها يعد بطريقة منتظمة لادراك النتيجة النافعة المرغوب فيها . كذلك كشف الأشكال الأساسية القليلة للحركة وهى الأشكال التى يجب أن يتخذها كل نشاط إنتاجى للجسم الانسانى برغم تنوع العُدد المستعملة وذلك كما أن علم الميكانيكا لايرى فى أقصى تعقيدات الآلات أكثر من التكرار الدائم للقوى الميكانيكية البسيطة . ولا تنظر الصناعة الحديثة إلى الشكل القديم من عملية إنتاجية على أنه نهائى . إن أساسها الفنى على ذلك انقلابى بينما كان الأساس الفنى لكافة وسائل الإنتاج السابقة محافظاً (٢) . وعن طريق الآلات والعمليات الكيماوية

= النساء يستخرجن الأصباغ من الأشجار والشجيرات والأعشاب ،، مؤلفات Dugald Stewart، طبعة هاملتن ج ٨ ص ٣٢٧ — ٣٢٨ .

(١) فى المؤلف الشهير المعروف باسم Livres des métiers والذى وضعه Etienne Boyleau نقرأ أن أحد عمال اليومية إذا ما انضم إلى جماعة المعلمين من أعضاء النقابة كان يقسم ،، أن يحب اخوانه بمعيار المحبة الأخوية ، وأن يعاونهم فى حرفهم المختلفة وألا يفشى أسرار المهنة ، وألا يجذب بضائعه عن طريق لفت نظر المشترى إلى عيوب سلع الغير وهذا الأمر الأخير فى صالح الجميع .

(٢) ،، لاتستطيع البورجوازية العيش دون أن تحدث بلا انقطاع انقلابات فى أدوات الانتاج وفى علاقات الانتاج بعد ذلك ، ومن ثم فى مجموعة العلاقات الاجتماعية . وعلى العكس من هذا كان الابقاء على أساليب الانتاج القديمة الشرط الأول لوجود الطبقات الصناعية السابقة وبقائها . والشىء الذى يميز العصر البورجوازى عن سواه التحويل =

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

ووسائل أخرى فالصناعة الحديثة إذ تغير الأساس الفنى للانتاج تعمل كذلك على تغيير وظائف العمال والارتباطات الاجتماعية لعملية العمل . وفى الوقت ذاته وبنفس الدرجة من الاستمرار تحوّل تقسيم العمل فى داخل المجتمع فتنقل بلا انقطاع مقادير من رأس المال والعمل من فرع إلى آخر من فروع الانتاج . فالصناعة الكبيرة بطبيعتها تسبب تغييرات فى العمل وكثرة فى الوظائف ، ومرونة متعددة الجوانب للعامل . ومن جهة أخرى ففى شكلها الرأسمالى تكرر التقسيم القديم للعمل وخواص ذلك التقسيم . وقد رأينا كيف أن هذا التناقض الكامن يسلب العامل الراحة والثبات والاستقرار ويهدد بحرمانه فى الوقت ذاته من وسائل العمل والحياة(١) وأن يجعل فائضاً عن الحاجة لا الوظيفة التفصيلية التى يقوم بها فحسب ، بل والرجل نفسه . وقد رأينا كذلك كيف أن هذا التناقض يبدو أثره الخطير فى التضحية المستمرة بالعمال وفى تبديد قوة العمل تبديداً يتميز بالإرهاق والتهور ، وفى مظاهر الدمار المترتبة على الفوضى الإجتماعية . وهذا هو الجانب السلبى . ولكن إذا كانت تغييرات العمل المستمرة تعرض نفسها كقانون طبيعى غالب على سواه وميدياً أثره بذلك النشاط المدمر لمثل هذا القانون حين يلقى فعله عقبات فى كل مكان (٢) . ومن جهة أخرى فالصناعة الكبيرة عن طريق تكباتها تفرض ضرورة حيوية وهى أن التغييرات فى العمل وفى مهارة العامل إلى اقصى حد ممكن سينظر إليها على أنها قوانين عامة للانتاج الاجتماعى بحيث أن الإنتاج يجب أن يُجعل مطابقاً للطريقة التى تؤدى بها هذه القوانين وظائفها فى العادة .

= المستمر للانتاج والاضطراب الدائم فى الاحوال الاجتماعية وعدم الاستقرار والحركة الخالدان ، فتزول كافة العلاقات الثابتة القديمة بما يصحبها ويتعلق بها من أفكار وآراء خاطئة قديمة لها احترامها ، كما أن العلاقة الحديثة النشأة والتكوين تصبح عتيقة بالية قبل أن تجمد وتتحجر . ويتحطم كل ماكان يراه الناس صلباً وتتناثر أجزاؤه ، ويصيب الدنس كل ما كان مقدسا ، وأخيراً يضطر الناس إلى أن يحدقوا بأعين مفتوحة فى مركزهم وعلاقاتهم الاجتماعية ،، ف. انجلز ـ كارل ماركس Manifesto of the Communist Party لندن ١٨٤٨ .

(١) (إنك تسلبنى الحياة حين تنزع منى الوسائل التى أعيش بها)

شكسبير : تاجر البندقية ـــ الفصل الرابع ، المنظر الأول السطر ٣٧١ـــ٣٧٢ .

(٢) على أثر عودة عامل فرنسى من سان فرنسسكو كتب مايأتى ,, لم أكن لأصدق أبدا أنى قادر على الاشتغال فى حرف مختلفة متنوعة . اشتغلت فى كاليفورنيا وكنت مقتنعاً أنى لا أصلح إلا للطباعة .. ولكن إذ ألقيت نفس فى وسط هذا العالم من المغامرين الذين يغيرون مهنهم كما يفعلون بملابسهم ، فعلت مثلهم ، وإذ لم يكن التعدين عملا مجزيا هجرته إلى المدينة حيث اشتغلت بترتيب الحروف وأصبحت سباكاً الخ . ولما كشف صلاحيتى لأى نوع من العمل شعرت أنى إنسان ،، C. A. Cordon : De l'enseignement professionnel الطبعة الثانية ، باريس ١٨٥٨ ص ٥٠ .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

ولكن تطور هذه المتناقضات فى نطاق شكل تاريخى من الانتاج هو الطريقة التاريخية الوحيدة التى تحل بها هذه المتناقضات ويظهر شكل جديد إلى عالم الوجود . لقد كان من أثمن جواهر حكمة رجال الحرف اليدوية قولهم « ليثبت الإسكافى حتى النهاية » . ولكن هذه الحكمة صارت سخافة مطلقة منذ اللحظة التى تمكن فيها صانع الساعات وات من اختراع الآلة البخارية ، والحلاق أركريت من اختراع الآلة المعروفة باسم البغلة ، والجوهرى فولتن من ابتداع السفينة البخارية » (١).

بقدر ما ينظم تشريع المصانع العمل فى المصانع ومعامل الصناعة اليدوية الخ لا يعدو هذا فى أول الأمر أن يكون تدخلا فى حق رأس المال فى الاستغلال . ومن جهة أخرى يعد أى تنظيم لما يعرف باسم الصناعة المنزلية(٢) تدخلا واضحاً ومباشراً فى سلطة الوالدين ، وهذه كانت خطوة ظل البرلمان البريطانى الطيب القلب راغباً عن أن يخطوها . ولكن أرغمته قوة الظروف فى النهاية على أن يعرف أن الصناعة الكبيرة التى حطمت الأسس الإقتصادية التى يقوم عليها نظام الأسرة القديم وعمل الأسرة الملاءم لذلك النظام ، كانت تكتسح أمامها العلاقات الأسرية القديمة . وصار من المتعين المناداة بحقوق الأطفال ، وإنا لنقرأ ما يلى فى تقرير لجنة استخدام الأطفال لعام ١٨٦٦ « لسوء الحظ يتضح من جميع الأدلة أن الأطفال من الجنسين إنما يتطلبون الحماية إزاء أهليهم أكثر منها إزاء الغير » . فالسبب فى نظام الاستغلال غير المقيد لعمل الطفل عموماً ولما يقال له العمل المنزلى على وجه الخصوص إنما هو « لأن الوالدين قادرون دون ما رقابة أو تقييد على ممارسة سلطانهم الاستبدادى الضار على فلذات أكبادهم الصغار وناعمى الأظفار . — فينبغى ألا يكون للوالدين السلطة المطلقة التى تمكنهم من أن يجعلوا من أطفالهم مجرد آلات تكسب كذا أجر فى الأسبوع ... فالأطفال والصغار

---

(١) فى نهاية القرن السابع عشر نجد أن جون بلوز (وهو صورة هامة فى تاريخ الاقتصاد السياسى) قد أدرك بوضوح الضرورة الداعية إلى إلغاء نظام التعليم الحالى والأساليب الحالية فى تقسيم العمل التى تخلق الاعتلاء والحرمان فى قطبى المجتمع المتقابلين ، وإليك قوله ,, والتعليم الخامل لا يفضل كثيراً تعلم الخزل ... والعمل الجثانى نظام أولى فرضه الله .... ولكون العمل صالحاً لصحة الجسم كالغذاء بالنسبة إلى حياته ، لأن الآلام التى يوفرها الانسان بواسطة الراحة إنما يراها فى المرض ... إن العمل يضيف الزيت إلى مصباح الحياة الذى يشعله التفكير .. إن العمل الشخيف الشبيه بعمل الأطفال يجعل عقول الأطفال تافهة ،،

Proposals for Raising a College of Industry of all Useful Trades and Husbandry, London, 1696, pp. 12, 14, and 18.

(٢) يستمر هذا النوع من العمل فى الورش الصغيرة كما رأينا فى مهن عمل الدنتلا وطى القش ويمكن أن ندرسه بتفصيل أوفى صناعات المعادن بشفيلد وبرمنجهام الخ .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

فى كافة أمثال هـذه الحالات لهم ما يبرر طلبهم على اعتبار ذلك حق طبيعى لهم بأن يُعفَو مما يحطم قبل الأوان قوتهم الجثمانية ويهبط بهم فى معيار المخلوقات الفكرية والأدبية » (لجنة تشغيل الأطفال، التقرير الخامس ص ٢٥ رقم ١٦٢ ، التقرير الثانى ص ٣٨ رقم ٢٨٩٠٢٨٥، ص ٣٥ رقم ١٩١) ولكن لم يكن سوء استغلال السلطة الأبوية السبب فى هذا الاستغلال المباشر وغير المباشر لعمل الأشخاص غير الناضجين من جانب رأس المال ، بل بالعكس إن الطريقة الرأسمالية فى الإنتاج هى التى حولت سلطة الوالدين إلى إساءة استعمال لها لأن هذه الطريقة قضت على الأساس الاقتصادى الملاءم لسلطة الوالدين . ومهما بدأ تحطيم نظام الأسرة القديم فى داخل المجتمع الرأسمالى شنيعاً فالصناعة الكبيرة إذ تخصص للنساء والأحداث والأطفال دوراً حاسما فى عملية الإنتاج المنظمة على أساس اجتماعى وهو دور يجب الاضطلاع به خارج البيت ، إنما تبنى الأساس الاقتصادى الجديد لشكل أعلى من الأسرة ومن العلاقات بين الجنسين . ومن السخف أن ننظر إلى الشكل المسيحى التيوتونى للأسرة على أنه شكل مطلق ، كما ينطبق نفس الأمر على الأشكال الرومانية والإغريقية والشرقية ، وهى بهذه المناسبة تكون سلسلة متطورة متصل بعضها ببعض على مرّ التاريخ . وواضح علاوة على ذلك أن تكوين هيئة العمل المتحدة من أفراد من كلا الجنسين ومن أعمار مختلفة برغم أنه فى شكله الرأسمالى الناشئ من تلقاء ذاته والوحشى (حيث فيه يوجد العامل من أجل عملية الإنتاج لا أن تكون عملية الإنتاج من أجل العامل) — نقول إنه وإن كان هذا التكوين مصدراً سيئاً للفساد والاستعباد فقد يتحول إلى مصدر تقدم الإنسان إذا توافرت أحوال مناسبة(١) .

بدأ تشريع المصانع كقانون استثنائى طبق على الغزل والنسج الآليين وهى أولى ثمار الصناعة الميكانيكية . وقد رأينا الحاجة إلى توسيع مداه بحيث يصبح قانوناً عاماً ينطبق على جميع الإنتاج الاجتماعى تنشأ من عملية التطور التاريخية للصناعة الكبيرة كنتيجة ترتب عليها حدوث انقلاب فى الأشكال التقليدية للصناعة اليدوية والحرف اليدوية والصناعة المنزلية فتتحول الأولى على الدوام إلى إنتاج مصانع ، والثانية إلى صناعة آلية يدوية ، وتصبح أقاليم الحرف اليدوية والصناعة المنزلية ، فى وقت سريع إلى درجة مدهشة عبارة عن أماكن بؤس يجد فيها الاستغلال الرأسمالى المجال حراً لممارسة أفدح ألوانه . وهناك عاملان هما اللذان يعينان فى النهاية امتداد تشريع المصانع . فأولا هناك التجربة المتجددة على الدوام وهى أن رأس المال حالما تخضعه لإشراف الدولة فى نواح قليلة منعزلة من البناء الاجتماعى يبحث عن

---

(١) « قد يكون العمل بالمصنع خالصاً وجيداً كالعمل المنزلى بل وربما أفضل منه » — تقارير مفتشى المصانع ، ٣١ أكتوبر ١٨٦٥ ص ١٢٧ .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

التعويض بقوة أعظم فى نواح أخرى (المصدر السابق ص ٢٧و٣٢) . والعامل الثانى الطلب الملح من جانب الرأسماليين أنفسهم لتحقيق المساواة فى أحوال المنافسة وهذا يتضمن طلباً على إقامة حدود يمكن تطبيقها عموماً لاستغلال العمل (وتجد معلومات وفيرة عن هذا الأمر فى « تقارير مفتشى المصانع ») . ولنستمع إلى حديثين يشقان القلوب ، فالسادة كوكسلى من المشتغلين بصناعة المسامير والسلاسل ببرستول وقد طبقوا من تلقاء أنفسهم تنظيمات قانون المصانع . نظراً لنية الأسلوب القديم غير المنتظم فى المعامل المجاورة فموقف جماعة كوكسلى غير ملاءم لأن الأولاد فى منشآتهم يجتذبون للعمل بعد الساعة السادسة مساء فى أماكن أخرى ، وهم يقولون بالطبع « إن هذا ينافى العدل وتنجم عنه خسارة لأنه ينهك جانباً من قوة الأولاد وهى القوة التى يجب أن نستفيد منها إلى الحد الأقصى (لجنة ... التقرير الخامس ص ١٠ رقم ٣٥) . وصرح المستر ج . سمبسون صانع ورق الصناديق والحقائب بلندن أمام اللجنة أنه مستعد لتوقيع أى التماس لتدخل التشريع لأنه يشعر دائماً بالقلق ليلا حين يغلق محله خشية أن يشتغل الغير حتى ساعة متأخرة من الليل وبذا يحصلون على الطلبات التى كانت من نصيبه (شرحه ص ٩ رقم ٢٨) . ورأت اللجنة أنه من غير العدل وضع مصانع كبار أرباب الأعمال تحت التنظيم بعكس المحال الأصغر منها . وأشارت إلى الظلم الناجم عن المنافسة بخصوص ساعات العمل إذا أعفيت المحال الصغيرة . وفضلا عن هذا تجذب أماكن العمل المعفاة من التشريع ما لدى كبار أرباب الصناعة من العمال الأحداث من الذكور والإناث . وفضلا عن هذا فثمت حافز على مضاعفة عدد المحال الصغيرة مع أنها أقل مناسبة لصحة القوم وراحتهم وتعليمهم وتحسين أحوالهم (مصدر سابق ص ٢٥ رقم ١٦٥ - ١٦٧) - لإدراك المزايا الأخرى للصناعات الكبيرة . راجع التقرير الثالث للجنة تشغيل الأطفال ص ١٣ رقم ١٤٤ و ص ٢٥ رقم ١٢١ و ص ٢٦ رقم ٢٥ و ص ٢٧ رقم ١٤٠ الخ .

وتوصى اللجنة فى تقريرها الختامى بتطبيق القانون بحيث يدخل فى دائرته ١٫٤٠٠٫٠٠٠ من الأطفال والأحداث والنساء حوالى نصفهم موضع الاستغلال فى الصناعة الصغيرة والمنزلية . « إذ لا ريب أن مثل هذا التشريع سيكون له أثر طيب لا بالنسبة للصغار والضعفاء

---

(١) هذا الامتداد للقانون جعله يسرى على المهن الآتية : - عمل الدنتلا ، نسج الجوارب ، طى القش ، عمل الملابس بفروعها المختلفة ، عمل الزهور الصناعية ، عمل الأحذية ، عمل القبعات ، عمل الجوانتيات ، الحياكة ، كافة مصانع المعادن من أفران الصهر حتى مصانع الابر الخ ، مصانع الورق والزجاج والطباق والمطاط ، عمل الأبسطة اليدوى ، عمل المظلات ، صناعات المغازل ، الطباعة ، التجليد ، عمل الأدوات الكتابية (ويشمل ذلك عمل الحقائب الورقية والورق الملون الخ) ، وعمل الحبال ، وصنع الحلى وعمل الطوب ، وصنع الحرير باليد ، والنسج فى كوفنترى =

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

فحسب وهم موضع عنايته المباشرة . بل وبالنسبة إلى العمال البالغين الذين يدخلون تحت سلطانه بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ، وسيفرض ساعات منتظمة معتدلة ، ونظافة وصحة أماكن العمل ، وهذا يعمل على توفير وتحسين قوتهم الجثمانية التى تتوقف عليها رفاهيتهم ورفاهية البلاد كثيراً ، كما ينقذ الجيل الناشىء من الإفراط فى المجهود فى سن مبكرة ... وأخيراً يتيح لهم — على الأقل حتى سن الثالثة عشرة — فرصة تلقى مبادىء العلم ... » (مصدر سابق ص ٢٥ رقم ١٦٩) .

وأعلنت وزارة التورى فى خطاب العرش (٥ فبراير ١٨٦٧) انها ضمنت توصيات لجنة التحقيق الصناعية بضع مشروعات قوانين[1] ؛ وكان لا بد قبل إدراك هذه النتيجة من تجربة أخرى لمدة ٢٠ عاماً على حساب الطبقة العاملة . ففى ١٨٤٠ تألفت لجنة لفحص عمل الأطفال وكما صرح نساو . و . سينيور أظهر تقريرها (١٨٤٢) « أفظع صورة للجشع وحب الذات من جانب أصحاب العمل والوالدين ، والبؤس والدمار من جانب الصغار والأطفال ... ولسوء الحظ لا زالت تلك الويلات مستمرة بمثل حدتها السابقة ، كما يتضح من الكتيب الذى نشره هاردويك منذ عامين ... وإنه لدليل غريب على ما يصيب أخلاق أطفال الطبقة العاملة وصحتهم من إهمال عام عدمُ الاهتمام بهذا التقرير مدى عشرين عاماً سمح خلالها لأطفال نشأوا دون أى إدراك لما يراد بكلمة الأخلاق وبدون معرفة أو دين أو عاطفة طبيعية أن يصبحوا والدين للجيل الحالى » (سينيور : مؤتمر العلوم الاجتماعية ص ٥٥ - ٥٨) . وخلال ذلك تغيرت الأحوال الاجتماعية ولم يجرأ البرلمان على تجاهل مطالب لجنة ١٨٦٣ ومد نطاق مفعول القانون النافذ إذ ذاك فى صناعة المنسوجات ليشمل عدة صناعات منها عمل الفخار وورق الجدران والكبريت والخرطوش الخ ، وذلك سنة ١٨٦٤ مع أن تقرير اللجنة لم ينشر منه إلا جزء . وقد أتمت اللجنة أعمالها سنة ١٨٦٦ ، وفى ١٥ أغسطس سنة ١٨٦٧ صدق الملك على The Factory Acts Extension Act (للصناعات الكبيرة)، وعلى Workshops Regulation Act

---

ومعامل الملح والشمع والأسمنت ، ومعامل تكرير السكر ، وصناعات متنوعة متصلة بالخشب ، وحرف أخرى متصلة بالخشب ، وحرف أخرى مختلطة .

(١) صدر القانون Factory Acts Extension Act فى ١١ أغسطس ١٨٦٧ ونظم كافة معامل المعادن والمسابك والمصنوعات بما فى ذلك محال الآلات وكذلك صناعات الزجاج والورق ، وصمغ جاوه gutta percha ، والمطاط ، والطباق وغسال الطباعة والتجليد ، وأخيراً كافة الورش التى تستخدم أكثر من خمسين عاملا . وصدر ,, قانون تنظيم أوقات العمل ،، فى ١٧ أغسطس ١٨٦٧ وهو ينظم الورش الصغيرة وما يقال له الصناعة المنزلية . وسأعود إلى هذه القوانين وإلى قانون التعدين الجديد الصادر سنة ١٨٧٢ الخ فى المجلد الثانى .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

فى ٢١ أغسطس (الصناعات الصغيرة) . ويسرى الأول على أفران الصهر ومعامل صهر الحديد والنحاس ومعامل السبك ومصانع عمل الآلات والمصانع المشتغلة بالصناعة المعدنية وورش الورق والزجاج والطباق والطباعة والتجليد . وعلى العموم جميع المنشآت الصناعية من هذا النوع والتى يشتغل فيها ٥٠ شخصاً أو أكثر فى نفس الوقت لمدة لا تقل عن ١٠٠ يوم فى السنة . ولكى نعطى فكرة عن مدى مجال تطبيق هذا القانون نقتبس الفقرات التالية من المادة التفسيرية « لقانون تنظيم الورش .

الحرفة اليدوية handicraft وهى أى عمل يمارس بطريقة التجارة أولأغراض الكسب ، أوتكون ملازمة لصنع أى سلعة أو جزء من سلعة ، أوملازمة لتغيير وإصلاح وتزيين وإتمام سلعة أو جعلها صالحة للبيع . »

الورشة (workshop) - أى غرفة أو مكان مهما كان فى العراء أو مسقوفاً ومعد لممارسة أى حرفة يدوية بواسطة أى طفل أو شخص صغير السن أو امرأة ، ويكون فيه حق الرقابة والإشراف لمن يستخدم هذا الطفل أو الحدث أو المرأة » .

المستخدمون employed ويقصد بذلك من يعملون فى أى حرفة يدوية بأجر أو بغير أجر تحت إشراف رب عمل أو والد كما هو مبين هنا » .

الوالد - ويراد به الوالد والوصى أوالشخص الذى عليه رعاية أو الإشراف على أى ... طفل أو حدث » .

وتنص المادة السابعة على عقاب استخدام الأطفال والأحداث والنساء بطريقة مخالفة للقانون ، وتفرض الغرامات لا على من يدير الورشة سواء كان والداً أو غير ذلك فحسب بل وحتى والد الطفل والصغير أو المرأة أو الشخص الذى يستفيد فائدة مباشرة من عمل هؤلاء أو يسيطر عليهم » .

ويختلف القانون الأول الخاص بالمنشآت الكبيرة عن قانون المصانع بسبب اشتماله على عدد من الاستثناءات الفاضحة ، كما أنه يسلم عن جبن بأمور كثيرة لصالح أصحاب رؤوس الأموال . وظل قانون تنظيم الورش على تفاهته عديم القيمة فى أيدى السلطات المدنية والمحلية التى عهد إليها تنفيذه . وحين سحب البرلمان هذه الاختصاصات سنة ١٨٧١ من السلطات المحلية ونقلها إلى مفتشى المصانع أضيف إلى عمل الأخيرين أكثر من ١٠٠٫٠٠٠ ورشة ، ٣٠٠ مصنع لعمل الطوب دفعة واحدة . وبرغم نقص عدد موظفى هيئة التفتيش من الأصل لم يزد

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

عددها إلا ثمانية مع اتساع نطاق عملها بهذه الإضافة الجديدة[١] .

ومما يسترعى النظر فى التشريع البريطانى (١٨٦٧) أن البرلمان المكون من الطبقات الحاكمة اضطر أن يقبل كمسألة مبدأ اتخاذ مثل هذه الاجراءات الواسعة والشاذة ضد ماشاهده من تطرف رأس المال فى الاستغلال . هذا من جهة ، ومن أخرى كان التطبيق العملى لهذه الاجراءات متصفاً بالتردد . وعدم الرغبة فى التنفيذ ، وسوء النية .

كذلك أوصت لجنة ١٨٦٢ بإجراء تنظيم جديد لصناعة التعدين التى تميزت باتفاق مصالح كل من ملاك الأراضى والرأسماليين الصناعيين . لقد ساعد تضارب مصالح الفريقين على صدور تشريع المصانع ، وإن اختفاء هذا العداء يفسر التراخى الذى تميزت به محاولات تنظيم المناجم عن طريق التشريع . وقد كشفت لجنة ١٨٤٠ الغطاء عن أشياء بشعة كانت موضع فضيحة بأوربا ، وهنا سن البرلمان قانون التعدين (١٨٤٢) الذى حرم العمل الليلى تحت سطح الأرض بالنسبة للنساء والأطفال ممن لم يبلغوا العاشرة . ثم نص قانون ١٨٦٠ على أن يتولى التفتيش على المناجم موظفون عموميون يعينون لهذا الغرض ، كما حرم العمل تحت سطح الأرض على الأحداث فيما بين العاشرة والثانية عشرة إلا إذا كانوا مزودين بشهادة من المدرسة أو كانوا يدرسون ساعات معينة كل أسبوع .

ومن أحدث الكتب الزرقاء « تقرير اللجنة المختارة عن المناجم ، مضافاً إليه ... الأدلة (٢٣ يولية ١٨٦٦) وأصدرته لجنة من أعضاء مجلس العموم خولت حق استجواب الشهود . والتقرير مجلد ضخم لا يشغل فيه التقرير الفعلى سوى خمسة سطور ، فكأن على اللجنة أن تستجوب شهوداً آخرين . ويذكرنا توجيه الأسئلة بطريقة المحاكم الانجليزية حيث يحاول الدفاع باسئلة وقحة محيرة انتزاع الألفاظ من الشهود . وكان أعضاء اللجنة يتولون التحقيق بأنفسهم ، ومنهم ملاك المناجم ومستغلوها ، أما الشهود فمن عمال المناجم وأغلبهم من عمال مناجم الفحم . وهذه المهزلة تمثل روح الرأسمالية ، وسنقدم مقتطفات مرتبة ؛ وأود أن أشير إلى أنه فى الكتب الزرقاء البريطانية يعطى لكل سؤال وجواب رقم . وما نورده أجزاء من شهادة عمال مناجم الفحم .

---

(١) كانت هيئة التفتيش تتكون من مفتشين ، ومساعدين ، ٤١ من صغار المفتشين زاد عددهم ثمانية سنة ١٨٧١ . لم تزد نفقات تنفيذ القانون فى انجلترا واسكتلندا وإرلنده عن ٢٥،٣٤٧ من الجنيهات فى عام ١٨٧١ - ١٨٧٢ بما فى ذلك النفقات القانونية المترتبة على رفع الدعوى على أصحاب الأعمال ممن خالفوا نصوص القانون .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

استخدام الأولاد ما بين العاشرة فما فوقها بالمناجم

يستمر العمل (بما فى ذلك الخروج والعودة) ١٤ ، ١٥ ساعة وأحياناً من ٣ ، ٤ ؛ ٥ صباحاً حتى ٥ر٦ مساء (رقم ٦ ، ٤٥٢ ر٨٣) . ويعمل البالغون نوبتين كل منهما ٨ ساعات. وليس هناك تغيير بالنسبة للأولاد بسبب ما يتكلفه ذلك العمل (٨٠ر٢٠٣ر٢٠٤) . ويقوم الصغار بفتح وإغـــلاق أبواب التهوية . أما من يكبرونهم فيقومون بحمل الفحم الخ (١٢٢ر٧٣٩ر١٧٤٧) . ويظلون فى هذا العمل حتى سن ١٨ أو ٢٢ ثم يبدأون عمل المعدّن بمعناه الصحيح (١٦١) . ومعاملة الأطفال والأحداث أسوأ وأشق من أى فترة مضت (١٦٦٣ - ٦٧) . وهنا يسأل هس فيفيان « ألا يتوقف رأى العامل على فقر الأسرة ؟ » ـ لمستر بروس « لا ترى فى حالة إصابة الوالد أو مرضه أو موته وعدم وجود غير الأم أن من الصعب منع طفل فيما بين ١٢ و ١٤ من أن يكسب ١ شلن ٧ بنس ، فى اليوم للأسرة ؟ .. يجب وضع قاعدة عامة ... هل ترى صدور تشريع يمنع استخدام الأطفال دون سن ١٢ أو ١٤ مهما كانت حالة الوالدين؟ « نعم » (١٠٧ - ١١٠) فيفيان « ... ألا يحتمل ـ إذن ـ أن يبحث الوالدون عن عمل لأطفالهم فى نواح أخرى كالصناعة اليدوية مثلا ؟ » « لا أظن » (١٧٤) كينيرد « يرعى بعض الأولاد الأبواب ، أليس كذلك ؟ » ـ « نعم ـ » « ألا يحدث تيار قوى حين فتح أو إغلاق الباب ؟ » « نعم » . ويبدو ذلك سهلا ولكنه مؤلم حقيقة ؟ » « إنه سجين كما لو كان فى زنزانة » ـــ فيفيان البورجوازى « إذا أعطينا الولد مصباحاً ألا يستطيع القراءة ؟ » « نعم » ـ « أظنه يعد مذنباً إذا وجدوه يقرأ إذ عليه أولا أداء عمله ، ولا أظن إمكان السماح بذلك فى المنجم » (١٣٩ر١٤١ر١٤٣ر١٥٨ر١٦٠) .

التعليم

يطالب عمال المناجم بالتعليم الاجبارى لأطفالهم كما هو الحال بالمصانع . ويعدون مواد قانون ١٨٦٠ وهما لا حقيقة . « هل تطلبون القانون ضد أصحاب العمل أو الوالدين ؟ » أظن ضد الطرفين » ـ « إذن ليس ضد طرف أكثر منه ضد الآخر ؟ » ـ « أكاد لا أستطيع الإجابة عن هذا السؤال » (١١٥ر١١٦) . « هل بأصحاب الأعمال رغبة فى توجه الأطفال للمدرسة ؟ » . لا ، إذ لا تخفض ساعات العمل لهذا الغرض (١٣٧) المستر كينيرد . هل لديك أمثلة عن رجال حسنوا تعليمهم منذ بدأوا العمل ؛ أم أنهم يفقدون ما حصلوه ؟ .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

تسوء حالهم بوجه عام وتتكون فيهم عادات سيئة كالقمار وتناول المسكرات . (٢١١) - هل يقومون بأية محاولة من هذا النوع بإنشاء المدارس ليلا ؟ . - تشمل مناجم قليلة مدارس ليلية ولكن من العبث توجيههم إليها بسبب إعيائهم . (٤٥٤) . إذن أنت ضد التعليم ؟ : لا ... بكل تأكيد ولكن : الخ (٤٤٣) - . ألا تحتم القانون على - أرباب الأعمال - المطالبة بهذه الشهادات المدرسية ؟ . - يطالبهم القانون بذلك ؛ ولكن لا أظنهم يطلبونها . - إذن من رأيك أن هذا النص عاطل فى المناجم : إنه غير نافذ المفعول : (٤٤٣ر٤٤٤) - هل يهتم العمال بمسألة التعليم ؟ . أغلبهم (٧١٧) - . هل بهم رغبة شديدة فى نفاذ القانون ؟ : ترى الأغلبية ذلك . (٧١٨) : هل ترى أى قانون ... لا يصير فعالا إذا عاون الناس على تنفيذه » : - قد يرغب الكثيرون فى الاعتراض على استخدام الولد ولكنهم يصبحون موضع المراقبة » : (٧٢١) - . من جانب ؟ . - الذين يستخدمونه (٧٢٠) - . أتظن أرباب الأعمال يرون ما يدعو للمؤاخذة فى حالة رجل يطيع القانون ؟ ... اعتقد ذلك (٧٢٢) - . هل سمعت عاملا اعترض على استخدام ولد بين سن ١٠و١٢ لا يستطيع القراءة أو الكتابة ؟ - ليس له حق إبداء الرأى . (١٢٣) . هل تطلب تدخل البرلمان ؟ : لا بد من قرار برلمانى ليكون تعليم أولاد المعدنين إلزامياً : (١٦٣٤) - : هل يقع هذا على عاتق المعدنين وحدهم ؟ : إنى أتحدث عن المعدنين فقط . (١٦٣٦) - لماذا نميز بين أولادهم وأولاد الآخرين ؟ لأنهم استثناء للقاعدة (١٦٣٨) - من أية ناحية ؟ من الناحية الجثمانية (١٦٣٩) - لماذا يكون التعليم في حالتهم أكبر قيمة ؟ لا أعرف أنه أكبر قيمة ، ولكن الارهاق لا يجعل لأولاد عمال المناجم فرصة الدراسة فى مدارس الأحد أو المدارس النهارية . (١٦٤٠) - أليس من المستحيل أن تنظر إلى مسألة كهذه بصفة مطلقة ؟ (١٦٤٤) - هل هناك عدد كاف من المدارس ؟ - لا (١٦٤٦) إذا حتمت الدولة إلحاق كل طفل بمدرسة فهل تتوافر المدارس ؟ - إذا جدت الظروف فقد تنشأ المدارس (١٦٤٧) - أظن بعض الأولاد يجهل القراءة والكتابة ؟ - أغلبهم . وكذلك أغلبية الرجال » (٧٠٥ر٧٢٥)

استخدام النساء

منذ سنة ١٨٤٢ اقتصرت النساء على العمل فوق سطح الأرض فى حمل الفحم الخ وجر البراميل إلى الترع وعربات السكك الحديدية ... وزاد عددهم فى السنوات الثلاث أو الأربع الأخيرة (١٧٢٧) وأعمارهم ما بين ١٢ و ٥٠ أو ٦٠ (٦٤٥ ، ١٧٧٩) : « ما شعور المعدنين إزاء تشغيل النساء ؟ - يستنكرون ذلك عموماً (٦٤٨) - « لماذا - لأنه محط لجنسهن » (٦٤٩)

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

« هل ثمت ما يميز الملابس » - إنها أجدر بالرجال وأعتقد أنها أحياناً تطغى على كل شعور بالرقة » « هل تدخن النساء ؟ بعضهن - » - « أعتقد أن هذا عمل قذر ؟ - قذر جداً » - « هل تسود وجوههن ؟ - كالرجال داخل المنجم » - « أعتقد أن المرأة ذات الأولاد تعجز عن القيام بواجبها نحوهم ؟ (٦٥٠ - ٦٥٤) « هل تستطيع أرملة أن تحصل على مثل هذا الأجر (٧-١٠ شلنات في الأسبوع) في مكان آخر ؟ لا أستطيع التحدث عن ذلك » (٧٠٩) - « ولكن هل أنت مستعد لمنعهن عن كسب العيش بهذه الوسائل ؟ - نعم » (٧١٠) « ما الشعور في الجهة ... إزاء استخدام النساء ؟ - إنه محط للكرامة ، وإنا لنود أن ننظر إلى الجنس اللطيف بقدر أكبر من الاحترام بدلا من رؤيته في جوانب المنجم ... وبعض العمل شاق جداً بحيث أن بعض الفتيات يحمل يومياً ما زنته ١٠ أطنان » (١٧١٥-١٧١٧) « هل المشتغلات بالمناجم دون زميلاتهن بالمصانع خلقياً ؟ - قد تكون نسبة الرديئات أعلى قليلا » (١٢٣٧) ولكنك غير راضٍ عن الحالة الأخلاقية بالمصانع ؟ - لا (١٧٣٣) « هل توافق على تحريم استخدام النساء في المصانع أيضاً ؟ لا (١٧٣٤) - ولماذا ؟ أظن العمل بالمصانع أشرف لهن (١٧٣٥) ، ومع هذا ألا تراه ضاراً بأخلاقهن ؟ ، ليس كالحال بالمناجم ، ولكنه أرقى من وجهة المركز الاجتماعي ... هكذا أنظر إلى المسألة وليس من الوجهة الأخلاقية وحدها . إن أثر الانحطاط في الفتيات يدعو إلى الرثاء . وحين تتزوج هذه الفتيات الأربعانة أو الخمسمائة يقاسي المعدنون كثيراً مما يحملهم على هجر بيوتهم والالتجاء إلى الشراب (١٧٣٦) - إذا حرمت استخدام النساء بالمناجم فقد تضطر إلى تطبيق نفس الأمر على معامل الحديد ؟ لا أستطيع التحدث عن مهنة أخرى (هل ثمت اختلاف بين ظروف العمل في معامل الحديد وفوق سطح الأرض في المناجم ؟ - لم أتحقق من الأمر (١٧٤٠) ,, هل ترى ما يدعو إلى التمييز بين طبقة وأخرى ! - لم أتأكد من ذلك ولكن زياراتي للبيوت دلتني على أن الحالة في جهتنا داعية إلى الإشفاق . . ،، (١٧٤١) - ,, هل ترى التدخل حيثما يكون استخدام النساء محطاً للكرامة ؟ ،، - ,, يكون ذلك ضاراً بالطريقة الآتية : لقد تلقى الانجليز أحسن مشاعرهم من تعليم الأم ... (١٧٥٠) - ,, ألا ينطبق هذا على الأعمال الزراعية ؟ نعم ولكن خلال فصلين ونحن نشتغل طيلة الفصول الأربعة ،، (١٧٥١) - ,, إنهم يعملون أحياناً بالليل والنهار وينفذ الماء إلى الجلود وتتحطم البنية والصحة ... لعلك لم تبحث الأمر ؟ لاحظته بكل تأكيد في طريق ، ولكنه لا يعادل نتائج استخدام النساء بالمناجم ... إنه عمل الرجل ، والرجل القوي ،، (١٧٥٢، ١٧٩٣، ١٧٩٤) - ,, إن شعورك ينحصر في أن الطبقة الأحسن من المعدنين تشعر أنها تهبط من الناحية الإنسانية وذلك بسبب الحصول على المساعدة من

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

النساء أليس كذلك ؟ نعم ،، (١٨٠٨) .

وبعد أسئلة من هذا النوع المعوج من جانب هؤلاء البورجوازيين يتكشف أخيراً سر (عطفهم) على الأرامل والأسرات الفقيرة ،، إن صاحب منجم الفحم يعين البعض للاشراف على العمل وهؤلاء سياستهم أن يجرى العمل على أحسن الأسس الاقتصادية حتى ينالوا رضاء مخدومهم ، وهؤلاء الفتيات تتناول الواحدة منهن أجراً قدره شلن وخمس بنسات مقابل شلتين ونصف شلن للرجل ،، (١٨ ٦) .

تحقيقات قاضى التحقيق

هل يثق العمال بالإجراءات المتبعة فى التحقيقات حين وقوع حوادث ! ـ لا ثقة لهم بها (٣٠٦) ـ « ولماذا ؟ ـ لأن من يقومون بها لا يدرون شيئاً عن المناجم وأمثالها ، ـ « ألا يجلس العمال مطلقاً فى هيئة المحلفين ؟ مبلغ علمى أنهم لم يظهروا إلا كشهود » ـ « من يدعون عادة لتكوين هيئة المحلفين ؟ تجار بالجهة المجاورة ... يقعون أحياناً تحت تأثير مخدومهم بحكم ظروفهم ـ أصحاب المصانع وهؤلاء لا تتوافر لهم الدراية الكافية ويكادون لا يفهمون الشهود والاصطلاحات التى تستعمل الخ » ـــ « هل ترى تأليف هيئة المحلفين ممن سبق لهم العمل فى صناعة التعدين ؟ ـ نعم إذ من جهة ... يظن (العمال) أن الحكم لا يتفق بوجه عام مع الشهادة التى يدلون بها » (٣٦١،٣٦٤،٣٦٦،٣٧١،٣٧٥) ـــ « إن الغرض العظيم من استدعاء محلف هو الحصول على شخص محايد ، أليس كذلك ؟ أظن ذلك ـــ « هل يتوافر عدم التحيز إذا كانت الأغلبية من العمال ؟ ـ لا أرى ما يحمل العمال على التحيز .. إنهم أدرى بالعمليات المتصلة بالمنجم » « إذن لا تظن هناك ميلا من جانب العمال لإصدار أحكام قاسية ؟ ـــ لا أرى ذلك » (٣٧٨،٣٧٩،٣٨٠) .

الأوزان والمقاييس المغشوشة

يطالب العمال بدفع الأجر كل أسبوع بدلا من كل أسبوعين ، وبالوزن بدلا من المحتويات المكعبة فى البراميل ، ويطلبون حمايتهم من استعمال الأوزان المغشوشة الخ (١٠٧١) . « اذا زيتت البراميل بالقش أليس فى إمكان الرجل الانقطاع عن العمل بواسطة إنذار بذلك قبل الانقطاع بأربعة عشر يوماً ؟ ولكن إذا ذهب لمكان آخر وجد نفس الشىء » (١٠٧١) « ألا

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

يستطيع مغادرة المكان الذى ارتكب فيه الخطأ ؟ هذا الخطأ عام ، وأينما يتوجه عليه أن يخضع له » (١٠٧٢) « هل يستطيع أى رجل أن يترك العمل بإنذار يقدمه قبل الموعد بأربعة عشر يوماً ؟ — نعم » (١٠٧٣) ومع ذلك فهم غير راضين !

التفتيش على المناجم

ليست الإصابات الناجمة عن حوادث الانفجار هى وحدها الأخطار التى يتعرض لها العمال (رقم ٢٣٤ وما بعده) بل إنهم يشكون كثيراً من سوء التهوية مما يؤذيهم ويؤدى إلى انقطاعهم عن العمل وعدم صلاحيتهم بعد حين لمزاولته ، وهم لا يجرأون على الشكوى للمفتش خشية أن يفقدوا عملهم ولا يستطيعون الحصول على سواه . أما عن التفتيش فقد قال الشاهد إن عدد المفتشين قليل جداً بحيث أن المنجم الذى يشتغل فيه لم ينزل فيه مفتش إلا مرة واحدة خلال سبع سنوات ، وقال إن بجهتهم مفتشا تزيد سنه عن السبعين وعليه أن يفتش على ١٣٠ منجماً . « هل ترغب فى وجود طبقة من المفتشين المساعدين ؟ — نعم » (أرقام ١٠٢٢٤ ، ٢٥١٠٢٤ ، ٢٧٤٠٢٧٥ ، ٢٧٦٠٢٩٣) . ولما سئل إذا كان يرى فى إمكان الحكومة الانفاق على مثل هـذا الجيش الكبير من المفتشين أجاب بإستحالة ذلك . « ألا ترى أن كثرة زيارات المفتشين معناها نقل نقل مسئولية (؟) التهوية الصحيحة من أرباب المناجم إلى موظفى الحكومة ؟ — لا أظن ذلك ، وأرى أن عليهم تنفيذ القوانين القائمة » (١٨٥) . « حين تتحدث عن المفتشين المساعدين هل تقصد طبقة أدنى أجراً ودرجة ؟ » فكان الجواب بالنفى وأن الغرض إيجاد المفتش الكفء الذى يعرف واجبه ولا يخشى شيئاً (٢٩٤٠٢٩٥) . « إذا وجدت هذه الطبقة من رجال أقل درجة أليس من خطر ينجم عن نقص المهارة والكفاية الخ ؟ — أظن أن على الحكومة أن تنتقى الأفراد الصالحين » (٢٩٧) . وهنا ينفد صبر رئيس اللجنة من هذا الضرب من الأسئلة بحيث أنه يتدخل قائلا « إنك تريد قوماً يفهمون دقائق العمل ويتوجهون إلى كل مكان ثم يرفعون تقاريرهم إلى المفتش الرئيسى الذى يعالج الحقائق التى يوردونها بمعرفته ومعلوماته » (١٩٩٠٢٩٨) . ولما قيل للشاهد إن تهوية هذه الاماكن القديمة الكثيرة العدد عمل ينطوى على نفقات كثيرة أجاب « ولكن يجب فى الوقت نفسه حماية الأرواح » (٥٣١) . واعترض أحد عمال المناجم على القسم السابع عشر من قانون سنة ١٨٦٠ قائلا « إذا وجد المفتش الآن جانباً من المنجم غير صالح كتب بذلك إلى صاحب المنجم وإلى وزير الداخلية . بعد ذلك تتاح للأول فرصة ٢٠ يوماً ليتدبر الأمر وفى نهايتها له أن يرفض إجراء أى تغيير فى المنجم ولكنه

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

يكتب بذلك إلى وزير الداخلية ويعين فى الوقت نفسه خمسة مهندسين يختار الوزير أحدهم ليكون حكماً ، وأرى فى هذه الحالة أن صاحب المنجم نفسه هو الذى يعين الحكم » (٥٨١) . وهنا تتوالى الأسئلة من المحقق البورجوازى « إذن رأيك ضعيف فى نزاهة المهندسين ؟ — هذا بكل تأكيد بعيد عن الحق (٥٨٢) » وألا ترى أن المهندسين من ذوى الصبغة العامة مما يجعلهم فوق مستوى شبهة التحيز ؟ لا أريد الإجابة عن هذا السؤال فيما يختص بصفتهم الشخصية . إنى أعتقد أنهم يتحيزون فى حالات كثيرة ويجب ألا يترك الأمر فى أيديهم إذا ما تعلق بحياة الناس » (٥٨٩) . ونفس هذا البورجوازى لا يخجل من توجيه السؤال التالى « ألا ترى أن صاحب المصنع يخسر بسبب الانفجار ؟ » وأخيراً « ألا تستطيعون ياعمال لانكشير أن ترعوا مصالحكم دون طلب مساعدة الحكومة لكم؟ — لا » (١٠٤٢) .

فى سنة ١٨٦٥ كان ببريطانيا العظمى ٣٢١٧ من مناجم الفحم و ١٢ مفتشاً وفى خطاب بعث به أحد أصحاب المناجم فى يوركشير إلى صحيفة التيمس ذكر أنه بغض النظر عن كون العمل الكتانى يستوعب جانباً كبيراً من وقت المفتشين فان من غير الممكن أن يتوجه المفتشون لزيارة كل منجم إلا مرة كل عشر سنوات . ونكاد لا ندهش إذن أننا نجد فى السنوات الحديثة وبخاصة فى عامى ١٨٦٦ ، ١٨٦٧ زيادة مطردة فى عدد وقوة كوارث المناجم مما يؤدى أحياناً إلى التضحية بعدد يتراوح بين ٢٠٠ ، ٣٠٠ من المعدنين دفعة واحدة . هذه هى ,, مظاهر الجمال ،، التى يتصف بها الإنتاج الرأسمالى ,, الحر ،، !

وبرغم هذا فقانون سنة ١٨٧٢ ، برغم مابه نقص ، أول قانون لتنظيم ساعات العمل للأطفال فى المناجم ، وأول قانون يجعل المستغلين وأصحاب المناجم مسئولين بدرجات متفاوتة عن الحوادث .

وقد ظهرت تقارير هامة جداً وضعتها اللجنة الملكية التى تألفت سنة ١٨٦٧ للتحقيق فى مسائل استخدام الأطفال والأحداث والنساء فى العمل الزراعى . وقد حدثت محاولات عدة لتطبيق مبادىء تشريع المصانع فى صورة معدلة على الزراعة ولكن أخفقت هذه المحاولات تماماً . ومع ذلك فالذى أود أن ألفت النظر إليه هنا هو وجود ميل لا يمكن مقاومته نحو التطبيق العام لهذه المبادىء .

لقد صار من المحتوم تعميم تشريع المصانع بقصد كفالة الحماية الجثمانية والعقلية للطبقة العاملة . وإلى جانب هذا عمّ تحويل عمليات العمل المتناثرة الصغيرة المدى إلى عمليات عمل

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

متحدة تجرى على نطاق واسع (أى على نطاق اجتماعى) ينطوى على تركيز رأس المال وأوتوقراطية نظام المصنع . هذه التغييرات ينجم عنها دمار كافة الأشكال العتيقة والانتقالية التى يختفى فيها سلطان رأس المال إلى حد ما بحيث تصبح سيطرة رأس المال الآن مباشرة وظاهرة . ولكن فى الوقت نفسه نجد أن تعميم تشريع المصانع يعمم النضال المباشر ضد السيطرة الرأسمالية ذلك أنه إلى جانب فرض الانسجام والانتظام والنظام والاقتصاد فى الورشة الفردية عن طريق تحديد وتنظيم ساعات العمل وتنمية التقدم الفنى ، فإنه يزيد فى الوقت ذاته من فوضى الإنتاج الراسمالى ويضاعف من نكباته ، ويزيد من حدة العمل ومن المنافسة بين الآلات والعامل . وفى مجال الصناعة الصغيرة والصناعة المنزلية يعمل تعميم تشريع المصانع على تحطيم آخر ملاجىء « السكان الفائضين عن الحاجة » ، وبذا يقضى على صمام الأمان الوحيد الباقى فى الجهاز الاجتماعى كله . وإذ يعل على نضوج أحوال الإنتاج المادية والارتباطات الاجتماعية لعملية العمل ، فإنه ينمى المتناقضات ونواحى التعارض التى يتميز بها الشكل الرأسمالى فى الإنتاج ؛ وبذا يهىء فى الوقت نفسه العوامل التى تميل إلى إحداث انقلاب فى المجتمع القديم والعوامل التى تميل إلى بناء مجتمع جديد[1] .

١٠ — الصناعة الكبيرة والزراعة

ندع وصف الانقلاب الذى أحدثته الصناعة الكبيرة فى الزراعة وفى العلاقات الاجتماعية للمشتغلين بالإنتاج الزراعى إلى مرحلة متأخرة من هذا البحث ، ولكنا نكتفى الآن بالإشارة إلى بضع من نتائج ذلك الإنقلاب . إذا كان استخدام الآلات فى الزراعة لايخلو من المساوىء الجثمانية بالنسبة للعامل والتى يتميز بها استخدامها فى المصانع [2] إلا أن الأثر المترتب على

---

(١) كان روبرت أون — مؤسس المصانع والمخازن التعاونية — أبعد عن أن يشارك أتباعه فى أوهامهم بصدد مغزى عوامل التحويل هذه ، ولهذا لم يقتصر أمره على أن يبدأ فى تجاربه من نظام المصانع بل إنه أعلن أن هذا النظام نقطة ابتداء الانقلاب الاجتماعى وذلك من الناحية النظرية . ويبدو أن الدكتور Vissering أستاذ الاقتصاد السياسى فى جامعة ليدن قد ساورته الشكوك من ناحية هذا الأمر حيث نجد أنه يحذر بشدة الحرف اليدوية إزاء نظام المصانع ، وذلك فى كتابه Handbok van praktische Staat huishau dkunde الذى كرر فيه إيراد سخافات وبسائط الاقتصاد العامى الدارج .

(٢) تجد وصفاً دقيقاً للآلات المستعملة فى الزراعة البريطانية فى كتاب Die landwirthscaftlichen Gerathe und Maschinen Englands تأليف الدكتور هام (Hamm) « الطبعة الثانية ، ١٨٥٦ » . ولكن العرض الذى يقدمه لنا الدكتور هام عن تطور الزراعية البريطانية بعيد عن روح النقد وذلك من حيث أنه يتبع —

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

الآلات من حيث حلولها محل العمال يكون أعظم وضوحاً ويلقى مقاومة أقل درجة كما سنرى تفصيل ذلك فيما بعد . مثال ذلك أنه بينما زادت مساحة الأرض المزروعة إلى حد كبير فى مقاطعتى كمبردج وسفوك خلال العقدين الأخيرين فقد اقترنت هذه الزيادة بنقص فى عدد السكان من الوجهتين النسبية والمطلقة . ويحدث أحياناً بالولايات المتحدة الأمريكية أن تحل الآلات الزراعية محل العمال من الناحية الفعلية وليس بصفة مطلقة ، ومعنى هذا أنها تجعل فى مكنة المنتج أن يزرع مساحة أكبر عن ذى قبل مع بقاء استخدام نفس العدد من العمال . وفى انجلترا وويلز كان عدد الأشخاص المشتغلين بعمل الآلات الزراعية ١٠٣٤ فى سنة ١٨٦١ وذلك فى الوقت الذى بلغ فيه عدد العمال الزراعيين الذين يستخدمون فعلا الآلات البخارية وآلات التشغيل ١٢٠٥ فقط .

وأعظم أثر انقلابى تحدثه الصناعة الكبيرة فى ميدان الزراعة أنها تحطم الحاجز الذى يحمى المجتمع القديم ويراد بذلك الفلاح Peasant إذ يحل محله عامل أجير . وبهذه الطريقة ينشأ التعادل بين التحولات الاجتماعية ونواحى التعارض بكل من الريف والمدينة . فتحل الأساليب العلمية القائمة على أساس التقدم الفنى محل الأساليب العتيقة غير الرشيدة فى الزراعة . كما أن الأسلوب الرأسمالى فى الانتاج يفصل تماماً صلة الاتحاد التى كانت قائمة بين الزراعة والصناعة اليدوية وهما اللتان كانتا مرتبطتين إذ كانتا فى عهد طفولتهما ، كما أن هذا الأسلوب الرأسمالى يعمل فى الوقت نفسه على خلق الشروط والأحوال المادية اللازمة لقيام التآلف والتوافق بين الزراعة والصناعة (الآلية) . فمع اطراد غلبة الفريق من السكان المتجمع فى المراكز العظمى يعمل الإنتاج الرأسمالى من جهة على زيادة حركة (مرونة) المجتمع ، بينما يحطم من جهة أخرى تبادل المادة بين الانسان والتربة ، ومعنى هذا أن تعود الى التربة عناصرها المكونة لها والتى تستخدمها المخلوقات الآدمية على هيئة غذاء وكساء — وهذه العودة الشرط الطبيعى الذى لابد منه للابقاء على خصوبة التربة . وهكذا تراه فى نفس الوقت عاملا على تحطيم صحة عامل المدينة من الوجهة الجثمانية ، والرخاء العقلى للعامل الزراعى[1] . ولكن بينما يحطم هذا النظام الطبيعى

= خطوات المسيو Léonce de Lavergne

(١) ,, إنك تقسم الناس إلى معسكرين متعاديين من مردة فظة وأقزام سليبة الرجولة يا للسماء ! شعب مقسم إلى مصالح زراعية وتجارية يدعو نفسه شعباً عاقلا ، لا بل يتراءى له أنه مستنير ومتحضر ، لا برغم هذا الانقسام الفظيع وغير الطبيعى فحسب بل ونتيجة له ،، دافيد اركهارت ، مصدر سابق ص ١١٩ — ترينا هذه الفقرة مدى القوة والضعف فى مثل هذا الأسلوب النقدى الذى يستطيع أن يحكم على الحاضر ويستنكره بينما يعجز فى الوقت ذاته عن إدراك معناه وفهمه .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

والمتطور بصفة تلقائية لتداول المادة من التربة إلى الآدميين ومن الأخيرين إلى التربة ، فانه يتطلب عودة مثل هذا التداول بصفته قانوناً ينظم الإنتاج الاجتماعى ، وتكون العودة على شكل ملائم للتقدم الكامل للجنس البشرى . ففى الزراعة كما فى الصناعة اليدوية تجد أن تحول عملية الإنتاج إلى الطابع الرأسمالى يتضمن فى الوقت ذاته معنى استشهاد المنتج ، وتصبح أداة العمل الوسيلة لإخضاع العامل واستغلاله وإفقاره ، وبؤدى التنظيم الاجتماعى لعملية العمل وظيفة كونها وسيلة جيدة لسحق حيوية العامل وحريته واستقلاله الفردية . فتفرق العمال الزراعيين فى مساحات واسعة يحطم قواهم على المقاومة فى الوقت الذى يعمل فيه التركز على زيادة قوى عمال المدن فى هذه الناحية . فى الزراعة الحديثة وفى صناعة المدن يتم شراء زيادة إنتاجية العمل ومرونته على حساب تدمير قوة العمل وجعلها فريسة للمرض . وفضلا عن هذا فكل تقدم فى الزراعة الرأسمالية تقدم فى فن سلب العامل والتربة على حد سواء ، وكل تقدم فى خصوبة التربة خلال فترة معلومة من الوقت معناها فى الوقت نفسه تقدم نحو دمار المصادر الدائمة لهذه الخصوبة . وكلما عظم مدى ميل البلد نحو بدأ تطوره على أساس الصناعة الكبيرة (كما تفعل الولايات المتحدة مثلا) زادت سرعة عملية التدمير هذه[1]. وعلى ذلك فالإنتاج

---

(١) Liebig : Die Chemie in ihrer Anwendung auf Agricultur und Physiologie الطبعة السابعة ، ١٨٦٢ ، وبخاصة فى المجلد الأول Introduction to the Natural Laws of Agriculture ومن أجل الخدمات الخالدة التى أسداها ليبيج أنه أوضح المظاهر السلبية أو المدمرة للزراعة الحديثة وأنه فعل ذلك من وجهة نظر العلوم الطبيعية . والوصف التاريخى الذى قدمه لنا عن تقدم الزراعة يلقى ضوءاً كبيراً على الموضوع وإن لم يخل هذا العرض من أخطاء خطيرة . ومما يدعو للاسف أن نجد لديه أقوالا كالآتية ,, وتحطيم التربة بطريقة أفعل وبالاكثار من الحرث يسهل تسرب الهواء فى داخل التربة المسامية ويزداد تعرض السطح لفعل الجو ، إلا أنه من السهل أن نرى أن الزيادة فى غلة الأرض لا يمكن أن تتناسب مع العمل المبذول فى تلك الأرض إذ الأولى أقل بكثير من الثانى ،، ثم يضيف ليبيج إلى ما تقدم قوله « كان جون ستيوارت مل أول من صاغ هذا القانون والعبارة الآتية فى كتابه (مبادىء الاقتصاد السياسى حـ ١ ص ١٧) : والقانون العام لحرفة الزراعة ينحصر فى أن ناتج الأرض يزداد بنسبة متناقصة وذلك بالقياس إلى زيادة العمال المستخدمين وهذا إذا تساوت الأشياء الأخرى . ــ هذه العبارة ذات أهمية نظراً لأن مل كان يجهل السبب فى هـــذا القانون » (ليبيج المصدر السابق حـ ١ ص ١٤٣ والحاشية). وجدير بنا أن نذكر أن مل فى الفقرة التى اقتبسها ليبيج قد أخطأ فى صياغة القانون الذى ابتدعته مدرسة ريكاردو ذلك أنه لما كان ,, النقص فى العمال المستخدمين ،، يتمشى فى انجلترا مع تقدم الزراعة فان هذا القانون الذى تم كشفه فى انجلترا وقيل إنه صالح فى حالتها لا يمكن أن ينطبق على ذلك البلد فى كافة الأحوال والظروف ـــ ولكن بصرف النظر عن تفسير ليبيج الخاطىء لكلمة «عامل» labourer وهى الكلمة التى تدل فى نظره على معنى يخالف ما يراه الاقتصاد السياسى ، فمن المؤكد أنه ،لأمر بارز جداً، أن نراه يعزو إلى المستر جون ستيوارت ==

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

الرأسمالى لا يستطيع تنمية فن واتحاد عملية الإنتاج الاجتماعية إلا اذا قوض فى الوقت نفسه أسس جميع الثروة — أى الأرض والعمال .

=مل نظرية أعلنها جيمس أندرسون لأول مرة فى أيام آدم سميث وترددت فى مؤلفات مختلفة حتى بداية القرن التاسع عشر ، وهى نظرية نجد أن مالثس الأستاذ فى فن السرقة الأدبية (ونظريته عن السكان سرقة أدبية لاحياء نيما) قد أضافها إلى نفسه سنة ١٨١٥ ، وهى نظرية وصل إليها وست فى نفس الوقت الذى نشرها فيه اندرسن ومستقلا عنه ، ونظرية ربطها ريكاردو سنة ١٨١٧ بنظريته العامة عن القيمة ثم دارت فى العالم على أنها ,, نظرية ريكاردو ،، ثم عممها فى سنة ١٨٢٠ جيمس مل والد جون ستيوارت مل ، وأخيراً كررها جون ستيوارت مل وسواء على أنها نظرية مألوفة لطلاب المدارس . وإلى مثل هذه الأمور ترجع شهرة جون ستيوارت مل ,, البارزة ،، ومركزه وسمعته

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

بعض أخطاء الطباعة

نوردهنا بعض أخطاء الطباعة معتذرين عن غيرهامما لا يخفى أمره على فطنة القارىء

صفحة	السطر	إقرأ
١٢	٢	المتزايدة
١٨	١٣	أو رداء واحد = ٢٠ ياردة
٣٠	٥	لا تجد
٣١	٢٣	وهى التيل
٣٥	٢٢	وهذه الصفة لا انفصال
٣٩	١٩	من صلاة
٤١	١٢	على سبيل التنويع
٤٣	٦	كما يقاس
٨١	٢٣	يقل حدوث
٨٨	٧	دون حد أدنى
٨٨	١٣	مجارى العملة
٨٧	٨	غير القابل للتحويل
٩٦	٢٧	ففى العملية
١١٦	١١	إذا استثنينا
١٤١	٢٢	ومنذ اللحظة
١٥٤	٢	من متوسط
١٥٨	١٤	مجرد الصورة
١٦٠	٦	تحسب بكليتها
١٧٣	١٥	ورأس المال
١٩٥	٢١	أن يتعرض
٢٠٢	١٦	أمر غير
٢٦٧	٢٠	ثمن سلعه
٢٨١	٢٠	لا يبدوان
٢٨٢	٢١	لعملية العمل
٢٩٢	٥	من أجزاء
٣٩٢	١١	وفيها يتعاون
٣٠٣	٥	الى القول
٣٣٥	٢٣	فانها أقل
٣٤٢	١٤	على أن يصرّ
٣٤٢	١٨	من القانون
٣٤٥	٥	استبداد
٣٤٧	٩	تتحدد
٣٤٨	١٥	النفع إذ يغادر أى من رجالنا المصنع لحظة واحدة ؟
٣٥٤	٩	بتشهيل
٣٧٩	٢٣	فى أول الأمر
٤٣٧	١٠	واذ يعمل

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

رأس المال

DAS KAPITAL

تأليف

كارل ماركس

ترجمة

دكتور راشد البراوي

كلية التجارة — جامعة فؤاد الأول

الجزء الثاني

الناشر

مكتبة النهضة المصرية

٩ شارع عدلي باشا بالقاهرة

١٣٦٦ هـ — ١٩٤٧ م

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

مطبعة الاعتماد بمصر

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

هذا هو الجزء الثانى من « رأس المال » آثرنا إصداره مع الجزء الأول حتى يكون البحث بأكمله أمام القارىء الذى يتسنى له إذ ذاك الإلمام بأطراف الموضوع .

ونرى لزاماً علينا أن نتقدم بالشكر إلى المعاونة القيمة التى أسدتها إلينا « مطبعة الاعتماد » وما بذله حضرات صاحبها وموظفيها وعمالها من جهد حتى تم إخراج الجزء الثانى فى هذا الثوب القشيب .

القاهرة فى يناير سنة ١٩٤٧

راشد البراوى

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

محتويات الجزء الثانى

الباب الخامس

إنتاج فائض القيمة المطلق وفائض القيمة النسبي

صفحه

الفصل الرابع عشر — فائض القيمة المطلق والنسبي . . . . ١ — ١١

الفصل الخامس عشر — تغيرات الحجم فى ثمن قوة العمل وفى فائض القيمة . . . . . ١٢ — ٢٢

(١) ثبات طول يوم العمل وحدّة العمل وتغير إنتاجية العمل ١٣ —

(٢) طول يوم العمل وإنتاجية العمل ثابتان ، وحدة العمل متغيرة ١٧

(٣) ثبات إنتاجية وحدة العمل ، وتغير طول يوم العمل . ١٨

(٤) تغيرات حادثة فى نفس الوقت فى وقت العمل وإنتاجيته وحدته ٢٠

الفصل السادس عشر — الصيغ المختلفة لمعدل فائض القيمة . . ٢٣ — ٢٦

الباب السادس

الأجور

الفصل السابع عشر — تحويل قيمة أو ثمن قوة العمل الى أجور . ٢٧ — ٣٤

الفصل الثامن عشر — رفع الأجور حسب نظام الوقت . . ٣٥ — ٤١

الفصل التاسع عشر — رفع الأجور حسب نظام القطعة (الوحدة) ٤٢ — ٤٩

الفصل العشرون — الفوارق القومية فى الأجور . . . . . ٥٠ — ٥٤

الباب السابع

تجميع رأس المال

اعتبارات عامة . . . . . ٥٥ — ٥٦

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

صفحة

الفصل الحادى والعشرون — **الإنتاج البسيط والمتجدد** . . . ٥٧—٦٩

الفصل الثانى والعشرون — **تحويل فائض القيمة الى رأس مال** ٧٩—٩٩

(١) الإنتاج الرأسمالى على نطاق متزايد تزايدا تصاعدياً — تحول قوانين الملكية التى تميز إنتاج السلع إلى قوانين الامتلاك الرأسمالى ٧٠

(٢) فكرة رجال الاقتصاد السياسى الخاطئة عن الإنتاج المتجدد على نطاق متزايد تزايداً تصاعدياً ٧٨

(٣) تقسيم فائض القيمة إلى رأس مال وإيراد ـ نظرية الامتناع ٨١

(٤) الظروف التى تعين مدى التجميع بغض النظر عن النسب التى بها تنقسم القيمة الفائضة إلى رأس مال وإيراد : درجة استغلال قوة العمل — إنتاجية العمل — ازدياد الفارق فى المقدار بين رأس المال المستثمر ورأس المال المستهلك — مقدار رأس المال الذى يقدم ٨٧

(٥) ما يقال له رصيد الأجور ٩٦

الفصل الثالث والعشرون — **القانون العام للتجميع الرأسمالى** ١٠٠—١٨٠

(١) ما يصحب التجميع من ازدياد الطلب على قوة العمل مع بقاء تركيب رأس المال كما هو ١٠٠

(٢) التناقص النسبى فى الجزء المتغير من رأس المال كلما زاد تقدم التجميع وما يصحبه من تركز ١٠٧

(٣) الإنتاج المتزايد (التصاعدى) لجيش العمل الإحتياطى ١١٤

(٤) الأشكال المختلفة لفائض السكان النسبى — القانون العام للتجميع الرأسمالى ١٢٤

(٥) أمثلة عن القانون العام للتجميع الرأسمالى ١٣٠

ا — انجلترا من ١٨٤٦ إلى ١٨٦٦ . . . . . ١٣٠

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

صفحة

ب — الطوائف التى تتناول أحط الأجور بين صفوف العمال الصناعيين فى بريطانيا ١٣٦
حـ — الفريق الرحّل (المتنقل) من السكان ١٤٢
ى — تأثير الأزمات على الفريق الأحسن أجراً من الطبقة العاملة ١٤٦
هـ — البروليتاريا الزراعية البريطانية ١٥٠
و — إرلنده ١٦٨

الفصل الرابع والعشرون — التجميع الأولى . . . . . ١٨١ — ٢٢٥
(١) سر التجميع الأولى ١٨١
(٢) سلب أملاك أهل الريف وفصلهم عن التربة ١٨٣
(٣) التشريع الوحشى ضد الذين نزعت أملاكهم منذ ختام القرن الخامس عشر — القوانين البريطانية الصادرة بقصد خفض الأجور ١٩٩
(٤) نشأة المزارع الرأسمالى ٢٠٦
(٥) رد الفعل الناجم من الإنقلاب الزراعى على الصناعة . قيام السوق المحلية لرس المالى الصناعى ٢٠٩
(٦) أصل الرأسمالى الصناعى ٢١٣
(٧) الاتجاه التاريخى للتجميع الرأسمالى ٢٢٣

الفصل الخامس والعشرون — النظرية الحديثة فى الاستعمار . . ٢٢٦ — ٢٣٤

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

الباب الخامس

انتاج فائض القيمة المطلق وفائض القيمة النسبي

الفصل الرابع عشر

فائض القيمة المطلق والنسبي

بدأنا فى (الفصل الخامس) ببحث عملية العمل من وجهتها المجردة مستقلة عن أشكالها التاريخية ، على أنها عملية مستمرة جارية بين الإنسان والطبيعة . وقلنا إذ ذاك : لو نظرنا إلى عملية العمل كلها من وجهة نظر نتيجتها أى المنتج فإن كلا وسائل العمل والشيء الذى يقع عليه العمل تتخذ مظهر وسائل إنتاج ، كما يتخذ العمل ذاته مظهر عمل منتج ، وفى حاشية لذلك توسعنا بقولنا « إن هذه الطريقة فى تعريف العمل المنتج ، أى تعريفه من وجهة نظر عملية العمل وحدها ، لاتلائم مطلقا الشكل الر - الإنتاج . ويتعين أن نزيد الأمر بحثاً الآن .

بقدر ماتكون عملية العمل عملية فردية صرفة فإن العامل يجمع فى شخصه كافة الوظائف التى تصبح فيما بعد منفصلة . ففى حالة مايخصص لنفسه الأشياء الطبيعية اللازمة لشؤون حياته ومعيشته فانه يتولى إدارة أموره بنفسه . ولكنه بعد ذلك يقع تحت إشراف الآخرين . إن الانسان بمفرده لايستطيع أن يشتغل فيما تهيئه له الطبيعة إلا بعضلاته ومجهودها تحت إشراف عقله . وكما أنه فى نظام الطبيعة يلتمى كل من الرأس واليد إلى الآخر فلذلك يتحد العمل العقلى والعمل اليدوى فى عملية العمل . ثم يحدث بعد ذلك أن يصيرا منفصلين بل ويصل الأمر بهما إلى أن يكونا عدوين لدودين . ويمكن القول إجمالا بأن المنتج يتحول من حالة كونه ثمرة مباشرة لعمل المنتج الفردى ويصير منتجاً اجتماعياً أى المنتج المشترك لعامل جماعى ويراد بهذا الأخير هيئة العمال المتحدة والتى تقوم عناصرها المفردة بإعداد الشيء الواقع عليه العمل وذلك بدرجات متفاوتة . وإذ تتسع الصبغة التعاونية لعملية العمل يحدث بالضرورة توسع

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

مماثل فى النظرة إلى العمل المنتج والنظرة إلى الشخص الذى يؤديه أى العامل المنتج . ولكى يؤدى العامل العمل بطريقة منتجة ليس من الضرورى أن يكون هو الذى يقوم بالعمل ، بل يكفى أن يكون عضواً من أعضاء العامل الجماعى يقوم بإداء إحدى وظائف العامل الجماعى الثانوية . والتعريف الأولىّ السابق للعمل المنتج كما استخلصناه من نفس طبيعة الإنتاج المادى ، يصدق دائماً بالنسبة للعامل الجماعى إذا نظرنا إليه ككل . ولكنه لا يصدق بالنسبة إلى عناصر ذلك العامل إذا أخذناها من الناحية الجمعية .

ومن جهة أخرى تضيق النظرة إلى العمل المنتج ، فالإنتاج الرأسمالى ليس مجرد إنتاج للسلع ، ولكنه إنتاج لشىء أكثر من هذا . فهو فى أساسه إنتاج لفائض القيمة . والعامل لا ينتج لنفسه ، وإنما ينتج لرأس المال . وعلى ذلك لا يكفى اقتصاره على الانتاج ، بل لا بد له من إنتاج فائض القيمة . فالعامل الآن « لا يعد منتجاً » إلا إذا أنتج فائض قيمة للرأسمالى وبذا ساعد على التوسع الذاتى لرأس المال . وإذا سمح لى أن أضرب مثلا خارج مجال الإنتاج المادى لقلت إن المعلم يعتبر عاملا منتجا إذا كان يكد لإثراء صاحب المدرسة ، إلى جانب ما يقوم به من عمل لتحسين مستوى ذكاء طلابه . وسواء استثمر صاحب رأس المال ماله فى مدرسته أو فى مصنع صلصة فان هذا لا يغير شيئا من الموضوع الأساسى . وعلى ذلك فنظرية العامل المنتج لا تنطوى فقط على علاقة بين العمل والمنتَج النافع ، أى بين العامل وثمرة عمله ، وإنما تتضمن علاقة إنتاج اجتماعية خاصة وهى العلاقة التى ظهرت إلى عالم الوجود خلال عملية تاريخية والتى بفضلها يوصف العامل بأنه وسيلة مباشرة تعمل على ازدياد التوسع الذاتى لرأس المال ، وعلى ذلك ليس من حسن الحظ أن يكون المرء عاملا منتجاً بل قد يكون هذا الأمر نكبة . وحين نناقش تاريخ نظرية فائض القيمة فى الكتاب الرابع من هذا المؤلف سنرى بقدر أكبر من الوضوح والجلاء أن الاقتصاد السياسى الكلاسيكى ظل ينظر إلى إنتاج فائض القيمة على أنه الصفة التى تميز العامل المنتِج ، ولهذا يختلف تعريفه للعامل المنتج تبعاً لنظريته عن طبيعة فائض القيمة . وهكذا نرى الطبيعيين يصرحون بأن العمل الزراعى هو النوع الوحيد من العمل المنتج ولذا يعدونه النوع الوحيد من العمل الذى ينتج فائض القيمة . وحسب رأيهم لا يوجد فائض القيمة إلا على هيئة ريع الأرض . وإنتاج فائض القيمة معناه أن نطيل يوم العمل إلى ما بعد الحد اللازم للعامل كى ينتج خلاله مقداراً معادلا لما يملك من قوة العمل ، وبعد ذلك يستولى صاحب رأس المال على فائض القيمة هذا . فهو الأساس العام الذى يقوم عليه النظام الرأسمالى ، ونقطة الابتداء فى

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

إنتاج فائض القيمة النسبي . والأخير يفترض مقدما انقسام يوم العمل إلى قسمين : العمل الضرورى والعمل الفائض . وكى يمكن زيادة فترة العمل الفائض لا بد من تقصير فترة العمل الضرورى بوسائل تجعل فى الامكان إنتاج المعادل لأجر العمل فى وقت أقصر . ان إنتاج فائض القيمة المطلق يتوقف فقط على طول يوم العمل ، أما إنتاج فائض القيمة النسبي فإنه يحدث انقلاباً فى عملية العمل الفنية وفى الطريقة التى ينقسم بها المجتمع إلى مجموعات فرعية .

وعلى ذلك فهو يفترض طريقة رأسمالية خاصة فى الإنتاج ، وهى طريقة تعمل بالإضافة إلى وسائلها وأدواتها وأحوالها ، على أن تنمو نمواً تلقائياً على ذلك الأساس الذى يكوّنه خضوع العمل خضوعاً شكلياً لرأس المال . وفى خلال هذا النمو يصبح ما كان خضوعا شكلياً لرأس المال خضوعاً فعلياً .

ويكفى أن نشير إشارة عابرة إلى أشكال متوسطة معينة ، وهى أشكال لايستخلص فيها فائض العمل من المنتج بالقهر المباشر ، وفيها لم يتم خضوع العمل خضوعاشكليا لرأس المال . وفى هذه الحالات لم يحز رأس المال بعد سيطرة مباشرة على عملية العمل . فإلى جانب المنتجين المستقلين الذين يمارسون الحرف اليدوية أو يفلحون الأرض وفق الوسائل التقليدية ، يقف المرابى برأس ماله الربوى والتاجر برأس ماله التجارى يعيشان كالخلوق الطفيلى على المنتجين . وغلبة هذا الشكل من الاستغلال فى أى مجتمع يستبعد وجود الأسلوب الرأسمالى فى الإنتاج ، وإن كان مرحلة انتقال إلى هذا الأسلوب كما حدث فى العهد الأخير من العصور الوسطى ، وأخيراً ، وكما يتمثل فى الصناعة المنزلية الحديثة ، قد تتولد أشكال انتقالية معينة هنا وهناك على أساس من الصناعة الكبيرة وإن كان ذلك فى صورة معدلة تعديلا كبيراً . وخضوع العمل لرأس المال خضوعاً شكليا بحتا يكفى لإنتاج فائض القيمة المطلق ومثال ذلك أنه يكفى فى حالة أهل الحرف اليدوية الذين اعتادوا العمل لحسابهم أو كصبيان لمعلمين ، أن يصبحوا عمالا أجراء تحت الإشراف المباشر للرأسمالى . ولكننا نرى من جهة أخرى أن وسائل إنتاج فائض القيمة النسبي هى فى الوقت ذاته وسائل لإنتاج فائض القيمة المطلق . وفى الواقع قد يبدو أن إطالة يوم العمل إلى حد فائق الثمرة الكبرى المميزة للصناعة الكبيرة . ويمكن القول بوجه عام إن هذه الطريقة الرأسمالية نوع خاص من الإنتاج لاتعود مجرد وسيلة لإنتاج فائض القيمة النسبي حالما تسيطر تلك الطريقة على فرع بأكمله من الإنتاج ، وأكثر من هذا حالما تغزو كافة فروع الإنتاج المهمة . وحينئذ تصبح الشكل العام والمسيطر من الوجهة الاجتماعية على العملية الإنتاجية . وكوسيلة خاصة لإنتاج فائض القيمة النسبي فإنها

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

تظل ذات أثر فعال أولا بقدر مدى سيطرتها على الصناعات التى كانت من قبل خاضعة لرأس المال بالمعنى الشكلى وعلى ذلك بقدر ما تمد نطاقها ، وثانياً بقدر ما تصبح الصناعات التى دخلت فى نطاقها عرضة للانقلابات المستمرة نتيجة للتطورات فى وسائل الإنتاج .

وقد يبدو من إحدى وجهات النظر أن التميز بين فائض القيمة المطلق وفائض القيمة النسبى إن هو إلا تمييز خيالى ، ففائض القيمة النسبى مطلق لأنه يشترط إطالة مطلقة ليوم العمل بعد ذلك القدر من وقت العمل اللازم للعامل كى يمده بعيشه ، وفائض القيمة المطلق نسبى لأنه يشترط زيادة الإنتاجية مما يسمح بقصر وقت العمل الضرورى على جزء واحد من يوم العمل . ولكن إذا وضعنا أمام أعيننا حركة فائض القيمة لا تختفى مظهر التماثل هذا . لما تثبت قواعد الطريقة الرأسمالية فى الإنتاج تماما وتصبح طريقة الإنتاج العامة فإن التميز بين فائض القيمة المطلق وفائض القيمة النسبى يبدى أثره حينما تكون المسألة عبارة عن زيادة معدل فائض القيمة . فبفرض أن قوة العمل يدفع لها أجرها حسب قيمتها فهنا تواجهنا الأمور التالية . فأما فى حالة بقاء إنتاجية العمل وحدته العادية بلا تغيير فإن معدل فائض القيمة لا يمكن زيادته إلا بالإطالة المطلقة ليوم العمل ، وأما فى حالة ثبات طول يوم العمل لا يمكن زيادة معدل فائض القيمة إلا بتغيير فى الأحجام النسبية للأجزاء التى تكونه — أى العمل الضرورى والعمل الفائض ، وهذا يتضمن تغييراً فى إنتاجية أوحدة العمل إلا إذا هبطت الأجور دون قيمة قوة العمل . إذا كان العامل فى حاجة إلى جميع وقت العمل لديه كى ينتج وسائل العيش لنفسه ولأسرته ، فلن يتبقى له وقت عمل يعمل فيه بدون مقابل من أجل الغير . فإلى أن يبلغ العمل مستوى معيناً من الإنتاجية فلن يكن لدى العامل وقت علاوة على الوقت اللازم لإنتاج وسائل عيشه ، وبغير هذا الوقت الفائض لا يكون ثمت وجود للعمل الفائض وبالتالى للرأسماليين . وصحيح بالمثل أنه فى مثل هذه الظروف ينعدم وجود ملاك العبيد والبارونات الاقطاعيين . وبكلمة واحدة لا يمكن قيام طبقة من الملاك (١) .

وعلى ذلك نستطيع القول بوجود أساس طبيعى لفائض القيمة ولكن بالمعنى العام فقط أى عدم وجود عقبة طبيعية فى سبيل أى امرىء يشاء أن يزيح على عاتق غيره عبء العمل الضرورى لإنتاج أسباب عيشه ، كما لا يكون هناك ثمت عائق طبيعى فى سبيل أى امرىء

---

(١) إن نفس وجود المادة الرأسمالية كصفة متميزة يتوقف على انتاجية الصناعة — رمزى (المصدر المشار اليه قبلا) س ٢٠٦ «لو أن عمل كل انسان كان كافيا لانتاج غذائه لما كان ثمت وجود للملكية» رافنستون (مصدر سابق) س ١٤ — ١٥ .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

يرى أن يتغذى على لحم مخلوق آخر (١) . إن إنتاجية العمل تطور طبيعى وليس فى الأمر خفاء وغموض وإن كان هناك بعض من يميل أن يجعل من ذلك سراً غامضاً . ولا تنشأ الأحوال التى يصبح فيها فائض عمل امرىء وسيلة عيش لآخر إلا إذا ارتقى الآدميون فوق مستوى الحيوانات التى تسلسلوا منها ، وإلا إذا أصبح عملهم إلى حد ما ذا صبغة اجتماعية . إن إنتاجية العمل ضئيلة فى بداية الحضارة ، ولكن نجد فى الوقت ذاته أن مطالب الانسان قليلة لأن هذه المطالب إنما تنمو بدرجة تتناسب مع النمو فى وسائل إشباعها . وأكثر من هذا فى تلك الأيام الأولى تكون نسبة أعضاء المجتمع الذين يعيشون على عمل الغير ضئيلة جداً إذا قيست بمجموع المنتجين . ولكن إذ تزداد إنتاجية العمل الإجتماعية فإن هذه النسبة تعظم من الوجهتين المطلقة والنسبية (٢) وعلاوة على هذا تنشأ العلاقة التى تجعل رأس المال من الممكنات على أساس اقتصادى هو نفسه ثمرة عملية من التطور طويلة الأمد . إن إنتاجية العمل القائمة الآن والتى يفترض رأس المال وجودها ، ليست هبة من هبات الطبيعة . بل وليدة تاريخ دام ألوف القرون .

وبغض النظر عن درجة نمو الإنتاج الاجتماعى تتوقف إنتاجية العمل على أحوال طبيعية تشرد جميعا إلى « طبيعة » الآدميين (الجنس الخ) وإلى « الطبيعة » التى تشكل بيئة الانسان . ويمكن تقسيم الأخيرة من وجهة النظر السياسية الاقتصادية إلى قسمين : الثروة الطبيعية فى وسائل العيش وهذه معناها تربة خصبة ومياه تعج بالأسماك .. والثروة الطبيعية فى أدوات العمل كالشلالات والأنهار الصالحة للملاحة والخشب والمعادن الخام والفحم الخ .. وقد كانت الثروة الطبيعية من النوع الأول ذات أهمية حاسمة خلال أيام التمدين الأولى ، بينما تكون الأهمية الحاسمة للثروة الطبيعية من النوع الثانى فى المراحل العليا من التطور الاجتماعى . ويمكنك على سبيل المثال أن توازن بين انجلترا والهند ، أو بين أثينا وكورنث من جهة والبلاد الواقعة على جوانب البحر الأسود من جهة أخرى فى الأيام القديمة .

كلما قل عدد الحاجيات الطبيعية التى لابد من إشباعها ، وعظمت خصوبة التربة الطبيعية ،

---

(١) يعيش على الأقل ٤ ملايين من أكلة اللحوم البشرية فى أجزاء العالم التى كشفت حتى الآن ، وذلك طبقا لتقدير حديث .

(٢) بين الهنود المتوحشين فى أمريكا يكاد يكون كل شىء ملكا للعامل ، ٩٩ ٠/٠ يوضع لحساب العمل ، بينما لايكون للعامل فى انجلترا سوى الثلثين .

Advantages of the East India Trade etc., P. 73.

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

وزادت صلاحية المناخ ، قل مقدار العمل الضرورى الذى لابد منه للابقاء على المنتج وتوالده ، وعظمت تبعاً لذلك النسبة بين عمل المنتج للغير وعمله من أجل ذاته . وقد كتب ديودور عن قدماء المصريين يقول : لايمكن تصور ضآلة مايعانون من مشقة ونفقة فى تربية أطفالهم . فيطبخون لهم أول وأبسط غذاء فى متناول أيديهم ، ويعطونهم الجزع الأسفل من البردى ليأكلوه بقدر مايمكن تسويته على النار ، وكذلك يعطونهم الجذور وسيقان نباتات المستنقعات بعضها نىء وبعضها مغلى مستو . ولا ينتعل معظم الأطفال شيئا ، ويسيرون عراة لأن الهواء معتدل . وعلى ذلك لايكلف الطفل والديه أكثر من عشرين دراخمة . وهذا هو السبب فى وفرة سكان مصر وإمكان القيام بمنشئات كبيرة كثيرة (١) . وحقيقة الأمر أن القيام بأعمال البناء الضخمة فى مصر القديمة لم يكن نتيجة الكثرة العددية فى السكان، أكثر مما كان نتيجة وجود نسبة كبيرة من السكان تحت تصرف العمل . فكما أن العامل الفردى يستطيع أن يسلم مقداراً أكبر من وقت العمل بنسبة صغر مقدار العمل الضرورى فلذلك كلما صغر حجم ذلك الفريق من السكان العاملين اللازم لإنتاج وسائل العيش الضرورية، عظم ذلك الفريق من السكان العاملين الصالح للأعمال الأخرى .

وبفرض وجود الإنتاج الرأسمالى مع افتراض ثبات الأحوال من نواح أخرى وكون يوم العمل ذا طول ثابت ، فإن مقدار العمل الفائض يختلف تبعاً للظروف الطبيعية التى يتم فيها أداء العمل ، وبخاصة خصوبة الأرض . ولكن هذا لا يستتبع حدوث العكس . فليس من الصحيح دائماً أن أخصب التربة هى أكثرها ملاءمة لنمو الطريقة الرأسمالية فى الإنتاج . إن نمو هذه الطريقة يفترض مقدماً سيطرة الإنسان على الطبيعة . فحيث تكون الطبيعة عظيمة السخاء فإنها تبقيه فى يمينها كما يقبض الطفل على خيوط لعبه . وحين تكون الطبيعة كريمة لايعد نمو الملكات الإنسانية إلى الحد الأكمل ضرورياً وأساسياً (٢) . ليس موطن رأس

---

(١) Diodorus, op. cit., lib,1, cah. 80

(٢) والثروة الطبيعية « كما أنها أنبل الأشياء وأشدها نفعا فإنها تحمل الناس على الاهمال والكبرياء ومختلف صنوف الافراط » أما الثروة الاصطناعية » « فتخلق اليقظة والأدب والفنون والسياسة » England's Treasure by Foreign Trade, or the Balance of our Foreign Trade is the Rule of our Treasure (كتبه توماس من التاجر ونشره الآن لصالح العام ابنه جون من ، لندن ١٦٦٩ ص ١٨١ — ١٨٢) — « ولا أستطيع أن اتصور لعنة تحيق بشعب أعظم من أن يجد نفسه فى أرض إنتاجها للعيش والغذاء يتم بصورة تلقائية ولا يسمح جوها إلا بالقليل من أسباب الكساء أو المأوى . . . وقد يكون =

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

المال بالمناطق الحارة حيث النبات غزير ، بل إن موطنه المنطقة المعتدلة . إن تنوع المنتجات الطبيعية من الأرض ، وليس خصوبتها المطلقة ، الأساس الطبيعى للتقسيم الاجتماعى للعمل ، وهذا التنوع يدفع الإنسان عن طريق تغيير الأحوال الطبيعية لبيئته ، إلى مضاعفة حاجياته وقواه ووسائل العمل وطرق العمل . إن الذى يلعب أعظم الأدوار الحاسمة فى تاريخ الصناعة الحاجة إلى السيطرة الاجتماعية على الطبيعة ، والحاجة إلى الاقتصاد فيها بامتلاكها على نطاق واسع أو باستئناسها ، والحاجة إلى أداء هذه الأشياء بواسطة عمل الأيدى الانسانية . خذ لك مثلا من الأعمال المائية فى مصر ولمبارديا وهولندة الخ (١) . . . والرى فى الهند وبلاد فارس الخ مثال آخر . فهناك تجد الرى بالقنوات الصناعية لا يمد التربة بالماء اللازم لها فحسب وإنما يأتى لها بالمخصبات المعدنية من التلال على هيئة رواسب . إنا لنجد سر ازدهار حال الصناعة فى أسبانيا وصقلية فى ظل الحكم العربى فى أعمال الرى (٢) .

تهيء الأحوال الطبيعية الملاءمة مجرد إمكانية وجود العمل الفائض وبمعنى آخر فائض القيمة أو فائض المنتج . ولكنها لا تكفى أن تجعل ذلك أمراً واقعياً . وكون العمل يتم أداؤه فى ظل أحوال طبيعية مختلفة فى أماكن مختلفة ، يترتب عليه أن نفس الكمية من العمل فى بلاد مختلفة تشبع مقادير مختلفة من الحاجات الإنسانية (٣) ، بحيث أنه إذا تساوت الأشياء

= هناك تطرف فى الجانب الآخر . إن الأرض التى لاتنتج بواسطة العمل رديئة سيئة كالأرض التى تنتج إنتاجا وفيرا بدون استخدام العمل » An Inquiry into the Present High Price of Provisions, London, 1767, p. 10.

(١) كانت الحاجة إلى التنبؤ بارتفاع مياه النيل وهبوطها داعية إلى دراسة الفلك فى مصر القديمة وبذا قامت سلطان رجال الدين بصفتهم الموجهين لشؤون الزراعة . يبدأ ارتفاع النيل وقت انقلاب الشمس وهذه هى الفترة التى رأى المصريون ضرورة الالتفات إليها ... لقد احتاجوا إلى تدوين السنة المدارية يسترشدون بها فى عملياتهم الزراعية ، ولذلك تعين عليهم ان يكشفوا فى السماء مايدل على عودتها» Cuvier : Discours sur les révolutions du globe, Hoefer, Paris, 1853, p. 141.

(٢) كان تنظيم موارد الماء فى الهند أحد الأسس المادية التى قام عليها سلطان الدولة على الأجهزة الانتاجية الصغيرة المفككة بالبلاد ، وقد أدرك حكام الهند المسلمون هذه الحقيقة أكثر مما فعل الانجليز ، ويكفى أن نذكر مجاعة ١٨٦٦ التى هلك فيها مايربو على مليون من الهنود جوعا بمنطقة أوريسا فى مقاطعة البنغال .

(٣) لايوجد بلدان فى العالم ينتجان نفس المقدار من ضروريات الحياة بنفس الوفرة وبنفس المقدار من العمل . إن حاجات الناس تزيد أو تنقص تبعا لقسوة الجو الذى يعيشون فيه أو اعتداله ونتيجة لهذا تختلف نسبة التجارة التى يضطر الأهلون إلى ممارستها بحكم الضرورة ، كما انه ليس من الأمور العملية أن نتأكد من درجة الاختلاف أبعد من أن يكون ذلك بتقدير درجات الحر والبرد ، ومن هنا =

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

الأخرى اختلف مقدار وقت العمل الضرورى من مكان إلى آخر . هذه الأحوال تؤثر فى فائض العمل فقط كحدود طبيعية أى بتحديد النقطة التى يمكن أن يبدأ عندها العمل للغير . وبنمو الصناعة تُدفع هذه النقطة إلى الوراء . ففى مجتمع أوربا الغربية حيث لا يستطيع العامل أن يحصل على إذن بالعمل من أجل بقائه إلا بشرط أن يقدم عملا فائضاً ، يسهل الوقوع فى خطأ الاعتقاد أن تقديم العمل الفائض صفة كامنة فى العمل البشرى . (١) لننتقل إلى بحث حالة أحد سكان جزر الأرخبيل الأسيوى حيث ينمو نبات الساجو فى الغابات . حين يقتنع الأهلون بعد ثقب الشجرة أن العصير ناضج يقطعون الجذع ويقسمونه قطعا عدة ، ويستخلص العصير ويمزج بالماء ويرشح ، وحينئذ يكون صالحاً للاستعمال كساجو . وفى العادة تغل الشجرة ٣٠٠ رطل . ويذهب الناس هناك إلى الغابة ويقطعون الخبز لأنفسهم كما نفعل نحن لقطع خشب الوقود (٢) . لنفرض أن قاطع الخبز هذا يحتاج إلى العمل ١٢ ساعة فقط فى الأسبوع لكى يشبع حاجياته . إن الهبة التى تقدمها له الطبيعة كثرة وقت الفراغ ، وقبل تمكنه من استخدام ذلك الفراغ لصالحه لابد أن تكون سلسلة كاملة من الأحوال التاريخية قد نضجت ، وقبل أن يقدمه كعمل فائض بالنيابة عن الغير من الضرورى استخدام القهر . فاذا أدخل الإنتاج الرأسمالى فقد يضطر هذا الشخص الطيب أن يعمل ستة أيام فى الأسبوع لكى ينتج لنفسه ثمرة يوم عمل واحد . وكرم الطبيعة لا يفسر لنا السبب الذى يتعين عليه من أجله فى هذه الحالة أن يعمل ستة أيام فى الأسبوع ، أو من أجله يجب أن يعطى الغير فائض عمل خمسة أيام . وكل ما يفسره كرم الطبيعة هو السبب الذى من أجله يقتصر عمله الضرورى على يوم واحد فى الأسبوع . ومهما يحدث ليس لنا الحق فى أن نقول إن منتجه الفائض نتيجة صفة خفية كامنة فى العمل الإنسانى . إن إنتاجية العمل الاجتماعية التى تطورت ونمت خلال

= نستخلص هذه النتيجة العامة وهى أن كمية العمل التى تلزم عدداً معينا من الناس تكون فى أعلى درجاتها فى الجو البارد وأقلها فى الأجواء الحارة ، ذلك أن الناس فى الجو البارد لا يحتاجون ملابس أكثر فحسب ، بل إن التربة تتطلب مجهودا أكبر لزراعتها عنها فى الأجواء الحارة An Essay on the Coverning Causes of the Natural Rate of In (لندن ١٧٥٠ ص ٦٠) ومؤلف هذا الكتاب الذى نشر دون اسم صاحبه ، هو ج . ماسى ؛ وقد اقتبس هيوم نظريته عن الفائدة من هذا المؤلف (الذى يعد بداية عصر جديد) .

(١) « يجب أن يخلف العمل فائضا على الدوام » ؛ هكذا كتب بروذون الذى يبدو أنه توهم أن هذا أيضا من حقوق المواطن وواجباته !

(٢) F. Shouw. Die Erde ,die Pslanze, und der Mensch (الطبعة الثانية ، ليبزج ١٨٥٤ ص ١٤٨) .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

التاريخ ، وكذلك إنتاجية العمل الطبيعية ، تتخذان مظهر كونهما إنتاجية رأس المال الذى أندمج فيه ذلك العمل .

ولا يكلف ريكاردو نفسه مطلقاً عناء البحث فى منشأ فائض القيمة فهو يناقش فائض القيمة كما لو كان شيئاً كامناً فى طريقة الإنتاج الرأسمالية والتى يعدها الشكل الطبيعى للانتاج الاجتماعى . وحين يتحدث عن إنتاجية العمل فانه يبحث فيها فقط عن السبب الذى يعين حجم فائض القيمة لاعن سبب وجود فائض القيمة . ومن جهة أخرى نادت مدرسته بصوت عال أن إنتاجية العمل السبب الذى يولد الربح (ويحسن أن تقرأ ذلك ، فائض القيمة) . حقيقة يعد هـــذا خطوة نحو الأمام بالقياس إلى التجاريين الذين اعتقدوا أن زيادة ثمن المنتجات عن نفقات إنتاجها نشأت من التبادل ووُجدت لأن المنتجات بيعت بأغلى من قيمتها . ومع هذا فحتى مدرسة ريكاردو قد تحاشت المسألة بدلا من أن تحاول حلها . والحق أن غريزة سليمة حذرت هؤلاء الاقتصاديين البورجوازيين من التعمق فى بحث منشأ فائض القيمة ، لأن هذا التعمق مبعث خطر للغاية . ولكن ماذا نقول حين نجد جون ستيوارت مِل بعد ريكاردو بنصف قرن ، يعلن تفوقه على التجاريين بينما يقتصر على ترديد هذه التفاهات الخاطئة التى نشرها أتباع مذهب ريكاردو ؟

يقول مِل « سبب الربح أن العمل (العامل) ينتج أكثر مما يلزم لإعالته » وهو إلى هذا الحد إنما يضرب على الأوتار القديمة ، ولكنه يريد أن يزيد شيئاً مبتكراً فيقول : ولتغيير شكل النظرية نقول إن السبب الذى من أجله يغل رأس المال إنما يرجع إلى أن الغذاء والملبس والمواد والعُدد تعيش زمناً أطول مما استلزمه إنتاجها » . وهو هنا يخلط بين مدة وقت العمل وبقاء منتجات العمل . وطبقاً لهذا الرأى لايستطيع الخباز المعلم التى تدوم منتجاته يوماً واحداً فقط أن يستخلص من عماله الأجراء مقداراً من الربح يعادل ماتحصل عليه صاحب مصنع لعمل الآلات وهو الرجـــل الذى تدوم منتجاته عشرين عاماً أو أكثر . وبالطبع صحيح أن الطيور كانت تضطر أن تستغنى عن الأعشاش إذا كان العش لايعيش أكثر من الوقت الذى تستغرقه فى بنائها !

وإذ يضع مِل قواعد هذه الحقيقة الأساسية فإنه يأخذ فى إثبات تفوقه بالنسبة إلى التجاريين فيقول : هكذا نرى أن الربح ينشأ لامن حدوث التبادل ولكن من قوة العمل الإنتاجية ، والربح العام الذى يحصل عليه البـــلد هو الربح الذى تولده قوة العمل الإنتاجيـة ، سواء حدث التبادل أم لم يحدث . لو لم يكن هناك تقسيم فى الأعمال لما كان هنا شراء أو بيع ،

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

ولكن كان يكون هناك ربح رغم ذلك . وإذن فمل ينظر إلى التبادل والبيع والشراء والأحوال العامة للانتاج الرأسمالى على أنها حادث عرضى ، وأن الربح موجود حتى فى حالة انعدام بيع أو شراء قوة العمل ! ثم يستطرد فيقول : « إذا كان عمال البلد مجتمعين ينتجون أكثر من أجورهم بمقدار ٢٠٪ لكانت الأرباح ٢٠٪ مهما كانت الأثمان » إن هذا مثل بديع للغو التافه لأنه إذا كان العمال ينتجون فائض قيمة قدره ٢٠٪ للرأسماليين الذين يستخدمونهم فإن النسبة بين الأرباح والأجور الكلية للعمال تكون ٢٠ : ١٠٠ . وفضلا عن هذا فمن الخطأ المطلق القول بأن الأرباح تكون ٢٠٪ ، إنها تكون دائما أقل لأن الأرباح تحسب على أساس المجموع الكلى لرأس المال الذى أنفقناه . فإذا كان الأخير مثلا ٥٠٠ جنيه أنفق منه ٤٠٠ جنيه على أدوات الإنتاج ، ١٠٠ جنيه على أجور العمل ، وإذا كان معدل فائض القيمة ٢٠٪ حسب الفرض ، فإذن يكون معدل الربح ٢٠ : ٥٠٠ وهذا عبارة عن ٤٪ لا ٢٠٪ .

والآن نأتى إلى مثال رائع للطريقة التى يعالج بها مِل أشكال الإنتاج الإجتماعى التاريخية المختلفة . « إنى أفترض فى الموضوع بأسره غلبة الحال التى يكون فيها العمال والرأسماليون طبقتين منفصلتين مع استثناءات قليلة ، وهى الحالة التى يقدم فيها الرأسمالى النفقات كلها بما فى ذلك أجر العامل .

لابد أن مِل ضحية خداع بصرى غريب بحيث يرى فى كل مكان حالة لا توجد على أرضنا إلا فى أمثلة شواذ ! حسنا فلنتابع الأمر . إن طيبة مل تحمل على الاعتراف بأن « كونه يعمل ذلك ليس مسألة ضرورة كامنة » بل على العكس « قد ينتظر العامل حتى يتم الإنتاج ، كل ذلك الجزء من أجره الذى يزيد عن الضروريات ، بل وقد ينتظر كل الأجر إذا توافر لديه مايكفى إعالته مؤقتاً . وحتى العامل فى الحالة الأخيرة عبارة عن رأسمالى حقيقة فى المشروع وذلك بتقديم جزء من الأموال الضرورية لمواصلة المشروع » وكم يحسن بمل لو قال إن العامل الذى يقدم وسائل العمل ، لاضروريات الحياة فقط ، هو عامل أجير لنفسه . وبنفس العدل يجوز له القول بأن المالك الأمريكى عبد لنفسه ، أى عبد يشتغل لنفسه لا للسيد .

وبعد أن أوضح مِل بذلك القدر من الوضوح أن الإنتاج الرأسمالى موجود دائماً حتى ولو لم يكن له وجود فهو منسجم مع نفسه إلى الحد الذى يجعله يثبت أن هذا الإنتاج غير موجود حتى فى حالة وجوده . « وحتى فى الحالة السابقة » (أى حين يكون العامل عاملا أجيراً يقدم له الرأسمالى كل ضروريات الحياة) فإنه (العامل) قد يُنظر إليه فى نفس الضوء (أى

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

بوصفه رأسمالياً) « لأنه بتقديم العمل بأقل من سعره فى السوق يعتبر كأنما أقرض الفرق (؟) لمخدومه ثم استرده مع الفائدة [١] » .

فى العالم الحقيقى الواقعى يقدم العامل عمله للرأسمالى لمدة أسبوع لكى يحصل على سعر السوق لقوته فى العمل فى نهاية الأسبوع . ويقول مِل إن هذا يحوله إلى رأسمالى ! إن الأكوام البسيطة تبدو كالتلال على السطح المنبسط . إننا نستطيع أن نقيس تفاهات الأكوام البورجوازية الحديثة ذاتها بالحدود التى يستطيع « مفكروها العظام » بلوغها .

(١) جون ستيورت مل — مبادىء الاقتصاد السياسى ، لندن ١٨٥٨ ص ٢٥٢ — ٢٥٣ وما بعدها .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

الفصل الخامس عشر

تغيرات الحجم فى ثمن قوة العمل وفى فائض القيمة

إن ضروريات الحياة التى يتطلبها عادة العامل المتوسط هى التى تعين قيمة قوة العمل . وبرغم اختلاف شكل هذه الضروريات من وقت إلى آخر فإن مقدارها معروف فى عصر معين وفى مجتمع معين ، الأمر الذى يجعل فى إمكاننا أن ننظر إليها كحجم ثابت . والذى يتغير هو قيمة ذلك المقدار . وثمت عاملين إضافيين يلعبان دورهما فى تحديد قوة العمل ، وأولهما نفقة تنمية هذه القوة ، وهى نفقة تتغير تبعاً لتغير أسلوب الإنتاج ، وثانيهما تنوع قوة العمل الطبيعى أى هل هى قوة عمل ذكور أم أناث أم أطفال ، صغار ، بالغين . واستخدام هذه الأنواع المختلفة من العمل (وطريقة الإنتاج هى التى تعين هذا الاستعمال) يترتب عليه اختلاف كبير فى نفقة توالد الأسرة من الطبقة العاملة ، وفى قيمة قوة عمل العامل الذكر البالغ . وهذان العاملان اللذان ذكرناهما أخيراً نسقطهما من الحساب فى البحث الآتى :

إنى أفرض (١) أن السلع تباع بقيمتها (٢) وأن ثمن قوة العمل لاتهبط دون قيمتها وإن كان يعلو فوق ذلك المستوى من حين إلى آخر .

فعلى أساس هذين الفرضين رأينا أن الأحجام النسبية لفائض القيمة ولثمن قوة العمل تعينها ظروف ثلاثة (١) طول يوم العمل أى الحجم الممتد للعمل (٢) حدة العمل العادية أى حجمه من حيث كفايته بمعنى أن مقداراً مخصوصاً من العمل يُبذل فى وقت مخصوص (٣) إنتاجية العمل وهى التى تبعاً لها يغل مقدار مخصوص من العمل فى وقت مخصوص مقداراً أكبر أو أصغر من المنتج ، وهو المقدار الذى يتوقف على درجة تطور أحوال الإنتاج . ومن الواضح أن الارتباطات الكثيرة الاختلاف من الأمور الممكنة وذلك تبعاً لما إذا كان أحد العوامل ثابتاً والعاملان الآخران متغيرين ، أو كان اثنان ثابتين وواحد منها متغيراً أو الثلاثة جميعها متغيرة فى نفس الوقت . ويعظم عدد الارتباطات لأنه حين تتغير هذه العوامل فى نفس الوقت ، قد يختلف حجم واتجاه هذه التغيرات . ولن نعرض فيما يلى إلا للارتباطات الرئيسية .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

(١) ثبات طول يوم العمل وحدة العمل ؛ وتغير انتاجية العمل

على أساس هذه الفروض تحدد قوانين ثلاثة قيمة قوة العمل وحجم فائض القيمة .

أ — إن يوم عمل ذا طول معلوم يخلق دائما نفس المقدار من القيمة مهما كان مبلغ إنتاجية العمل ، وقد يتغير معها مجموع المنتج وسعر كل سلعة مفردة واحدة أنتجت . فإذا كانت القيمة التى يخلقها يوم عمل طوله ١٢ ساعة عبارة عن ست شلنات مثلا فإذن — برغم أن كمية القيمة الاستعمالية المنتجة تختلف حسب إنتاجية العمل ، نجد أن القيمة المقدرة بـ ٦ شلنات إنما — توزع — فقط على عدد أكبر أو أصغر من السلع .

ب — يختلف فائض القيمة وقيمة قوة العمل بنسبة عكسية . فالتغير فى إنتاجية العمل ، سواء بالزيادة أو النقص حسب الحالة ، إنما يؤدى إلى تغيير مضاد فى قيمة قوة العمل ، وتغيير مماثل فى فائض القيمة .

إن القيمة التى يخلقها يوم عمل من ١٢ ساعة مقدار ثابت وليكن ذلك ست شلنات . هذا المقدار الثابت يساوى مبلغ فائض القيمة زائداً قيمة قوة العمل وهذه القيمة الأخيرة يستبدلها العامل بمعادل . وواضح وضوحاً ذاتياً أنه حين يتكون مقدار ثابت من جزئين فلا يمكن أن يزيد أحدهما إلا إذا تناقص الآخر . فقيمة قوة العمل لا يمكن أن ترتفع من ٣ شلنات إلى ٤ شلنات إلا إذا هبط فائض القيمة من ٣ شلنات إلى شلنين ، وفائض القيمة لا يمكن ارتفاعه من ٣ شلنات إلى ٤ إلا إذا نقصت قوة العمل من ٣ شلنات إلى شلنين ، فى هذه الظروف لا يمكن حدوث أى تغيير فى الحجم المطلق لفائض القيمة أو قيمة قوة العمل بدون أن يحدث تغير فى ذات الوقت فى حجميهما النسبيين أى فى النسبة بين حجم الواحد وحجم الآخر ؛ إذ لا يمكن أن يرتفع الحجمان أو ينخفضا فى وقت واحد .

وفضلا عن هذا لا يمكن أن تهبط قيمة قوة العمل وبالتالى لا يمكن أن يرتفع فائض القيمة إن لم تكن هناك زيادة فى إنتاجية العمل . فمثلا فى الحالة السابقة لا يمكن هبوط قيمة قوة العمل من ٣ شلنات إلى شلنين الا اذا ترتب على زيادة الانتاجية أن أصبحت تنتج فى ٤ ساعات نفس مقدار وسائل العيش التى كانت تنتجها من قبل فى ست ساعات ، وعلى العكس من ذلك لا يمكن زيادة قوة العمل من ٣ شلنات إلى ٤ شلنات الا اذا هبطت إنتاجية العمل بحيث يتيسر فى ٨ ساعات إنتاج كمية معلومة من وسائل العيش كنا ننتجها من قبل فى ٦ ساعات .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

ويترتب على هذه الاعتبارات أن الزيادة فى إنتاجية العمل تؤدى إلى خفض قيمة قوة العمل وزيادة فائض القيمة . هذا من جهة ومن جهة أخرى فالهبوط فى إنتاجية العمل يسبب ازدياد قيمة قوة العمل وخفض فائض القيمة .

حين صاغ ريكاردو هذا القانون أغفل ظرفاً واحداً . فبرغم أن التغيير فى حجم فائض القيمة أو فائض العمل يسبب تغييراً عكسياً فى حجم قيمة قوة العمل أو فى حجم العمل الضرورى ، فإن هذا لايستتبع بالضرورة أنهما يختلفان بنفس النسبة . إنهما فعلا يزيدان أو ينقصان بنفس المقدار ، ولكن ازديادهما أو نقصهما النسبى يتوقفان على حجميهما الأصليين قبل أن حدث التغيير فى إنتاجية العمل . فإذا كانت قيمة قوة العمل ٤ شلنات أو إذا كان وقت العمل الضرورى ٨ ساعات ، وإذا كان فائض القيمة شلنين أو كان فائض العمل ٤ ساعات ، وإذا حدث نتيجة لزيادة إنتاجية العمل أن هبطت الآن قيمة قوة العمل إلى ثلاث شلنات أو هبط العمل الضرورى إلى ست ساعات فإن فائض القيمة سيرتفع الى ثلاث شلنات أو فائض العمل الى ٦ ساعات . فنفس المقدار وهو شلن أو ساعتان يضاف فى حالة ويطرح فى الأخرى . ولكن التغيير النسبى فى الحجم مختلف فى الحالتين . فبينما تهبط قيمة قوة العمل من ٤ شلنات الى ٣ شلنات أى بمقدار الربع أو ٢٥ ٪ يرتفع فائض القيمة من شلنين الى ثلاث شلنات أى بمقدار ٥٠ ٪ ، ويتبع ذلك اذن أن الازدياد أو النقص النسبى فى فائض القيمة المترتبين على تغيير معلوم فى إنتاجية العمل ، يتوقفان على الحجم الأصلى لذلك القسم من يوم العمل الذى ضمّن نفسه فى فائض القيمة . فكلما صغر ذلك القسم ، زاد التغيير النسبى ، وكلما عظم كان التغيير النسبى أقل .

ـــ ح زيادة أو نقص فائض القيمة هو دائما نتيجة ، وليس سببا مطلقاً لنقص أو ازدياد مماثل فى قيمة قوة العمل (١) .

---

(١) وقد زاد ماكولوخ وغيره على هذا القانون الثالث هذه الإضافة السخيفة وهى أن ارتفاعا فى القيمة الفائضة غير مصحوب بهبوط فى قيمة قوة العمل ، قد يحدث عن طريق إلغاء الضرائب التى يدفعها الرأسمالى . إن إلغاء مثل هذه الضرائب لايسبب أى تغيير فى مقدار القيمة الفائضة التى يغتصبها الرأسمالى فى الأصل من العامل ، وكل مايحدثه من أثر ينحصر فى النسبة التى تنقسم بها القيمة الفائضة بينه وبين الأشخاص الآخرين . ونتيجة لهذا لايؤثر مطلقا فى النسبة بين القيمة الفائضة وقيمة قوة العمل . وهذا الاستثناء الذى يبديه ماكولوخ إنما يثبت سوء فهمه للقانون ـــ وهو سوء حظ يلازمه حين يحاول تقريب آراء ريكاردو إلى الناس كما يحدث بالمثل للكاتب ج . ب . ساى حين يحاول نقس الشىء نسبه إلى آدم سميث .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

بما أن يوم العمل ذو حجم ثابت وتمثله قيمة ذات حجم ثابت ، وبما أنه مع كل تغيير فى حجم فائض القيمة يحدث كذلك تغيير عكسى فى حجم قيمة قوة العمل ؛ وبما أن تغير قيمة قوة العمل لا يمكن إلا أن يصحب التغيير فى إنتاجية العمل — فمن الواضح أنه فى ظل هذه الأحوال يجب أن ينشأ كل تغيير فى حجم فائض القيمة من تغيير عكسى فى حجم قيمة قوة العمل . فإذا لم يكن هناك ، كما رأينا ، تغيير فى الحجم المطلق لقيمة قوة العمل أو تغيير فى فائض القيمة غير مصحوب بتغيير فى حجميهما النسبيين ، كانت النتيجة أنه لا يمكن حدوث تغيير فى حجميهما النسبيين بدون تغيير سابق فى الحجم المطلق لقيمة قوة العمل .

وطبقاً للقانون الثالث يفترض التغيير فى حجم فائض القيمة تغييرا فى قيمة قوة العمل ، وهذا التغيير الأخير يسببه تغيير فى إنتاجية العمل . والقيمة المتغيرة لقوة العمل هى التى تعطى حد التغيير . وبرغم هذا ، حتى إذا كانت الظروف تسمح بسريان مفعول القانون فقد تحدث حركات إضافية . فلو حدث مثلا نتيجة لازدياد إنتاجية العمل ، أن هبطت قيمة قوة العمل من ٤ إلى ٣ شلنات ، أو إذا حدث هبوط فى وقت العمل الضرورى من ٨ إلى ٦ ساعات ، فلا يمكن أن يهبط ثمن قوة العمل إلى ٨ بنس و٣ شلنات ، س ، س ش ، س ش وهكذا ، وتبعاً لهذا لا يمكن أن يرتفع فائض القيمة عن س ش ، س ش ، س ش وهكذا . فمقدار هذا الهبوط الذى حده الأدنى ٣ شلنات (أى القيمة الجديدة لقوة العمل) يتوقف على الوزن النسبى الذى يحدثه فى الميزان ضغط رأس المال من جهة ومقاومة العمال من جهة أخرى .

إن قيمة قوة العمل تعينها قيمة كمية محدودة من وسائل العيش ؛ فالذى يتغير مع التغيرات فى إنتاجية العمل إنما هو قيمة وسائل العيش هذه ، لا مقدارها . ومع هذا من المستطاع ، بسبب زيادة فى إنتاجية العمل ، أن يختص كل من العامل والرأسمالى نفسه فى ذات الوقت بمقدار أكبر من هذه الضروريات بدون حدوث أى تغيير فى ثمن قوة العمل أو فائض القيمة . إذا كانت القيمة الأصلية لقوة العمل ٣ شلنات ، وإذا كان وقت العمل الضرورى ست ساعات ، وإذا كان فائض القيمة بالمثل ٤ شلنات ، وفائض العمل ٦ ساعات — إذن لو ضوعفت إنتاجية العمل بدون تغيير نسبة الممل الضرورى إلى فائض الممل فلن يحدث تغيير من حيث الحجم فى فائض القيمة وثمن قوة العمل .

وهنا تكون النتيجة الوحيدة المترتبة على ذلك أن كلا منهما يمثل ضعف القيمة الاستعمالية التى كان يمثلها من قبل ، وتصير هذه القيم الاستعمالية أرخص مرتين مما كانت عليه من قبل . فبرغم عدم حدوث تغيير فى ثمن قوة العمل فإن الثمن الآن يكون أعلى من قيمتها .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

ومع هذا لو حدث أن ثمن قوة العمل قد هبط إلى $\frac{س ش}{١٠ ٢}$ ، $\frac{ص ش}{٢ ٦}$ وهكذا لا إلى $\frac{س ش}{١ ٦}$ (وهو أدنى رقم ممكن يتفق مع قيمتها الجديدة) فإن هذا الثمن الأقل يظل يمثل مقداراً متزايداً من ضروريات الحياة . وعلى ذلك من الممكن فى حالة زيادة إنتاجية العمل ، أن يستمر ثمن قوة العمل فى الهبوط ومع هذا يكون الهبوط مصحوباً بنمو دائم فى مقدار وسائل عيش العامل . ومن الوجهة النسبية إذا قورنت قيمة العمل بفائض القيمة ، كان هناك نقص مستمر فى النسبة بينهما بحيث أن الهوة بين مركز العامل ومركز الرأسمالى تتسع باستمرار[1].

كان ريكاردو أول من صاغ القوانين الثلاث السالفة بدقة ، ولكنه وقع فى أخطاء. فهو أولا ينظر إلى الأحوال التى تثبت فيها صلاحية هذه القوانين على أنها أحوال الإنتاج الرأسمالى الواضحة بذاتها ، وأنها الأحوال العامة التى تستبعد غيرها . فهو لا يعترف بأى تغيير سواء فى طول يوم العمل أو فى حدة العمل بحيث أنه لا يرى إلا عاملا واحداً متغيراً ذلك هو إنتاجية العمل . ثانيا (وهذا الخطأ يسرى فى تحليله بصفة أخطر) أنه لم يدرس ، أكثر مما فعل غيره من الاقتصاديين ، فائض القيمة فى ذاته وبذاته أى مستقلا عن أشكاله الخاصة مثل الربح وريع الأرض الخ .. وعلى ذلك فهو يخلط بين القوانين المتعلقة بمعدل فائض القيمة وبين قوانين معدل الربح . وكما قلت قبلا إن الربح هو النسبة بين فائض القيمة والمجموع الكلى لما أنفق من رأس المال ، بينما معدل فائض القيمة هو النسبة بين فائض القيمة والجزء المتغير من رأس المال . لنفرض أن رأس المال ج قدره ٥٠٠ جنيه يتكون من مادة أولية وأدوات عمل مقدارها ٤٠٠ جنيه (او ج) ومن أجور مقدارها ١٠٠ جنيه أو (م) وأن فائض القيمة هو ١٠٠ جنيه أو ف . هنا نحصل على معدل لفائض القيمة هكذا .

$$\frac{ف}{م} = \frac{١٠٠ \text{ جنيه}}{١٠٠ \text{ جنيه}} = ١٠٠ \%$$

ولكن معدل الربح هكذا $\frac{ف}{ج} = \frac{١٠٠ \text{ جنيه}}{٥٠٠ \text{ جنيه}} = ٢٠ \%$ [2]

---

(١) حين يطرأ تغيير على إنتاجية الصناعة وهو ما تنتجه كمية معلومة من العمل ورأس المال فقد تتفاوت نسبة الأجور بينما تظل الكمية التى تمثلها تلك النسبة ثابتة أو قد تختلف الكمية بينما تظل النسبة كما هى « معالم الاقتصاد والسياسى » (لمؤلف مجهول الاسم) لندن ١٨٣٢ ص ٦٧) .

(٢) رمزنا بالحروف الآتية : ج (رأس المال) ، م (رأس المال المتغير) ، ف (فائض القيمة) .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

وواضح علاوة على ذلك أن معدل الربح قد يتوقف على ظروف ربما لاتؤثر بأية طريقة فى معدل فائض القيمة ، وسأوضح فى الكتاب الثالث أنه بواسطة معدل معلوم لفائض القيمة قد نحصل على أى عدد من معدلات الربح ، وأن معدلات مختلفة لفائض القيمة قد تجد التعبير عن ذاتها ، فى ظل أحوال معلومة ، فى نفس معدل الربح الواحد .

(٢) طول يوم العمل وإنتاجية العمل ثابتان ؛ وحدة العمل متغيرة

إن ازدياد حدة العمل معناه زيادة مايبذل من عمل فى فترة معلومة من الوقت ، وبالتالى فيوم عمل أكثر حدة يتضمنه مقدار أكبر من المنتجات ، بخلاف يوم عمل أقل حدة ويتكون من نفس العدد من الساعات . أو إذا كان يوم العمل من نفس الطول فإنه ينتج منتجات أكثر حين تكون الإنتاجية أكبر . وفى الحالة الأخيرة تنقص قيمة المنتج الفردى مادام يكلف من العمل أقل مما كان يتكلفه قبلا . وفى الحالة الأولى تظل قيمة المنتج الفردى بلا تغيير نظراً لأن المنتج يتكلف الآن كما هو الحال من قبل ، نفس المقدار من العمل . هنا يُزاد عدد المنتجات بدون أى هبوط فى ثمنها . وإذ يزدادعددها يزداد مبلغ ثمنها أيضا ؛ بينما فى الحالة الأخرى لايتمثل المقدار الكلى للقيمة إلا فى كمية متزايدة من المنتجات . وعلى ذلك حين يظل عدد ساعات العمل على ماهو عليه كلما كان المنتج ذو القيمة الإجمالية الأعلى ينطوى على يوم أعظم حدة ، ومعنى هذا أنه تنطوى عليه نقود أكثر حين تظل قيمة النقود بدون تغيير .

والقيمة التى تُخلق تتغير مع التطورات فى درجة اختلاف حدة العمل عن الشكل الإجتماعى ، وبالتالى فإن نفس يوم العمل لا يمثله ، كما كان الحال قبلا ، مقدار ثابت من القيمة المخلوقة بل مقدار متغير منها . ومثال ذلك أن يوما أكثر حدة ومكونا من ١٢ ساعة قد تمثله ٧ أو ٨ شلنات بدلا من ٦ شلنات كما كان يحدث لو كان يوما طوله ١٢ ساعة ومن الحدة المعتادة . وواضح أنه إذا زادت القيمة التى يخلقها عمل يوم واحد من ٦ شلنات مثلا إلى ٨ شلنات فإذن قد يحدث أن القسمين اللذين تنقسم إليهما القيمة (وهما ثمن قوة العمل وفائض القيمة) يزيدان كلاهما فى نفس الوقت وبنسبة متساوية أو غير متساوية . وثمن قوة العمل من جهة وثمن فائض القيمة من جهة أخرى يمكن أن يزداد كلاهما فى وقت واحد من ٣ شلنات إلى أربع شلنات حين يزداد مقدار القيمة المنتجة من ٦ شلنات إلى ٨ شلنات . فهنا الارتفاع فى ثمن قوة العمل لايعنى بالضرورة أن ثمن قوة العمل قد ارتفع أكثر من قيمتها ؛ بل

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

بالعكس قد يكون الارتفاع فى الثمن مصحوبا بهبوط فى القيمة . ويحدث هذا دائما حين يكون الارتفاع فى ثمن قوة العمل غير كاف للتعويض عن ازدياد استهلاك قوة العمل .

ونعلم أنه مع (استثناءات زائلة) ، لايترتب على التغيير فى إنتاجية العمل إلا تغير فى حجم قيمة قوة العمل وبالتالى فى حجم فائض القيمة حين تكون منتجات فرع الصناعة الذى نعنى به جزءا من الاستهلاك العادى اليومى للعامل . ولكن فى الحالة الحالية لايعود هذا الشرط منطبقاً ، فسواء كان التغيير فى حجم العمل من حيث المدى أو الحدة فإن هذا التغيير يحدث تغيير مطابق له فى حجم القيمة التى تم إنتاجها بغض النظر عن طبيعة (ماهية) السلعة التى تتضمنها تلك القيمة . فاذا كانت حدة العمل تزداد فى الوقت ذاته وبنفس الدرجة فى جميع فروع الصناعة فيها تصبح الدرجة الجديدة والأعلى من الحدة المعيار الاجتماعى للمجتمع الذى ندرس أمره ، وبذلك لاتعود تحسب كحجم ممتد ، ومع ذلك فحتى فى هذه الحالة تختلف حدة العمل فى البلدان المختلفة وبذلك تؤثر فى تطبيق قانون القيمة على أيام العمل التى سادت فى تلك البلاد . فيوم العمل الأكثر حدة فى بلد يتمثل فى مبلغ من النقود أكبر ، بخلاف يوم عمل أقل حدة فى بلد آخر (١) .

(٣) ثبات انتاجية وحدة العمل ، وتغير طول يوم العمل

يمكن أن يختلف يوم العمل فى أى اتجاهين ، فقد يكون أطول أو أقصر .

١ — فى حالة بقاء إنتاجية وحدة العمل بدون تغيير ، فإن الخفض فى طول يوم العمل يترك قيمة قوة العمل وبالتالى وقت العمل الضرورى بلا تغيير ، فينخفض فائض العمل وفائض القيمة . يتصل بالهبوط فى الحجم المطلق لفائض القيمة هبوط فى حجمه النسبى أى بالنسبة إلى قيمة العمل التى تبقى هنا غير متغيرة . والطريقة الوحيدة أمام الرأسمالى لكى يحصل على التعويض تكون بالعمل على خفض ثمن قوة العمل دون قيمتها . وجميع الحجج الاعتيادية ضد الخفض فى يوم العمل ترتكز على افتراض أن هذا الخفض يحدث فى ظل

---

(١) « فى حالة تساوى الأشياء الأخرى يستطيع رجل الصناعة الانجليزى أن يخرج فى وقت معلوم مقداراً من العمل أكبر بكثير مما يفعل رجل الصناعة الأجنبى بحيث يوازن أو يعوض اختلاف أيام العمل أى بين ٦٠ ساعة فى الأسبوع هنا ، و٧٢ أو ٨٠ فى الجهات الأخرى » (تقارير مفتشى المصانع ، ٣١ أكتوبر ١٨٨٥ ص ٦٥) . ولو انتشر التحديد القانونى لساعات العمل فى مصانع القارة الأوربية لكان ذلك سبيلا لانقاص هذا الفارق الكمى بين يوم العمل فى القارة وفى انجلترا .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

الأحوال التى هى موضع النظر الآن . بينما فى الحقيقة التغيير فى إنتاجية العمل وكثافته إما أن يسبق الخفض فى طول يوم العمل أو يتلوه مباشرة (١) .

ب — والآن لنفرض أن طول يوم العمل قد زيد . ليكن وقت العمل الضرورى ٦ ساعات أو قيمة قوة العمل ٣ شلنات ، وليكن فائض العمل ٦ ساعات وفائض القيمة تبعاً لذلك ٣ شلنات ، فيوم العمل الكلى يكون إذن ١٢ ساعة ويتجسم فى قيمة قدرها ٦ شلنات . إذا أطيل يوم العمل بمقدار ساعتين ، مع بقاء ثمن قوة العمل بدون تغيير زاد الحجم النسبى والحجم المطلق لفائض القيمة . وبرغم أن حجم قيمة قوة العمل يظل بلا تغيير بصفة مطلقة فإنه يهبط بصفة نسبية ، وفى ظل الأحوال التى فرضناها فى (ا) لا يمكن تغيير القيمة النسبية لقوة العمل بدون تغيير فى قيمتها المطلقة ، وهنا من جهة أخرى يكون التغيير فى القيمة النسبية لقوة العمل نتيجة تغيير مطلق فى حجم فائض القيمة .

وبما أن القيمة التى يتجسم فيها عمل اليوم تزداد كلما طال يوم العمل فلا يمكن أن تكون هناك زيادة فى نفس الوقت فى ثمن قوة العمل وفى فائض القيمة ، وتكون الزيادة فى هذين متساوية أو غير متساوية . وعلى ذلك فالزيادة التى تحدث فى وقت واحد فى كلا الحجمين قد تحدث فى أى من الحالتين : حين تكون هناك زيادة مطلقة فى طول يوم العمل ، وحين تكون زيادة فى حدة العمل بدون زيادة كهذه فى طول يوم العمل .

فى حالة الزيادة فى طول يوم العمل قد يهبط ثمن قوة العمل دون قيمتها وإن ظل إسميا بلا تغيير أو إن ازداد ، لأن القارىء يذكر أن قيمة يوم قوة العمل تقدَّر طبقاً لمداها المتوسط العادى أو طبقاً لمدى الحياة العادى بين العمال ، وعلى ذلك (طبقاً لطبيعة الانسان العامة) على أساس مدى التحول العادى للمادة الانسانية إلى حركة (٢) ، وإلى حد معين فان البلى فى قوة العمل وهو ما لا ينفصل عن الزيادة فى طول يوم العمل ، يمكن تعويضه بأجور أعلى ، وبعد هذه النقطة يزداد البلى بمتوالية هندسية وفى الوقت نفسه يلقى إلى الخارج بكافة الأحوال العادية الضرورية لتكاثر قوة العمل وأدائها لوظائفها ، ولا يعود ثمن قوة العمل ودرجة استغلالها مقدارين قابلين للتعادل فيما بينهما .

---

(١) « هناك ظروف عوضت هذا ... أظهرها تنفيذ قانون العشر ساعات » شرحه أول ديسمبر ١٨٤٨ ص ٧

(٢) « إن مقدار العمل الذى قام به رجل خلال ٢٤ ساعة يمكن إدراكه تقريبا إذا خصمنا التغييرات الكيماوية التى طرأت على جسمه والأشكال المتغيرة للمادة والتى تدل على فعل القوة الديناميكية »
Grove : On the Correlation of Physical Forces.

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

(٤) تغييرات حادثة فى نفس الوقت فى وقت العمل وانتاجيته وحدته

من الواضح إمكان ذكر عدد كبير من الارتباطات تحت هذا العنوان . قد يختلف أى عاملان ويبقى الثالث ثابتاً ، أوقد تتغير العوامل الثلاثة فى وقت واحد ، وقد يكون اختلافها بدرجة متساوية أو بدرجة غير متساوية ، وفى نفس الاتجاه أو فى اتجاهات مضادة بحيث أن تغييراتها يقاوم كل واحد منها الآخر مقاومة كلية أو جزئية ، ومع ذلك فيمكن تحليل جميع الحالات الممكنة وذلك طبقاً للمبادىء الموضحة فى ١ و ٢ و ٣ ، ويمكن حساب أثر كل ارتباط ممكن بمعاملة كل عامل بدوره على أنه متغير أو معاملة العاملين الآخرين على أنهما ثابتان مؤقتاً ، وعلى ذلك يكفى أن نناقش مثالين هامين بإيجاز .

١ — هبوط فى إنتاجية العمل مصحوب بزيادة فى طول يوم العمل فى نفس الوقت . حين نتحدث هنا عن هبوط فى إنتاجية العمل فالذى يعنينا هو فروع الصناعة التى تعين منتجاتها قيمة قوة العمل ، ومثال ذلك هبوط سريع فى خصوبة التربة مصحوب بزيادة مماثلة فى أثمان المنتجات الزراعية . لنفرض أن يوم العمل ١٢ ساعة وأن القيمة التى يخلقها يوم كهذا ٦ شلنات وأن نصف هذا يحل محل قيمة قوة العمل بينما النصف الآخر عبارة عن فائض القيمة . إذن ينقسم يوم العمل إلى ٦ ساعات عمل ضرورى ، ٦ ساعات فائض القيمة . ونظرا للارتفاع فى ثمن منتجات التربة لنفرض أن قيمة قوة العمل ترتفع الآن من ٣ شلنات إلى أربع شلنات بحيث أن وقت العمل الضرورى الذى كان ٦ ساعات أصبح ٨ . وإذ يبقى طول اليوم العمل بدون تغيير يهبط فائض العمل من ٦ ساعات إلى أربعة وفائض القيمة من ٣ شلنات إلى اثنين . فاذا زيد الآن يوم العمل بمقدار ساعتين ، أى من ١٢ إلى ١٤ ساعة صار فائض العمل حينئذ ٦ ساعات كما كان شأنه فى ظل الأحوال التى بحثناها فى بداية هذه الفقرة ، ويظل فائض القيمة ٣ شلنات ، ولكن يكون هناك هبوط فى قيمة النسبة إذا ماعقدت الموازنة بينها وبين قيمة قوة العمل مقاسة بمقدار وقت العمل الضرورى . واذا زيد يوم العمل بمقدار ٤ ساعات أى من ١٢ ساعة إلى ١٦ ساعة فان الأحجام النسبية لفائض القيمة وقوة العمل ، ولفائض العمل والعمل الضرورى ، تستمر بلا تغيير ، ولكن الحجم المطلق لفائض القيمة يرتفع من ٣ إلى ٤ شلنات ، ويرتفع الحجم المطلق لفائض العمل من ٦ ساعات عمل إلى ٨ وهى زيادة قدرها الثلث أى ٣٣٪ وعلى ذلك فمع إنتاجية عمل متناقصة وزيادة فى نفس الوقت فى طول وقت العمل ، وقد يظل الحجم المطلق لفائض القيمة ثابتاً

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

فى الوقت الذى فيه ينقص حجمه النسبى ، أو قد يظل حجمه النسبى بلا تغيير بينما يزداد حجمه المطلق ، وقد يزداد كلاهما إذا كانت الزيادة فى طول يوم العمل كافية .

خـــلال الفترة (١٧٩٩ — ١٨٢٥) أدى ازدياد ثمن ضروريات الحياة بانجلترا إلى زيادة إسمية فى الأجور ، بينما كانت الأجور الحقيقية — معبراً عنها بضروريات الحياة — فى هبوط . وقداستنتج وست وريكاردو من هذه الحقيقة أن النقص فى إنتاجية العمل الزراعى يسبب هبوطاً فى معدل فائض القيمة ، وفى نظرهم هذا الفرض الذى يمثل حقيقة لم يكن لها وجود إلا فى خيالهم صار نقطة ابتداء لتحليلات هامة إلى الأحجام النسبية للأجور والربح وريع الأرض . وفى الحقيقة بفضل ازدياد كثافة العمل والزيادة الإجبارية فى طول يوم العمل زاد فى ذلك الوقت فائض القيمة من الوجهتين المطلقة والنسبية . هذا هو العهد الذى كانوا ينظرون فيه إلى زيادة غير معتدلة فى طول يوم العمل على أنها أمر طبيعى[١] . وكان العهد الذى تميز خاصة بزيادة فى رأس المال من جهة والفقر والتسول من جهة أخرى[٢] .

---

(١) نادرا ما يسير القمح والعمل جنبا إلى جنب تماما ، ولـكن هناك حدا ظاهرا لا يمكن بعده فصلهما . وفيما يختص بالجهود غير العادية التى تبذلها الطبقات العاملة فى فترات ارتفاع الأثمان وهى الفترات التى تسبب هبوط الأجور الذى لاحظناه من الشهادات [التى أدلى بهـا أمام لجنة التحقيق البرلمانية ١٨١٤—١٨١٥] . « فإنها تلائم بكل تأكيد نمو رأس المال ، ولـكن لا يسع أى رجل مشبع بالروح الانسانية أن يرى هذه الجهود متصلة لا تنقطع ، وهى داعية للاعجاب كنوع من التخفيف المؤقت ، أما لو دامت لترتبت عليها آثار مماثلة لتلك التى تنجم عن استهلاك الشعب لأقصى ما يملك من الغذاء » Malthus : Inquiry into the Nature and Progress of Rent, London 1815, p. 48, Footnote . ومن الواضح أن مالثس إنما يفكر فى الزيادة فى يوم العمل وهو يشير إلى هذه الزيادة فى مواضع أخرى من هذا الـكتاب بينما جعل ريكاردو وغيره الطول الثابت ليوم العمل أساسا لأبحاثهم ، وأنه لشرف كبير لمالثس أن يكون صريح القول فى هذه المسألة ! ولـكن مصالح الطبقة المحافظة وهى المصالح التى كان يخدمها جعلت من المستحيل عليه أن يرى أن الزيادة غير المحدودة فى طول يوم العمل إلى جانب تقدم واسع المدى فى الآلات واستغلال عمل النساء والأطفال ، قمينة أن تجعل نسبة كبيرة من الطبقة العاملة « فائضة عن الحاجة » وبخاصة عندما انتهت الحرب وزال معها ما كان لانجلترا من احتكار فى السوق العالمية . ومن الطبيعى أنه كان أنسب له وأكثر اتفاقا مع مصالح الطبقات الحاكمة لو أنه فسر هذه الزيادة المفرطة فى عدد السكان بأنها راجعة إلى قوانين الطبيعة الخالدة بدلا من أن يجعلها وليدة التاريخ الطبيعى للانتاج الرأسمالى .

(٢) وثمت سبب رئيسى لازدياد رأس المال خلال الحرب وذلك عبارة عن الجهود الـكبيرة التى بذلتها الطبقات العاملة ومظاهر الحرمان الذى عانته . فقد أرغمت الظروف أعدادا من النساء والأطفال أكبر من أى عهد سبق على مزاولة أعمال شاقة مجهدة ، واضطر العمال السابقون — لنفس السبب — أن يخصصوا جانبا أكبر من وقتهم لزيادة الانتاج .

Essay on Political Economy, in which are illustrated the Principal Causes of the Present National Distress, London, 1830, p. 428.

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

١ — ازدياد حدة وإنتاجية العمل مع نقص طول يوم العمل فى نفس الوقت . لإنتاجية العمل المتزايدة وللزيادة فى حدته تأثير مشابه ، فكلاهما يزيد مقدار المنتجات المنتجة فى فترة معلومة من الوقت ، وعلى ذلك فكلاهما يخفّض ذلك القسم من يوم العمل الذى يحتاجه العامل لإنتاج وسائل عيشه أو المعادل لها . والحد الأدنى لطول يوم العمل يعينه هذا القسم الضرورى من يوم العمل والقابل مع ذلك للتقلص . فاذا خفض طول يوم العمل إلى هذا الحد الأدنى اختفى فائض العمل وهذا مستحيل فى ظل النظام الرأسمالى . فالغاء طريقة الانتاج الرأسمالية ستسمح بخفض طول يوم العمل إلى مقدار وقت العمل الضرورى . ولكن حتى فى الحالة الأخيرة قد يتعرض مقدار وقت العمل الضرورى (مع تساوى الأشياء الأخرى) للامتداد وهذا يحدث من جهة لأن حاجيات العامل الأساسية تزداد ويرتفع مستوى حياته . ومن جهة أخرى فان جانبا مما يعد الآن عملا فائضاً سيحسب عملا ضرورياً أى ذلك المقدار من العمل الضرورى لإعداد رصيد للاحتياطى والتجميع .

كلما عظمت الزيادة فى إنتاجية العمل أمكن خفض طول يوم العمل ، وكلما خفض طول يوم العمل عظمت الزيادة فى حدة العمل . ومن وجهة النظر الاجتماعية تزداد إنتاجية العمل بازدياد الاقتصاد فى العمل ولا يقصد هنا باقتصاد العمل التوفير فى وسائل الإنتاج فحسب بل وتجنب كل عمل لاحاجة إليه . ومع أن الطريقة الرأسمالية فى الإنتاج تفرض الاقتصاد فى كل عمل فردى ، إلا أن فوضى المنافسة تؤدى إلى أفدح وأبشع تبديد لقوة العمل ووسائل الإنتاج الاجتماعية ، بينما تؤدى الرأسمالية إلى خلق مهن عدة لاغنى لها عنها ، ولكنها فى حد ذاتها زائدة عن الحاجة .

وإذا نظرنا إلى حدة العمل وإنتاجيته على أنهما ثابتان فتقصر نسبة يوم العمل الاجتماعى الذى سيكون من اللازم تخصيصه للانتاج المادى ، ونتيجة لهذا يعظم مقدار الوقت الذى يستغله العامل فى نواحى النشاط العقلى والاجتماعى بنسبة توزيع العمل على كافة أعضاء المجتمع القادرين بدرجة عادلة ، وبنسبة عكسية إلى الحد الذى فيه تستطيع طبقة اجتماعية معينة أن تزيح العبء الطبيعى من العمل على كاهل أفراد طبقة أخرى . وسيكون هناك حد لخفض يوم العمل ولكن هذا الحد سيتوقف على إنتاجية عمل الجماعة ذى الطابع العام . وفى المجتمع الرأسمالى من جهة أخرى تجد أن وقت الفراغ لطبقة ممتازة مصدره تحويل حياة الجماهير إلى وقت عمل .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

الفصل السادس عشر

الصيغ المختلفة لمعدل فائض القيمة

رأينا أن معدل فائض القيمة تمثله الصيغ الآتية :

$$(١)\quad \frac{\text{فائض القيمة}}{\text{رأس المال المتغير}} \left(=\frac{\text{ف}}{\text{م}}\right) = \frac{\text{فائض القيمة}}{\text{قيمة قوة العمل}} = \frac{\text{فائض العمل}}{\text{العمل الضرورى}}$$

والصيغتان الأوليتان تمثلان بوصفهما نسبة للقيم ، ذلك الذى يمثل فى الصيغة الثالثة كنسبة للاوقات التى تنتج فيها القيم ، وهذه القيم ، بمعادلتها الواحدة بالأخرى ، محدودة وصحيحة تماماً ، ولهذا نلقاها فى الاقتصاد السياسى الكلاسيكى . وفيه نلقى كذلك الصيغ الآتية مشتقة من السابقة .

$$(٢)\quad \frac{\text{فائض العمل}}{\text{يوم العمل}} = \frac{\text{فائض القيمة}}{\text{قيمة المنتج}} = \frac{\text{المنتج الفائض}}{\text{المنتج الكلى}}$$

فنفس النسبة الواحدة يعبر عنها هنا كنسبة لأوقات العمل ، وللقيم التى تتجسم فيها أوقات العمل هذه ، وللمنتجات التى توجد فيها هذه القيم . والمفروض طبعا ن لمرد « بقيمة المنتج » القيمة التى أنتجت حديثا فى يوم عمل ، مع استبعاد الجزء الثابت من قيمة المنتج .

وفى هذه الصيغ جمعاء يعبر بصورة باطلة عن درجة استغلال العمل الواقعية أى معدل فائض القيمة . ليكن يوم العمل ١٢ ساعة ، فاذن ، باتخاذ الفروض المذكورة فى الأمثلة السابقة ، يتمثل المعدل الفعلى لاستغلال العمل بالنسبة التالية .

$$\frac{\text{٦ ساعات فائض عمل}}{\text{٦ ساعات عمل ضرورى}} = \frac{\text{فائض قيمة قدره ٣ شلنات}}{\text{راس مال متغير قدره ٣ شلنات}} = ١٠٠ \text{ ٪}$$

ولكن تحصل من الصيغ الواردة تحت رقم (٢) على الآتى .

$$\frac{\text{٦ ساعات فائض عمل}}{\text{يوم عمل طوله ١٢ ساعة}} = \frac{\text{فائض قيمة قدره ٣ شلنات}}{\text{قيمة منتجة قدرها ٦ شلنات}} = ٥٠ \text{ ٪}$$

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

هذه الصيغ التى استنتجناها تعبر حقيقة عن النسبة التى ينقسم بها يوم العمل أو القيمةالتى ينتجها بين الرأسمالى والعامل ، وعلى ذلك إذا نظرنا إليها على أنها التعبيرات المباشرة عن معـــدل التوسع الذاتى لرأس المال ، لصح القانون الخاطىء الآتى : لا يمكن مطلقاً أن يبلغ فائض العمل أو فائض القيمة ١٠٠ (١) ونظراً لأن فائض القيمة لا يمكن إلا أن يعدو كونه جزءاً من المقدار الكلى للقيمة المنتجة ، فينتج بالضرورة أن فائض العمل يتكون عادة من وقت أقصر من يوم العمل ، أو أن فائض القيمة يمثل دائما مقداراً أصغر من القيمة الكلية المنتجة . ولكن إذا بلغنا النسبة ١٠٠ : ١٠٠ فلابد من تساويهما . ولكى يستوعب فائض العمل يوم العمل كله (ويعنينا هنا متوسط يوم العمل لأسبوع العمل أو لسنة العمل الخ) يجب أن يهبط العمل الضرورى إلى الصفر . ولكن باختفاء العمل الضرورى يختفى العمل الفائض أيضاً ما دام الأخير ليس سوى وظيفة للأول . وعلى ذلك فالنسبة

$$\frac{\text{فائض العمل}}{\text{يوم العمل}} = \frac{\text{فائض القيمة}}{\text{القيمة المنتجة}}$$

لا يمكن أن تبلغ النسبة الحدية $\frac{١٠٠}{١٠٠}$ ولا ترتفع الى $\frac{١٠٠ + س}{١٠٠}$ ولكن الحال خلاف هذا بالنسبة إلى معدل فائض القيمة أو درجة استغلال العمل الفعلية . خذ مثلا تقدير المسيو ليونس دى لافيرنى عن أن العامل الزراعى الإنجليزى لا يتناول إلا ربع المنتج (٢) أو قيمته مقابل ثلاثة أرباع هى نصيب الرأسمالى (وهو الفلاح فى هذه الحالة) — وهذا بعيد عن المسألة الأخرى وهى كيفية توزيع الغنيمة فيما بعد بين الرأسمالى (الفلاح) والمالك والآخرين . وحسب هذا التقدير تكون النسبة بين العمل الفائض والعمل الضرورى فى حالة العامل الزراعى

---

(١) أنظر مثلا :

Rodbertus : Soziale Briefe an kirchmann, third leteer, Widerlegung der Ricardo' schen Theorie von der Grundrente und Begründung einer neuen Rententheorie, Berlin, 1851.

(٢) نظرا لأن كافة الأشكال الراقية من عملية الانتاج الرأسمالية عبارة عن أشكال من التعاون ، فليس أسهل من أن نتجاهل صفتها التعارضية ، وبذا نقول إنها أشكال خالصة للتعاون والاشتراك . وهذا ما فعله الكونت A. de Laborde فى كتابه De l'esprit de l'association dans tous les intérêts d la communauté (باريس ١٨١٨) . وفى استطاعة الكاتب الأمريكى هـ . كارى أن يلعب هذه الخدعة الساحرة بنجاح حين يعالج موضوع الحواس التى يتميز بها نظام الرق .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

الانجليزى عبارة عن ٣ : ١ وهذه درجة استغلال تبلغ ٣٠٠٪ .

والطريقة السائدة بين الاقتصاديين من حيث النظر إلى ساعات العمل على أنها ثابتة فى عددها أيدها استعمال الصيغ الواردة فى رقم(٢) إذ فيها تجرى الموازنة دائما بين فائض العمل ويوم عمل ذى طول معلوم . وينطبق نفس الأمر إذا كان الاعتبار الوحيد هو تقسيم القيمة التى أنتجت . ويوم العمل الذى صار مجسما فى منتجاتٍ ذات مقدار معلوم من القيمة ، هو دائما يوم عمل ذو طول معلوم .

وعادة تمثيل فائض القيمة وقيمة قوة العمل على أنهما أجزاء من القيمة المنتجة (وهى العادة التى تولدت عن الشكل الرأسمالى فى الانتاج وهى عادة سيتضح مغزاها فيما بعد) تخفى الصفة المخصوصة للعلاقة التى يخفيها رأس المال وهى مبادلة رأس المال المتغير بقوة العمل الحية واستبعاد العامل من المنتج بعد ذلك . وبدلا من هذه الحقائق لايرى الناس سوى مظهراً خداعاً لعلاقة اشتراك يقتسم فيها العامل والرأسمالى المنتج وفق نسب تطابق العناصر المختلفة التى يساهمان بها فى تكوينه .

وأما عن الباقى فإن الصيغ الواردة فى رقم (٢) قابلة دائماً لأن يعاد تحويلها إلى الصيغ رقم (١) فلو كان لدينا مثلا :

فائض عمل قدره ٦ ساعات / يوم عمل قدره ١٢ ساعة فإذن يكون وقت العمل الضرورى مساوياً ليوم عمل قدره ١٢ ساعة ناقصاً فائض العمل الذى قدره ٦ ساعات وبذلك نحصل على الآتى :

$$\frac{\text{فائض عمل قدره ٦ ساعات}}{\text{عمل ضرورى قدره ٦ ساعات}} = \frac{١٠٠}{١٠٠}$$

وهناك مجموعة ثالثة من الصيغ أوردتها من باب استباق الأمور أكثر من مرة وهاهى :

$$(٣) \quad \frac{\text{فائض قيمة}}{\text{قيمة قوة العمل}} = \frac{\text{فائض عمل}}{\text{عمل ضرورى}} = \frac{\text{عمل بدون أجر}}{\text{عمل بأجر}}$$

وقد تؤدى الصيغة $\frac{\text{عمل بدون أجر}}{\text{عمل باجر}}$ إلى سوء فهم وتجعلنا نظن أن الرأسمالى يدفع ثمن العمل لاقوة العمل ، ولكن الاعتبارات السالفة تجعل فى إمكاننا تجنب سوء الفهم هذا ، فالصيغة التالية وهى :

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

$$\frac{\text{عمل بغير أجر}}{\text{عمل بأجر}} \quad \text{إن هى تعبير عادى عن الصيغة} \quad \frac{\text{فائض عمل}}{\text{عمل ضرورى}}$$

فالرأسمالى يدفع قيمة قوة العمل (أو ثمن قوة العمل وهو غير متماثل دائماً مع القيمة) ، ويأخذ مقابل ذلك القدرة على التصرف فى قوة العمل الحية . ويكون حق الانتفاع بقوة العمل هذه من فترتين فى الأولى منهما ينتج العامل قيمة مساوية لقيمة ما يملك من قوة العمل أى قيمة لاتزيد عن كونها معادلا . وعلى ذلك فالرأسمالى الذى يدفع ثمن قوة العمل يحصل بدوره على منتج ذى ثمن مماثل ، وهو أشبه بما لو كان اشترى السلعة التامة الصنع فى السوق . وفى الفترة الثانية وهى فترة العمل الفائض يخلق حق الانتفاع بقوة العمل قيمة الرأسمالى دون أن يدفع عنها مقابلا[1] . فهو يحصل على هذا التحويل لقوة العمل إلى قيمة مجاناً وبلا مقابل ، وبهذا المعنى يمكن أن يقال عن العمل الفائض إنه عمل بغير أجر .

وهكذا ليس رأس المال كما يدعوه آدم سميث السيطرة على العمل فحسب ، ولكنه فى أساسه سيطرة على العمل الذى لاأجر له . وكل قيمة فائضة مهما كان الشكل الذى تتبلور فيه بعدئذ على هيئة ربح أو ريع أرض أو فائدة الخ ... إن هى فى أساسها إلا الصورة المادية التى يبدو بها وقت العمل غير ذى الأجر . ونجد سر التوسع الذاتى لرأس المال فى هذه الحقيقة وهى أن رأس المال يجد تحت تصرفه كمية محدودة من عمل الآخرين وهو عمل لايدفع عنه أجراً .

---

(١) ولو أن الطبيعيين لم يتمكنوا من حل لغز فائض القيمة إلا انهم استطاعوا على الأقل أن يروا أن فائض القيمة « ثروة مستقلة » يمكن التصرف بها ، وهى ثروة يبيعها المالك وإن لم يشترها .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

الباب السادس

الأجور

الفصل السابع عشر

تحويل قيمة أو ثمن قوة العمل إلى أجور

فى ظاهر المجتمع البورجوازى يبدو أجر العامل كأنه ثمن العمل ، أى مبلغ محدود من المال يدفع مقابل مقدار محدود من العمل .

ويتحدث الناس عن قيمة العمل ويقولون إن مبلغ النقود الذى يعبر عن تلك القيمة هو الثمن الضرورى أو الطبيعى للعمل . وهم يتحدثون كذلك عن ثمن السوق للعمل كأنه ثمن يتقلب على أى من جانبى ثمنه الضرورى .

ولكن ماقيمة السلعة ؟ إنها الشكل الموضوعى الذى يتخذه العمل الاجتماعى الذى بذل فى إنتاجها . حسناً ، وكيف نقيس حجم قيمتها ؟ نقيس تلك القيمة بحجم العمل الذى تتضمنه . وكيف إذن نتأكد من قيمة يوم عمل ذى إثنى عشرة ساعة مثلا ؟ يجب أن نقيسها بساعات العمل الاثنى عشرة التى يحتوى عليها يوم عمل ذو ١٢ ساعة — وهو لغو يدعو إلى السخرية(١).

---

(١) يتحاشى المستر ريكاردو بمهارة صعوبة قد تهدد مذهبه القائل بأن القيمة تتوقف على كمية العمل التى تستخدم فى الانتاج . ولو تمسكنا بهذا المبدأ بدقة لتبع هذا أن قيمة العمل تتوقف على كمية العمل التى تستخدم فى إنتاجها ، وهو امر واضح السخافة . وعلى ذلك يجعل المستر ريكاردو قيمة العمل تتوقف على كمية العمل اللازمة لإنتاج الأجور او حسب عبارته ان قيمة العمل تقدر بكمية العمل اللازمة لإنتاج الاجور وهو يقصد بهذا كمية العمل اللازمة لإنتاج النقود او السلع التى تعطى للعامل . وهذا شبيه بالقول إن قيمة القماش لا تقدر بكمية العمل الذى يبذل فى إنتاجها بل بكمية العمل التى تبذل فى إنتاج الفضة التى تجرى مبادلة القماش بها .

A Critical Dissertation on the Nature, etc., of Value, pp. 50—51. (By S. Bailey' published anonymously).

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

إذا كان لابد من بيع العمل فى السوق كسلعة فهذا العمل يجب أن يكون موجوداً قبل إمكان بيعه . ولكن إذا استطاع العامل أن يجعل لعمله وجوداً مستقلا ، لباع سلعة لا عملا(١).

وبغض النظر عن هذه المتناقضات فإن المبادلة المباشرة النقود (أى العمل المجسم) بالعمل الحى إما أن تقضى على قانون القيمة الذى يبدأ فقط أن ينمو فى حرية على أساس الإنتاج الرأسمالى ، وإما أن يلغى الانتاج الرأسمالى نفسه الذى يرتكز مباشرة على العمل الأجير . إن يوم العمل ذا الاثنى عشرة ساعة مثلا تمثله قيمة نقدية قدرها ٦ شلنات والآن أمامنا هنا احتمالان . فإما أن يجرى التبادل بين معادلين وفى تلك الحالة يحصل العامل على ٦ شلنات مقابل عمل إثنى عشرة ساعة ، وإذن يكون ثمن عمله مساوياً لما ينتجه . ولكن إذا كان الأمر كذلك لما أنتج فائض القيمة لمشترى عمله ، ولما تحولت الشلنات الستة إلى رأس مال ، ولزالت أسس الإنتاج الرأسمالى وهى التى عليها يبيع عمله ويصبح عمله عملا أجيراً . والأمر الممكن الثانى هو أنه يحصل لقاء عمل الساعات الإثنى عشرة على أقل من ٦ شلنات أى أقل من عمل الساعات الإثنى عشرة ؛ وهى فى هذه الحالة يبادل عمل ١٢ ساعة بعمل ١٠ أو ٦ ساعات أو ربما أقل من ذلك حسب ما تكون الحال . ومثل هذا التعادل لأحجام غير متساوية لا يقتصر على أنه يضع حداً لتعيين القيمة . وليس فى الإمكان التعبير عن تناقض هادم لذاته كهذا أو صياغته كقانون عام (٢) .

ولا نستفيد فى هذا المأزق إذ نفسر مبادلة مقدار أكبر أو أقل من العمل بأن نقول إن للعمل شكلا مختلفاً فى الحالتين ، وإن أحد العملين مجسم والآخر عمل حى (٣) . وتزداد

---

(١) إذا سميت العمل سلعة فإنه غير السلعة التى تنتج اولا بقصد التبادل ثم يؤتى بها الى السوق حيث يجب مبادلتها بالسلع الاخرى تبعا لما فى السوق إذ ذاك من مقادير كل سلعة - إن العمل يخلق فى اللحظة التى يؤتى بها إلى السوق ، بل إنه ليؤتى به إلى السوق قبل ان يخلق .

Observations on certain Verbal Disputes, etc., pp. 75-76.

(٢) إذا نظرنا إلى العمل كأنه سلعة ، ورأس المال وهو منتج العمل على انه سلعة اخرى ، فحينئذ إذا كانت قيمتا هاتين السلعتين ينظمهما مقداران متساويان من العمل ، فإن مقدارا معلوما من العمل تجرى ... مبادلته بكمية رأس المال التى انتجها نفس المقدار من العمل ؛ كما ان العمل السابق ... تجرى المبادلة بينه وبين نفس المقدار من العمل الحالى - ولكن قيمة العمل بالنسبة إلى السلع الأخرى ... لا تعينه كميات متساوية من العمل » .

E. G. Wakefield, in his edition of Adam Smith's "Wealth of Nations," London. 1836, vol. 1, p. 231.

(٣) « أصبح من الضرورى أن نوافق » (صورة جديدة من «العقد الاجتماعى») «على أنه حينما =

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

سخافة هـذا إذا ذكرنا أن قيمة السلعة لا يعنيها مقدار العمل المجسم فيها فعلا ، وإنما مقدار العمل الحى اللازم لإنتاجها . لنفرض أن سلعة تمثل ست ساعات عمل . فإذا حدثت اختراعات جعلت فى الإمكان إنتاج هـــذه السلعة فى ٣ ساعات هبطت قيمة السلعة التى تم إنتاجها إلى النصف فهى لا تمثل الآن إلا ثلاث ساعات من العمل الإجتماعى الضرورى بدلا من الساعات الست التى كانت تمثلها قبلا . وعلى ذلك فالذى يعين قيمة السلعة إنما هو مقدار العمل اللازم لإنتاجها ، لا الشـكل المجسم لهذا العمل .

والذى يواجه صاحب النقود فى السوق هو العامل لا العمل ، فالعامل إنما يبيع قوته على العمل . وبمجرد ابتداء العمل لا تعود هذه القوة ملـكا للعامل وبذا لا يعود فى إمكانه بيعها . فالعمل هو جوهر القيمة ومقياسها الـكامن ولـكنه غير ذى قيمة بذاته (١) .

وحين يقال « قيمة العمل » ففى هذه العبارة لا تمحى الفـكرة عن القيمة فحسب ، بل إنها تتحول إلى نقيضها . فهذه العبارة خيالية كما لو تحدثنا عن قيمة الـكرة الأرضية . ولـكن هذه التعبيرات الخيالية تنشأ من نفس علاقات الإنتاج ، فهى أنواع للأشكال المظهرية من العلاقات الأساسية . إن طلاب العلوم الأخرى يدركون كون الأشياء المظهرية تبدو أحياناً فى أشكال مقلوبة ، ولـكن الاقتصاديين السياسيين هم الطلاب الوحيدون الذين لا يعرفون هذه الحقيقة (٢) .

= يجرى التبادل بين عمل تم أداؤه وعمل يجب القيام به فإن الأخير (الرأسمالى) تكون قيمته أعلى من قيمة الأول (العامل) » .

Simonde (de Sismondi) : De la richesse commerciale, Geneva, 1803, vol. I, p. 37

(١) « العمل معيار القيمة الوحيد ... ومبدع جميع الثروة ، ليس سلعة » Thomas Hodgskin

(٢) إن الذين يحاولون أن يفسروا أمثال هذه العبارات على أنها لا تزيد عن كونها نوعا من إسراف الشعراء فى أقوالهم ، إنما يظهرون مدى عجز تحليلهم . قال برودون « يقال إن العمل ذو قيمة لا على أنه نفسه سلعة بل من حيث القيم الـكامنة التى يظن أنه يتضمنها . إن قيمة العمل تعبير مجازى » . والرد على هذا وضعت مؤلفى « فقر الفلسفة » وقلت (ص ٣٤ — ٣٥) ما يأتى « إنه لا يرى فى العمل بوصفه سلعة ، وهى حقيقة مخيفة ، إلا ألفاظا وعلى ذلك علينـا أن نظن أن المجتمع المعاصر كله القائم على أساس العمل كسلعة يجب أن ننظر إليه كأنه يقوم على عبارات شعرية وتعبير مجازى . إذا شاء المجتمع أن يتخلص من متاعبه فما عليه إلا أن يتخلص من عبارات وألفـاظ ويعمد إلى تغيير شكلها ، وما عليه إلا أن يطلب من الأكاديمية أن تعيد طبع قاموسها فى شكل جديد » . وأسهل لنا بطبيعة الحال أن نذهب إلى أن القيمة لا تعنى شيئا مطلقا ، وندمج كل شىء فى هذه الطبقة وهذا ما يفعله ج . ب . ساى . السؤال : « ما القيمة ؟ » الجواب : « إنها ما يساويه الشىء » . السؤال « وما الثمن ؟ » الجواب « قيمه النقيمة معبراً عنه بالنقود » . السؤال « ولم تـكون لزراعة التربة ... قيمة ؟ » الجواب « لأننا نحدد لها ثمنا » . وهكذا فالقيمة عبارة عما يساويه الشىء ، والأرض ذات قيمة لأننا نعبر عن قيمتها بالنقود . وهذا بكل تأكيد طريقة بسيطة جدا لإدراك أسباب الأشياء !

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

لقد استعار الاقتصاد السياسى الكلاسيكى من الحياة اليومية العادية عبارة « ثمن العمل » دون أن يحاول نقدها ، ثم أخذ يتساءل بعد ذلك عن كيفية تعيين هذا الثمن . وسرعان مااعترف الاقتصاديون الكلاسيك أن التغيير فى نسبة العرض والطلب لايمكن أن يفسر — بصدد ثمن العمل أو ثمن أية سلعة أخرى — أكثر من تغيرات فى الثمن وبعبارة أخرى تقلبات أثمان السوق فوق أو دون مقدار محدود . فإذا توازن العرض والطلب انقطعت التقلبات فى الثمن (مع تساوى الأشياء الأخرى) ؛ ولكن إذا كان الأمر كذلك عجز العرض والطلب عن تفسير أى شىء . إن ثمن العمل ، حين يكون هناك توازن بين العرض والطلب ، هو ثمنه الطبيعى ، أى ثمنه مستقلا عن النسبة بين العرض والطلب ، وهذا هو الشىء الواقعى الذى علينا أن نحلله . ثانيا : بملاحظة التقلبات فى أثمان السوق خلال فترة طويلة كسنة مثلا ، وُجد أن كلا منها يمحو الآخر ، مخلفاً ثمناً متوسطا أى كمية محدودة . ومن الواضح إذن أن الثمن المتوسط يجب أن يعينه عامل آخر خلاف الانحرافات عنه وهى الانحرافات التى محا كل منها الآخر . وهذا الثمن الذى يسيطر ويتحكم فى أثمان السوق العرضية للعمل (وسماه الطبيعيون السعر الضرورى) وأطلق عليه آدم سميث « الثمن الطبيعى للعمل » — هذا الثمن كما فى حالة السلع الأخرى ، لايمكن أن يكون سوى قيمته معبراً عنها بالنقود . وبهذه الطريقة توهم الاقتصاد السياسى أن فى استطاعته أن يغوص خلال أنحاء العمل العرضية فيصل إلى قيمته . وهذه القيمة عينتها نفقة الانتاج ، كما هو الشأن فى السلع الأخرى . ولكن ماهى نفقة إنتاج العامل . ماالذى يتكلفه إنتاج العامل ، أو إعادة إنتاجه ، وقد سمح الاقتصاديون لهذا السؤال أن يحل محل السؤال الذى سألوه فى أول الأمر ، وذلك عن غير وعى عنهم ، لأنهم ظلوا فيما يتعلق بمشكلة نفقة إنتاج العمل ، يدورون ويدورون فى دائرة دون أن يتقدموا خطوة إلى الأمام . وعلى ذلك فما يطلق عليه فى الاقتصاد السياسى عبارة قيمة العمل إنما هو فى الحقيقة قيمة قوة العمل وهى الثروة الموجودة فى شخص العامل ، وهى تختلف عن وظيفتها كما تختلف الآلة عن العمل الذى تقوم به . وبسبب انهماكهم فى بحث الفرق بين أثمان السوق للعمل وقيمة السلع التى ينتجها العمل الخ . . . تراهم لم يلاحظوا أبداً أن اتجاه التحليل لم يؤد بهم من أسعار السوق للعمل إلى قيمته المفترضة فحسب ، بل أدى بهم إلى تحليل قيمة العمل هذه إلى قيمة قوة العمل . ونظرا لغفلتهم عن نتيجة تحليلهم ، ونظراً لتقبلهم بنظرة غير انتقادية عبارات « قيمة العمل » « الثمن الطبيعى للعمل » الخ كأنها تعبيرات صادقة نهائية لعلاقة القيمة التى كانوا يبحثونها ، وقع الاقتصاديون الكلاسيكيون

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

(كما سنرى فيما بعد) فى اضطرابات ومتناقضات ، وبهذا أعدوا للاقتصاديين الدهماء أساساً متيناً يمارسون عليه تلك العقيدة التى أصبحت مبدأ بالنسبة إليهم . وهى عقيدة التفاهة اى عبادة المظاهر .

ولننتقل الآن لنرى كيف أن قيمة وثمن قوة العمل يتمثلان فى شكلهما المتحول على هيئة أجر .

نعلم أن القيمة اليومية لقوة العمل تحسب على أساس ماينتظر من الحياة للعامل ، وأنه بالمثل يتطابق مع هذا طول محدود ليوم العمل ؛ ولنفرض أن يوم العمل المعتاد عبارة عن ١٢ ساعة وأن القيمة اليومية لقوة العمل ٣ شلنات أى التعبير النقدى لقيمة تتجسم فيها ست ساعات ، فحين يتسلم العامل ٣ شلنات فإنه يحصل على قيمة ماليديه من قوة عمل تشتغل فترة قدرها ١٢ ساعة . وإذا كنا الآن نعبر عن هذه القيمة اليومية لقوة العمل على أنها قيمة يوم العمل ، لحصلنا على الصيغة التالية : عمل ١٢ ساعة له قيمة قدرها ٣ شلنات . وهكذا تعين قيمة قوة العمل قيمة العمل ، أو تعين ثمنها الضرورى إن شئنا التعبير عن ذلك بالنقود . وإذا كان ثمن قوة العمل من جهة أخرى ينحرف عن قيمتها فإن ثمن العمل ينحرف بالمثل عما يقال له قيمة العمل .

ومما أن قيمة العمل ليست إلا تعبيراً غير سليم عن قيمة قوة العمل فمن الأمور الواضحة بذاتها أن قيمة العمل يجب أن تكون دائما أقل من القيمة التى تخلقها لأن الرأسمالى يحرص دائماً على أن قوة العمل تواصل العمل خلال وقت أطول مما يلزم لإعادة انتاج قيمتها . ففى المثال السابق قيمة قوة العمل التى تشتغل ١٢ ساعة عبارة عن ٣شلنات ولإعادة انتاج هذه القيمة يجب أن يشتغل العامل ٦ساعات . لكن القيمة المنتجة عبارة عن ٦شلنات ذلك لأن قوة العمل تشتغل خلال الاثنى عشرة ساعة ، والقيمة المنتجة تتوقف لا على قيمة قوة العمل ذاتها بل على المدة التى تقوم خلالها بإداء وظيفتها . وهكذا نصل الى النتيجة التى تبدو سخيفة لدى أول نظرة ، وهذه النتيجة هى أن العمل الذى يخلق قيمة قدرها ٦ شلنات ، قيمته ذاته ٣ شلنات(١) .

---

(١) أنظر كتاب « نقد للاقتصاد السياسى » حيث ذكرت (ص ٤٠) أن فى ذلك الجزء من العمل الذى يتعامل مع رأس المال نجد حلا للمشكلة الآتية « كيف يؤدى الانتاج على أساس القيمة التبادلية التى يعينها وقت العمل وحده ، إلى النتيجة الآتية وهى أن قيمة العمل التبادلية أقل من قيمة منتج العمل التبادلية ؟ » .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

وعلاوة على ذلك نرى أن القيمة وقدرها ٣ شلنات والتى تمثل ذلك الجزء من يوم العمل المدفوع أجره (أى الست ساعات من العمل) تبدو كأنها قيمة أو ثمن المجموع الكلى ليوم العمل ذى الاثنى عشرة ساعة وهو الذى يتضمن ٦ ساعات من العمل بغير مقابل . وعلى هذا فشكل الأجر يزيل كل أثر لتقسيم يوم العمل إلى عمل ضرورى وعمل فائض ، أى إلى عمل له أجره وآخر لا أجر له . ويتخذ كل العمل مظهر عمل دفع له أجره . وفى نظام السخرة (العمل الاجبارى فى ظل النظام الإقطاعى) تجد ثمن عمل القن لنفسه وعمله الاجبارى للسيد منفصلا كل منهما عن الآخر من حيث الفراغ (أى المكان والزمان) وتجد كلا منهما واضحاً متميزاً عن الآخر . وفى عمل العبد تجد أن ذلك الجزء من يوم العمل الذى لا يقوم فيه العبد لا بإحلال قيمة وسائل عيشه وبالتالى الذى يعمل فيه لنفسه حقيقة ـ نقول إن ذلك الجزء يتخذ مظهر عمل لمالك العبد ، ويبدو عمل العبد كله بدون أجر (١)

أما فى حالة العمل الأجر من جهة أخرى فحتى العمل الفائض أو الذى لا أجر له يبدو كأنه عمل دفع عنه أجره . ففى حالة واحدة تخفى علاقة الملكية حقيقة كون العبد يشتغل جانباً من وقته لنفسه ، وفى الحالة الأخرى تخفى علاقة النقود حقيقة كون العامل الأجير يعمل جانباً من وقته بلا مقابل .

ومن هنا نستطيع أن ندرك الأهمية الحاسمة لتحويل قيمة وثمن قوة العمل إلى شكل أجر للعمل أو إلى قيمة وثمن العمل ذاته . وعلى أساس هذا الشكل الظاهرى الذى يجعل العلاقة الحقيقية خفية ويبرز عكسها تماما ، تقوم التصورات القانونية التى يعتقد بها العامل والرأسمالى سواء بسواء ، وكافة تصرفات الرأسمالى فى الإنتاج ، وجميع صورها الخادعة عن الحرية ، وكل المبررات الخادعة التى يلجأ اليها الاقتصاديون الدهماء .

وليس أسهل من تفسير السبب فى هذا ، والسبب فى أن هذا الشكل المظهرى ضرورى ـ حتى ولو كان التاريخ قد استغرق زمنا طويلا فى حل سر الأجور الخفى . وفى أول الأمر يبدو التبادل بين رأس المال والعمل كأنه من نفس نوع شراء وبيع السلع الأخرى . فالمشترى يدفع مبلغاً معيناً من النقود والبائع يقدم سلعة من نوع مختلف عن النقود . وشعور رجل القانون

---

(١) تعد « المورننج ستار » الصحيفة اللندنية من ألسنة حال حرية التجارة وتتميز ببساطة تدنو من الغباء . وقد صرحت الصحيفة مرارا خلال الحرب الأهلية الأمريكية وهى تتميز بالغضب الأدبى ، أن العبيد فى الولايات المتحالفة كانوا يشتغلون دون مقابل مطلقا - وكان يحسن لو أنها وازنت بين ما يتكلفه مثل هذا العبد فى اليوم بما يتكلفه عامل حر مثلا فى حى إيست إند بلندن !

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

لا يستطيع أن يرى هنا أكثر من اختلاف مادى يعبر عن نفسه فى الصيغ المعادلة من الوجهة القانونية . « اعط كى تعطى ، وأعطى كى تصنع واصنع كى تعطى ، واصنع كى تصنع » .

وفضلا عن هذا بما أن القيمة التبادلية والقيمة الاستعمالية حجمان غير قابلين للتساوى والتعادل فان التعبيرات «قيمة العمل» و«ثمن العمل» لاتبدو أكثر بعداً عن السداد عن تعبيرات «قيمة القطن» و«ثمن القطن» . وإلى جانب هذا فالعامل يتناول الأجر بعد أن يؤدى عمله . فمن حيث وظيفتها كوسيلة للدفع ، تجسم النقود فيما بعد قيمة أو ثمن السلعة التى تسلم ، والتى هى — فى الحالة المعلومة — قيمة أو ثمن العمل الذى تم اداؤه . وأخيراً فالقيمة الاستعمالية التى يسلمها العامل إلى الرأسمالى ليست فى الحقيقة قوته على العمل ، ولكنها وظيفة تؤديها قوة العمل — أى عمل نافع معين مثل الخياطة وعمل الأحذية والغزل أوحسبما نشاء . والعقل العادى عاجز تماما عن أن يدرك أنه من وجهة أخرى هذا النوع المخصوص من العمل له مغزى عام كعنصر يخلق قيمة ، وكصفة تميزه عن كافة السلع الأخرى . لنضع أنفسنا مكان العامل الذى نفرض أنه يحصل مقابل عمله ١٢ ساعة على القيمة التى يخلقها فى ست ساعات ولتكن ٣ شلنات مثلا . وبالنسبة إليه يكون عمله مدى ١٢ ساعة هو فى الحقيقة الوسيلة التى يتمكن بها من شراء الشلنات الثلاث . وقد تختلف قيمة قوته على العمل تبعاً لقيمة وسائل عيشه الاعتيادية من ٣ إلى ٤ شلنات أو ٣ شلنات إلى اثنين ، كما أنه فى حالة ثبات قيمة قوة العمل قد يترتب على تغييرات العرض والطلب أن يرتفع ثمن قوة العمل إلى ٤ شلنات أو يهبط إلى شلنين ، ولكن العامل يؤدى دائما عملا خلال ١٢ ساعة . هذا يستتبع بالضرورة أن أى تغيير فى حجم المعادل يبدو فى نظر العامل الذى يتسلمه تغييراً فى قيمة أو ثمن العمل الذى دام ١٢ ساعة . لهذا نجد أن آدم سميث الذى عامل يوم العمل على أنه ثابت(١) قد خدعته هذه الظاهرة التى سلفناها فاعتقد أن قيمة العمل ثابتة برغم ماتتعرض له قيمة وسائل العيش من اختلاف وبرغم أن نفس يوم العمل الواحد يأتى للعامل بمقدار من النقود يختلف من حالة إلى أخرى .

لنتحول الآن إلى النظر فى أمر صاحب رأس المال . إنه يريد الحصول على أكبر قسط من العمل بأقل مبلغ من النقود ، وعلى ذلك فالشىء الوحيد الذى يعنيه من الناحية العملية إنما هو الفرق بين ثمن قوة العمل والقيمة التى تخلقها قوة العمل عن طريق قيامها بمهمتها

---

(١) حين يكتب آدم سميث فى موضوع نظام دفع الاجور بالقطعة (الوحدة) تراه يشير بطريقة عابرة فقط إلى التغييرات فى يوم العمل .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

ووظيفتها . ولكنه يحاول أن يشترى جميع السلع بأرخص ما يمكن ، كما أنه يفسر لنا دائما الربح الذى يحصل عليه على أنه ناجم عن الشراء بثمن بخس والبيع بثمن مرتفع ، أى شراء الشىء بما دون قيمته وبيعه بأغلى منها . بناء على هذا يعجز عن ان يدرك انه حتى إذا كان لشىء كقيمة العمل وجود حقيقى وحتى اذا كان قد دفع هذه القيمة حقيقة ، فانه لا يمكن وجود رأس مال لأن نقوده لم تتحول إلى رأس مال .

وفضلا عن هذا فالحركة الفعلية للأجور تبدى لنا ظواهر يبدو أنها تثبت أن ما يدفع أجره ليس قيمة قوة العمل وإنما قيمة وظيفتها أى العمل ذاته . ونستطيع أن نرجع هذه الظواهر إلى طبقتين كبيرتين . فأولا لدينا تغيير فى الأجور مرتبط بتغيير فى طول يوم العمل . وتستطيع أن نستنتج من هذا أنه نظراً لأن استئجار آلة لمدة أسبوع قد يكلفنا أكثر من استئجارها ليوم فإن ما ندفع مقابله ليس قيمة الآلة بل قيمة عملها . ثانيا لدينا الفوارق الفردية فى أجور مختلف العمال الذين يؤدون نفس النوع من العمل ، ونجد نفس الفوارق الفردية فى نظام الرق حيث تباع قوة العمل علنا وبدون تحفظ ، ولكن هنا لا تنشأ أى أوهام . وفى عصر نظام الرق تكون أية ميزة ناجمة عن قوة عمل فوق المتوسط أو الضرر من قوة عمل دون المتوسط ، من نصيب مالك العبد ، بينما فى نظام العمل الأجير يعود النفع أو الضر على العامل نفسه لأنه هو نفسه الذى يبيع ماله من قوة عمل ، بينما قوة عمل العبد يبيعها شخص آخر .

وأما عن الباقى بصدد الشكل الظاهرى « قيمة وثمن العمل » أو « الأجور » عند الموازنة مع العلاقة الأساسية التى فى أساس ذلك الشكل المظهرى الذى هو قيمة وثمن قوة العمل — فإن نفس الاختلاف يصدق على كافة الأشكال المظهرية وطبقاتها الفرعية الخفية . إن الأشكال الظاهرية تبدو بصورة تلقائية ومباشرة كأشكال من الفكر عادية (سائدة) ويجب البحث عن الطبقات التحتية الفعلية بالبحث العلمى . ويقترب الاقتصاد السياسى الكلاسيكى من الحقيقة الداخلية بدون أن يصوغها عن إدراك ووعى . هذه الصياغة الواعية مستحيلة بالنسبة لعلم الاقتصاد إلا إذا خلع عنه رداءه البورجوازى.

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

الفصل الثامن عشر

دفع الاجور حسب نظام الوقت

تتخذ الأجور بدورها أشكالا متباينة وإن كانت أبحاث الاقتصاديين لاتجعلنا قادرين على فهمها نظراً لأن اهتمامهم بالجوهر يحملهم على إغفال الفوارق الشكلية . ومع أن بيان هـذه الأشكال المتعددة الجوانب ينتمى إلى المذهب الخاص بالعمل الأجير وبهذا لامحل له فى هذا المؤلف ، إلا أنى أرى من اللازم أن نميز بصورة موجزة بين الشكلين السائدين من دفع الأجور . يذكر القارىء أن قوة العمل تباع دائما لمدد محدودة ولهذا تبدو قيمتها اليومية أو الأسبوعية الخ بشكل «أجر يدفع حسب نظام الوقت» أى تتخذ شكل الأجر اليومى أو الأسبوعى الخ . ويتعين علينا أولا أن نشير إلى أن القوانين التى أوردناها فى الفصل الخامس عشر عن التغيرات التى تطرأ على الأحجام النسبية لثمن قوة العمل وفائض القيمة ، تستطيع بتغيير بسيط فى الشكل أن تتحول إلى قوانين للأجور . وبالمثل فالتمييز بين القيمة التبادلية لقوة العمل وبقية وسائل العيش التى تتحول إليها هذه القيمة يظهر الآن بأنه تمييز بين الأجور الإسمية والحقيقية . . ويكفينا الآن أن نعرض لمسائل قليلة يتميز بها نظام الأجر حسب الوقت .

إن مبلغ النقود[1] الذى يتسلمه العامل لقاء عمله يوما أو أسبوعا هو الأجر الإسمى أو الأجر مقدرا بالقيمة . ومن الواضح أن التغير فى طول يوم العمل (أى مقدار مايؤديه العامل من عمل يوميا) يتبعه أن نفس الأجر اليومى أو الأسبوعى الخ قد يمثل ثمنا مختلفا للعمل — ومعنى هذا دفع مبالغ مختلفة جدا لنفس المقدار من العمل[2] . لهذا يتعين علينا فى نظام الأجر حسب

---

(١) سنفرض ثبات قيمة النقود .

(٢) « ثمن العمل عبارة عن المبلغ الذى يدفع لقاء مقدار معلوم من العمل (سير ادورد وست : « ثمن القمح وأجر العمل » ، لنـدن ١٨٢٦ ص ٦٧) . وقد وضع وست مقالا (دون ذكر اسم المؤلف) يعد بداية عصر فى تاريخ الدراسات الاقتصادية فى انجلترا ، وعنوانه :

Essay on the Application of Capital to Land, by a Fellow of University College, Oxford, London, 1815.

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

الوقت أن نميز بين المبلغ الكلى للأجور (الأجور اليومية أو الأسبوعية الخ) وثمن العمل . فكيف نوجد هذا الثمن ، وكيف نتأكد من القيمة النقدية لكمية معلومة من العمل ؟ فى الإمكان معرفة متوسط ثمن العمل عن طريق قسمة متوسط القيمة اليومية لقوة العمل على عدد الساعات التى يحتوى عليها يوم العمل المتوسط . فاذا كانت هذه القيمة ٣ شلنات (وهى القيمة التى يخلقها عمل ٦ ساعات) وإذا كان اليوم ١٢ ساعة كان ثمن ساعة عمل واحدة $\frac{٣}{١٢}$ أى ٣ بنسات . هذا الثمن الذى حققناه هكذا هو وحدة قياس ثمن العمل .

لهذا قد يظل الأجر اليومى أو الأسبوعى على ما هو عليه مع أن ثمن العمل يتناقص باستمرار . فلو فرضنا أن يوم العمل العادى ١٠ ساعات والقيمة اليومية لقوة العمل ٣ شلنات كان ثمن الساعة $٣\frac{٣}{٥}$ بنس ولكنه يهبط إلى ٣ بنسات لو أصبح يوم العمل ١٥ ساعة ، وفى كل هذا يظل الأجر اليومى أو الأسبوعى دون تغيير . وبالعكس قد يرتفع الأجر الأسبوعى الخ برغم ثبات ثمن العمل بل وبرغم هبوطه . فلو شمل يوم العمل ١٠ ساعات وكانت قيمة قوة العمل فى اليوم ٣ شلنات كان ثمن الساعة $٣\frac{٣}{٥}$ بنس . فاذا ترتب على تحسن أحوال التجارة اشتغال العامل ١٢ ساعة فى اليوم مع ثبات ثمن العمل أصبح الأجر اليومى ٣ شلنات و $٧\frac{١}{٢}$ بنس ويمكن بلوغ نفس النتيجة عن طريق زيادة حدة العمل دون أن يصحب ذلك تغيير فى حجمه (أى مدته) [١] . وعلى ذلك قد تكون الزيادة فى الأجر اليومى أو الأسبوعى الإسمى مصحوبة بثمن عمل لم يتغير أو بهبوط فيه . وينطبق نفس الأمر على دخل الأسرة العاملة حيث أن مايقوم به رئيسها من عمل يكمله عمل بقية الأفراد ؛ ولهذا فهناك وسائل لخفض ثمن العمل وهى خارجة عن خفض الأجر اليومى أو الأسبوعى الإسمى [٢] .

---

(١) « يتوقف أجر العمل على ثمنه ومقداره ... وليس من الضرورى أن تنطوى الزيادة فى أجر العمل على ارتفاع فى ثمنه ، فقد يترتب على عمالة كاملة وجهود كبيرة تبذل أن يزاد أجر العمل إلى حد بالغ مع بقاء ثمنه على ما هو عليه » (وست : مصدر سابق ص ٦٧ ، ٦٨ ، ١١٢) . ولكن السؤال الرئيسى هو كيفية تعيين « ثمن العمل » ، ولكن وست يتجنب الأمر بالغو التافه .

(٢) يعد مؤلف An Essay on Trade and Commerce من أشد المدافعين عن البورجوازية الصناعية تعصبا فى القرن الثامن عشر ؛ وقد أدرك هذه النقطة ولكنه عبر عنها بطريقة مضطربة فقال « إن ثمن المؤن والضروريات هو الذى يعين كمية العمل لا ثمنه (ويقصد بهذا الأجر اليومى أو الأسبوعى الإسمى) : خفضوا ثمن الضروريات وبالطبع تخفضون كمية العمل بما يتناسب مع ذلك ... ويعلم أرباب الصناعة سبلا مختلفة لرفع وخفض ثمن العمل وذلك إلى جانب تغيير مبلغه الإسمى » (ص ٤٨ ، ٦١) . وقد كتب سينيور نساو فى كتابه « محاضرات ثلاث عن معدل الأجر » (لندن ١٨٣٠ ص ١٤) =

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

يمكن إذن أن نقول بوجود قانون عام فحواه أنه إذا علمنا مقدار العمل اليومى أو الأسبوعى فإن أجره يتوقف على ثمن العمل الذى يتغير هو ذاته تبعا لقيمة قوة العمل أو لمدى انحراف ثمنها عن قيمتها . كذلك إذا علمنا ثمن العمل كان الأجر اليومى أو الأسبوعى متوقفا على كمية العمل اليومى أو الأسبوعى .

إن ثمن ساعة العمل ، أى وحدة الأجر بنظام الوقت ، عبارة عن مبلغ القيمة اليومية لقوة العمل مقسوماً على عدد ساعات اليوم العادى من العمل . نفرض أن طول اليوم ١٢ ساعة ، وقيمة العمل اليومية ٣ شلنات (القيمة التى يولدها عمل ست ساعات) ؛ هنا يكون ثمن ساعة العمل ٣ بنسات ومبلغ القيمة التى يتم إنتاجها فى ساعة عمل ٦ ست بنسات . فإذا اشتغل العامل أقل من ١٢ ساعة يومياً (أى أقل من ٦ أيام فى الأسبوع) وليكن ذلك ٦ أو ٨ ساعات فقط كان أجره اليومى (٢) أو (١½) شلن حسب الثمن المعلوم للعمل (١) . وبما أنه حسب فرضنا يجب أن يعمل فى المتوسط ست ساعات يومياً كى ينتج فقط أجر يوم يطابق قيمة ما لديه من قوة العمل ، وبما أنه طبقا لنفس الفرض يشتغل نصف الساعة لنفسه والنصف الآخر للرأسمالى ، يتضح إذن أنه لا يستطيع أن يحصل لنفسه على منتج ٦ ساعات إذا استخدم أقل من ١٢ ساعة . لقد بحثنا الآثار الهدامة للإرهاق فى العمل ، وهنا نستطيع أن نبصر المتاعب التى يتعرض لها العامل إذا لم يتوافر العمل الكافى لديه .

إذا تحدد أجر الساعة بطريقة تجعل صاحب رأس المال لا يلتزم بدفع أجر يوم أو أسبوع وإنما يدفع أجر الساعات التى يشاء أن يستخدم العامل فيها ، أصبح فى إمكانه استخدام العامل وقتا أقصر من الوقت الذى كان فى الأصل أساساً لتقدير أجر الساعة أو أساساً لوحدة قياس ثمن العمل .

وبما أن وحدة القياس تعينها النسبة التالية $\frac{\text{القيمة اليومية لقوة العمل}}{\text{يوم عمل ذو عدد معلوم من الساعات}}$ فإن هذه

= مايأتى (مستعينا بالكتاب السالف الذكر دون الإشارة إليه) : « يهتم العامل قبل كل شىء بمقدار الأجر » ، ومعنى هذا أنه يهتم بما يتسلمه أى المبلغ الإسمى للأجر ، لا فيما يعطيه للغير أى كمية العمل !

(١) يختلف الأثر الناجم عن هبوط غير عادى فى العمالة عنه فى حالة حدوث خفض عام فى يوم العمل بحكم التشريع . فليس للأول أى علاقة بالطول المطلق ليوم العمل وقد يحدث فى يوم طوله ١٥ ساعة أو ٦ ساعات . وفى الحالة الأولى يحسب الثمن العادى للعمل على أساس الفرض بأن العامل يستخدم ١٥ ساعة فى اليوم ، وفى الحالة الأخيرة على أساس افتراض اشتغاله ٦ ساعات فى المتوسط . وعلى ذلك فالنتيجة واحدة إذا اشتغل فى إحدى الحالتين ٧½ ساعات فقط وفى الأخرى ٣ ساعات فقط .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

الوحدة تفقد معناها حالما لايصبح يوم العمل محتويا على عدد محدود من الساعات ، وتنفصم الرابطة بين العمل ذى الأجر والعمل الذى لامقابل عنه ، ويستطيع الرأسمالى الآن أن يستخلص كمية محدودة من فائض العمل دون أن يسمح للعامل بوقت العمل الضرورى اللازم لعيشه ، ويستطيع أن يقضى على انتظام العمل ويتبع أهواءه أو مصلحته المؤقتة بحيث يجعل الارهاق الشديد تعقبه فترات من البطالة الكاملة أو الجزئية . ويستطيع بحجة أنه يدفع « الثمن العادى للعمل » أن يطيل يوم العمل أكثر من المعتاد بدون أن يعوض العامل عن هذا تعويضاً مناسباً ؛ وهذا يفسر لنا سخط عمال صناعة البناء بلندن سنة ١٨٦٠ لما حاول الرأسماليون تنفيذ أجر الساعة عليهم . ويضع التحديد القانونى ليوم العمل حداً لهذه المساوىء ؛ إلا انه بالطبع لايوقف خفض العمل الناجم من منافسة الآلات أو من التغيير فى نوع العمال ، أو من الأزمات الجزئية أو العامة .

حين يأخذ الأجر اليومى او الأسبوعى أو الشهرى فى الازدياد فقد يظل ثمن العمل ثابتاً بصورة إسمية وقد يهبط برغم ذلك دون مستواه العادى . ويحدث هذا دائما عند إطالة يوم العمل أكثر من المعتاد مع فرض ثبات ثمن العمل أو ثمن ساعة العمل . ففى الكسر التالى القيمة اليومية لقوة العمل / يوم العمل — إذ زاد البسط زاد المقام بأسرع منه ، ونظراً لأن قيمة قوة العمل تتوقف على البلى الذى يصحب استخدامها لهذا تزيد مع مدة عملها وتكون الزيادة فى القيمة أسرع منها فى المدة التى تؤدى خلالها وظيفتها . وفى كثير من فروع الصناعة حيث يسود نظام الأجر حسب الوقت وحيث لاتوجد قيود قانونية على يوم العمل قضى العرف باعتبار يوم العمل عادياً إذا بلغ طوله حداً معيناً . فمثلا يقال ليوم العشر ساعات « يوم العمل العادى » او « يوم العمل » او « ساعات العمل المنتظمة » و غير ذلك . اما مايزيد عن هذا فيعد من قبيل العمل الزائد عن المقرر ، وإذا كانت الساعة هى وحدة القياس كان أجر الساعة من العمل الزائد عن المقرر يحسب غالبا على أساس معدل (مستوى) منخفض إلى حد يدعو للسخرية (١) . فيوم العمل العادى هنا كسر من يوم العمل الفعلى ، وكثيرا مانجد الأخير

(١) « معدل الأجر عن العمل الزائد عن المقرر (فى صناعة عمل الدنتلا) صغير جدا ويتراوح بين ½ ، ¾ بنس عن الساعة الواحدة ، بحيث تجد التناقض مؤلما بينه وبين مبلغ الأذى الذى يصيب صحة العمال وقوتهم ... وهذا المقدار الصغير الذى يكسبونه على هذا النحو غالبا ما ينفقونه بسبب ما يحتاجون إليه من تغذية زيادة عن المعتاد » (لجنة تشغيل الأطفال ، التقرير الثانى ، ص ١٦ رقم ١١٧) .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

يسود خلال فترة من السنة أطول من التى يغلب فيها يوم العمل العادى (١) . وحين يُطال يوم العمل بعد حد عادى معين يتخذ ثمن العمل فى مختلف الصناعات البريطانية شكلا بحيث يكون منخفضا خلال ما يقال له يوم العمل العادى إلى درجة تجعل العامل مضطراً إلى العمل فترة خلاف الوقت المقرر وبمعدل أعلى وذلك كى يحصل على أجر يمكنه من أن يعيش (٢) . والتحديد القانونى ليوم العمل يضع حداً لهذه المساوىء (٣) ومن المعلوم انه كلما طال يوم العمل فى اى فرع من الصناعة هبط الأجر (٤) . ويوضح المفتش ردجراف هـــذا بعرض نسبى لفترة عشرين عاما (١٨٣٩ — ٥٩) يرينا كيف ارتفعت خلالها الأجور فى المصانع

---

(١) حدث هذا فى صناعة تلوين الورق قبل تطبيق قانون المصانع عليها حديثا . « إننا نشتغل دون التوقف لتناول الطعام بحيث أن يوم العمل البالغ عشر ساعات ونصف ينتهى فى الساعة ٤/٣٠ مساء وبعد ذلك نشتغل مقدارا آخر ونادرا ما ننتهى قبل السادسة مساء » . (شهادة المستر سميث ، لجنة تشغيل ... التقرير الأول ص ١٢٥) .

(٢) حدث هذا فى مصانع التبييض الاسكتلندية قبل تطبيق قانون المصانع عليها سنة ١٨٦٢ . ففى بعض جهات اسكتلنده كان العمال يشتغلون يوم العمل العادى (١٠ ساعات) بأجر يومى قدره شلن وبنسان ، ثم ٣ — ٤ ساعات بعد ذلك لقاء ٣ بنسات عن الساعة الواحدة . ومعنى هذا عدم استطاعة العامل أن يكسب أكثر من ٨ شلنات فى الأسبوع إذا اشتغل الوقت العادى وهو أجر غير عادى أو معقول (تقارير ... ٣٠ ابريل ١٨٦٣ ص ١٠) . وعرض أجور أعلى فيه إغراء قوى لحمل البالغين على العمل ساعات أطول من المقرر . (شرحه ٣٠ أبريل ١٨٤٨ ص ٥) . وفى صناعة تجليد الكتب بلندن كثير من البنات تتراوح اعمارهن بين ١٤ ، ١٥ سنة . وبرغم تحديد ساعات العمل لهن فإنهن يعملن خلال الأسبوع الأخير من كل شهر حتى الساعة ١٠ ، ١١ ، ١ ليلا الى جانب البالغين مع الاختلاط بهم ، ويغريهن أرباب العمل بمقدار من الأجر والعشاء زيادة عن المقرر ، وهن يتناولن العشاء فى المحال العامة المجاورة (لجنة ... التقرير الخامس ص ٤٤ رقم ١٩١) . والفساد الخلقى واسع الانتشار بين هؤلاء بسبب الأحوال التى يعملن فيها .

(٣) تقارير مفتشى المصانع ، ٣٠ أبريل ١٨٦٣ ص ١٠ — كان عمال صناعة البناء فى لندن على علم دقيق بمجريات الاحوال ولذا أعلنوا خلال إضراب سنة ١٨٦٠ أنهم يقبلون الأجر بالساعة بشرط أنه فى حالة تحديد ثمن الساعة يكون اليوم ٩ أو ١٠ ساعات ، وأن يكون ثمن الساعة فى يوم العشر ساعات أعلى منه فى حالة يوم التسع ساعات . واشترطوا كذلك دفع معدل أجر أعلى عن كل ساعة بعد الوقت المقرر .

(٤) « من الأمور البارزة ضآلة الأجر فى حالة ساعات العمل الطويلة » — تقارير ... ٣١ أكتوبر ١٨٦٣ ص ٩ — وفى (التقرير السادس عن الصحة العامة ١٨٦٤ ص ١٥) أن العمل الذى يعطى عنه مقدار قليل من الغذاء هو اليوم الذى يطال إلى حد بالغ جدا .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

الخاضعة لقانون العشر ساعات وانخفضت حين كان العمل يستمر ١٤ او ١٥ ساعة فى اليوم (تقارير ٣٠ ابريل ١٨٦٠ ص ٣١ — ٣٢) .

ومن القانون التالى « إذا علم ثمن العمل فإن الأجر اليومى او الأسبوعى يتوقف على كمية العمل » ، نستخلص أولا انه كلما هبط ثمن العمل عظمت كميته أى طال يوم العمل بحيث يستطيع العامل الحصول حتى على مقدار زهيد من متوسط الأجر ؛ وفى هذه الحالة يكون انخفاض ثمن العمل حافزاً على إطالة يوم العمل (١). وبالعكس يؤدى امتداد وقت العمل إلى هبوط فى ثمنه وبالتالى فى الأجر اليومى او الأسبوعى . والكسر التالى

القيمة اليومية لقوة العمل
يوم عمل ذو عدد معلوم من الساعات

الذى يعين ثمن العمل ، يرينا أن مجرد إطالة يوم العمل يؤدى إلى خفض ثمن العمل مالم تتدخل مؤثرات أخرى على سبيل التعويض . ولكن نفس الظروف التى تمكن الرأسمالى من إطالة يوم العمل فى الأجل الطويل تمكنه فى أول الأمر وترغمه بعد ذلك على ان يهبط بالثمن الاسمى للعمل ايضا اذ يتناقص الثمن الكلى لعدد الساعات المزاد ، أى أن يكون هناك هبوط فى الأجر اليومى أو الأسبوعى . وتكفى الإشارة هنا إلى ظرفين . فإذا قام رجل واحد بعمل رجل ونصف أو رجلين زاد عرض العمل برغم ثبات عرض قوة العمل ، إذ المنافسة الذى تنشأ هنا بين العمال تمكن الرأسمالى من أن يهبط بثمن العمل ؛ وبالعكس يجعل هبوط ثمن العمل فى إمكان الرأسمالى أن يزيد وقت العمل أكثر من ذلك (٢) ولكن سرعان ماتبعث هذه المقادير غير العادية من العمل الذى لايدفع أجر عنه — على المنافسة بين الرأسماليين أنفسهم . ويدخل ثمن العمل فى تكوين ثمن السلع ولكن الجزء المجانى من ثمن العمل يجب ألا يدخل فى حساب ثمن السلع ، ويمكن تقديمه للمشترى وهذه هى الخطوة الأولى التى تؤدى اليها المنافسة . والخطوة الثانية استبعاد جزء

(١) نظرا لانخفاض ثمن عمل صناع المسامير اليدويين كان على الواحد منهم أن يشتغل ١٥ ساعة يوميا لكى يحصل على عيشه الاسبوعى الذى يدعو الى الرثاء . فكان الواحد منهم يعمل ما بين ٦ صباحا ، ٨ مساء يجد ونشاط طيلة الوقت كى يحصل على أجر قدره ١١ بنسا أو شلن واحد ، والى جانب هذا بلى العدد ونفقة إعداد النار وما يترتب على هذا من تبديد بعض الحديد ، وهذا كله يتكلف ٢½ آو ٣ من البنسات (لجنة ... التقرير الثالث ص ١٣٦ رقم ٦٧١) . وأجر النساء الأسبوعى ٥ شلنات فقط مقابل العمل خلال نفس العدد من الساعات (ص١٣٦رقم ٦٧٤) .

(٢) إذا رفض أحد عمال المصنع أن يشتغل العدد المعتاد من الساعات حل غيره مكانه وتعطل (تقارير ٣١ أكتوبر ١٨٤٩ شهادة ص ٣٩ رقم ٣٨) . « إذا قام رجل واحد بعمل اثنين ... ارتفع معدل الأرباح بوجه عام ... بسبب أن عرض العمل الإضافى أدى إلى نقص ثمنه » (سينيور ص ١٤) .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

على الأقل من القيمة الفائضة التى يولدها إطالة يوم العمل من ثمن السلع . وبهذه الطريقة نجد لدينا ثمن بيع منخفضاً ليصبح من الآن فصاعداً سبباً دائماً فى الأجور المنخفضة للغاية وساعات العمل الطويلة جداً مع أنه كان نتيجة لهذين الأمرين ، ولكن أود الإشارة إلى أن تحليل المنافسة لا يعنينا هنا ومع هذا سأدع الرأسمالى يتكلم عن نفسه وفى برمنجهام منافسة كبيرة بين أصحاب الأعمال بحيث يضطر كثير منهم إلى عمل أشياء بصفته من أصحاب الأعمال يخجل منها فى خلاف هذه الظروف ، ومع ذلك لا يجنون مالا أكثر وإنما الفائدة تعود على الجمهور » (لجنة تشغيل . . . التقرير الثالث ـ شهادة ص ٦٦ رقم ٢٢) . وقد قال الخبازون بلندن (full-priced) أمام لجنة التحقيق البرلمانية ما يأتى عن منافسيهم الذين يبيعون دون الثمن « إن وجودهم راجع أولا إلى أنهم يخدعون الجمهور وبعد ذلك يستخلصون عمل ١٨ ساعة من عمالهم مقابل أجر ١٢ ساعة . . . فالسبب فى المنافسة وبقائها ما يقدمه العمال من عمل لا ينالون عنه أجراً . . . والمنافسة بين أصحاب المخابز السبب فى صعوبة التخلص من العمل الليلى . . . ومعظم الذين يستخدمهم الذين يبيعون دون الثمن الصحيح من الأجانب والشبان الذين يقبلون أى أجر يعرض عليهم[1] » .

هذا الكلام طريف لأنه يرينا أن ذهن الرأسمالى لا ينعكس فيه سوى مظهر علاقات الإنتاج ، فهو لا يدرى تماما أن الثمن العادى للعمل يشمل كذلك مقداراً محدودا من العمل الذى لا أجر عنه وأن هذا العمل الأخير هو المصدر العادى لكسبه . ففى نظره لا وجود لفائض العمل بسبب انه داخل فى يوم العمل العادى ، الذى يظن أنه يدفع أجره . أما الوقت الزائد عن المقرر فله وجود فى نظره . فاذا واجهه شخص يبيع بأقل منه فانه يصر على دفع أجر زائد عن هذا الوقت الذى يشتغل فيه العامل بعد الزمن المقرر . وهنا نجده ايضاً لا يدرى أن هذا الأجر الأخير يتضمن كذلك عملا مجانيا . ومثال ذلك لنفرض أن ثمن ساعة من يوم عمل طوله ١٢ ساعة ٣ بنسات وهذه الساعة قيمة يتم إنتاجها فى نصف ساعة عمل ، وأن ثمن الساعة من الوقت الخارج عن المقرر ٤ بنسات وهى قيمة ما يتم فى ثلثى ساعة . ففى الحالة الاولى يستولى الرأسمالى على نصف ساعة من العمل دون ان يدفع ثمن ذلك ، اما فى الحالة الثانية فيستولى على الثلث .

---

(١) *Report. etc relative to the Grievances complained of by the Journeymen Bakers, London' 1862, d. 411* وكذلك فى الشهادة رقم ٤٧٩ ، ٣٥٩ ، ٢٧٤ فى الوقت نفسه فهؤلاء الخبازون الذين يبيعون بالسعر الكامل « يبدأون العمل عادة فى الساعة ١١ مساء . . . ويستمرون حتى ٨ من صباح اليوم التالى . . . يشتغل (العمال) بعد ذلك طول اليوم . . . حتى السابعة مساء » ، وقد أشرنا إلى هذا وكذلك اعترف لسان حالهم بنيت (مصدر سابق ص ٢٢) .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

الفصل التاسع عشر

دفع الاجور حسب نظام القطعة (الوحدة)

ليست الأجور حسب القطعة سوى صورة متحولة للأجور التى تدفع حسب الوقت ، كما ان الأخيرة الصورة التى تحولت اليها قيمة قوة العمل أو ثمنها . وفى النوع الاول من الأجور يبدو من أول نظرة كما لو ان القيمة الاستعمالية المشتراة من العامل لا يمكن ان تكون وظيفة ما لديه من قوة العمل أى العمل الحى بل يجب ان تكون عملا قد تحقق فى المنتج ، وكذلك يبدو كما لو أن ثمن هذا العمل تعينه طاقة المنتج على العمل وليس يحدده الكسر الآتى $\frac{\text{القيمة اليومية لقوة العمل}}{\text{يوم عمل من عدد معلوم من الساعات}}$ كما هو الشأن فى حالة الأجور التى تدفع حساب نظام الوقت (١) .

والثقة التى تجعل الناس يخطئون فيظنون هذا المظهر هو الحقيقة كان من الواجب أن تتزعزع بسبب إمكان وجود نظامى دفع الأجور جنبا إلى جنب فى نفس الفرع من الصناعة « فالعادة أن صفافى حروف الطباعة بلندن يشتغلون بالقطعة بينما زملاؤهم بالريف يشتغلون حسب الوقت . ويشتغل تجارو بناء السفن فى ميناء لندن حسب العملية التى يتولونها أو الوحدة بينما يعمل زملاؤهم فى الجهات الأخرى باليوم » (٢) . وفى مجال عمل السروج بلندن غالبا مانجد فى نفس الحرفة عمالا من الفرنسيين والإنجليز ويتناول الأولون أجرهم بالقطعة بينما يدفع أجر

---

(١) يوضح نظام الأجر بالقطعة عصرا فى تاريخ يوم العمل إذ يقع فى منتصف الطريق بين مركز عامل اليومية الذى يعتمد على إرادة الرأسمالى وبين الصانع التعاونى الذى ينتظر فى المستقبل غير البعيد أن يجمع فى شخصه بين الصانع والرأسمالى . إن العمال الذين يعملون بنظام القطعة سادة أنفسهم وإن كانوا يشتغلون على رأس مال صاحب لعمل « *John Watts* : Trade Societies and Strikes, Machinery and Cooperative Societies منشستر ١٨٦٥ ص ٥٢ — ٥٣) . وقد نشر واتس هذا كتيباً سنة ١٨٤٢ عنوانه Facts and Fictions of Political Economists ؛ ومما قال « الملكية سرقة » ولكن ذلك كان منذ زمن بعيد .

(٢) ت . ج . دنتج « اتحادات العمال والاضرابات » لندن ١٨٦٠ ص ٢٢

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

الأخيرين حسب الوقت . وفى المصانع التى تتبع نظام الدفع بالقطعة نجد أن حِرفا معينة لايلاءمها هذا النظام لأسباب فنية ولذا يتناول الذين يمارسونها أجرهم حسب نظام الوقت (١) وواضح أن الاختلافات فى شكل دفع الأجر لاتغير جوهر المسألة ، وإن كان أحد الشكلين أكثر ملاءمة من الآخر لتنمية الإنتاج الرأسمالى .

لنفرض أن يوم العمل العادى ١٢ ساعة ٦ منها لها أجرها والست الباقية لايدفع عنها مقابل ، ولنفرض أن مبلغ القيمة التى يخلقها ٦ شلنات بحيث ان عمل ساعة واحدة يخلق قيمة قدرها ٦ بنسات . ولنفرض أن التجارب ترينا أن العامل ينتج ٢٤ سلعة متميزة فى يوم العمل هـــذا إذا اشتغل بالدرجة المتوسطة من الحدة والمهارة أى لم يشتغل أكثر من مقدار وقت العمل اللازم فى ظل الأحوال الاجتماعية العادية السائدة . فاذا ماطرحنا ذلك الجزء الذى تتضمنه هذه السلع من رأس المال الثابت كانت قيمتها ٦ شلنات وكانت قيمة السلعة الواحدة ٣ بنسات . يتناول العامل ٣شلنات بمعدل بنس ونصف البنس عن القطعة الواحدة . وكما أنه فى حالة الأجر حسب الوقت لايهمنا ان يكون العامل قد اشتغل ست ساعات لنفسه وستا للرأسمالى ، أو اشتغل نصف الساعة لنفسه والنصف الآخر للرأسمالى ، كذلك لايهمنا فى حالة الدفع بالقطعة أن نقول إن الرأسمالى يدفع ثمن نصف كل قطعة ولا يدفع ثمن نصفها الآخر ، أو أن ثمن كل قطعة يحل محل قيمة قوة العمل بينما تدخل القطع الإثنى عشرة الأخرى فى نطاق القيمة الفائضة .

ولا يقل نظام القطعة عن زميله بعدا عن جادة العقل والصواب . ومثال ذلك أنه بينما تكون قيمة السلعتين اللتين تنتجهما ساعة عمل واحدة ٦ بنسات (بعد خصم مااستهلك فى

---

(١) وجود نظامى الدفع فى نفس الوقت بالمصنع الواحد يلاءم كافة أنواع الخداع من جانب رب المصنع « يستخدم المصنع ٤٠٠ عامل نصفهم حسب القطعة والنصف الآخر يتناولون الأجر باليوم ، فللأولين مصلحة مباشرة فى العمل ساعات أطول ، والآخرون يشتغلون ساعات طويلة ولكنهم لاينالون شيئاعن العمل الزائد عن المعتاد ... وعمل هؤلاء المائتين نصف ساعة يساوى عمل شخص واحد مدة ٥٠ ساعة أو ٢ عمل شخص واحد فى الاسبوع وهذا كسب ايجابى لصاحب العمل (تقارير ... ٣١ أكتوبر ١٨٦٠ ص ٩) . « لايزال الارهاق فى العمل سائداً وفى كثير من الحالات تتخذ الاحتياطات لمنع كشف المخالفات وتوقيع الجزاء مما ينص عليه القانون ... وقد أظهرت فى كثير من تقاريرى السابقة ... الضرر الذى يعود على العمال الذين لايشتغلون بنظام القطعة وإنما يتناولون أجوراً أسبوعية — ليونارد هورنر ، تقارير ... ٣٠ أبريل ١٨٥٩ ص ٨ — ٩ .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

إنتاجهما من قيمة أدوات الإنتاج) ، فإن العامل لايحصل مقابلهما إلاعلى٣ بنسات والواقع الفعلى أن الأجر بالقطعة لايعبر بصفة مباشرة عن علاقة قيمة . ليست المسألة خاصة بقياس قيمة القطعة حسب ماتتضمنه من مقدار وقت العمل ، بل بالعكس إنها مسألة قياس مابذله العامل من عمل عن طريق حساب عدد القطع التى أنتجها . يقاس العمل فى نظام الدفع بالوقت بمدة العمل المباشرة ، أما فى نظام القطعة فيقاس بكمية المنتجات التى يندمج فيها العمل خلال فترة محدودة من الوقت (١) . وفى النهاية يتحدد ثمن وقت العمل بمعادلة القيمة التالية وهى : قيمة عمل اليوم = القيمة اليومية لقوة العمل ؛ وعلى ذلك ليست الأجور بالقطعة سوى شكل معدل من الأجور التى تدفع حسب الوقت . . . ولندرس الآن بقدر أكبر من الدقة المميزات التى تتصف بها الأجور وفق نظام القطعة .

إن نوع العمل أوصفته هنا تخضع لسلطان العمل ذاته إذ يجب أن يكون العمل من جودة متوسطة إذا أريد دفع ثمن القطعة كاملا . ولهذا يصبح هذا النظام مصدرا طيباً للاستقطاعات من الأجور ووسيلة غش يتبعها الرأسمالى . والأجور من هذا النوع تعد فى نظر صاحب رأس المال مقياسا دقيقا لحدة العمل ، ذلك ان وقت العمل الذى يعتبر متوسطا اجتماعياً ويدفع ثمنه على هذا الأساس إنما هو وقت العمل الذى يتجسم فى كمية من السلع سبق تحديدها من قبل (على هدى التجارب) . ففى بعض محال حياكة الملابس بلندن يتحدثون عن قطعة معينة من العمل كالصديرى مثلا بأنها ساعة أو نصف ساعة ، وتحسب الساعة على أساس ست بنسات ، وعن طريق التجارب العملية نعرف مقدار متوسط ماتنتجه الساعة الواحدة . وفى حالة الأزياء الجديدة الخ تنشأ المنازعات بين رب العمل ومن يشتغلون عنده فى هل تمثل قطعة ما من العمل ساعة وهكذا ، وهنا يكون الحكم للتجارب . كذلك فى ورش صنع الأثاث فى لندن يطرد العامل إذا لم يؤد حداً أدنى محدودا من العمل فى اليوم وبعبارة أخرى إذا لم تتوافر له الدرجة المتوسطة من المهارة والحذق (٢) .

---

(١) يمكن قياس الأجور بأى من الطريقتين الآتيتين : مدة دوام العمل أو منتج العمل
Abrégé élementaire des principes d'economie politique
باريس ١٧٩٦ ص ٣٢ — كان ج . جارنييه صاحب هذا الكتاب المجهول اسم مؤلفه .

(٢) يعطى (للغزال) مقدار معلوم من القطن على أن يعيد فى فترة معينة بدلا منه وزنا معلوما من الغزل ذى درجة معينة من الدقة ويتناول الأجر عن الرطل الواحد من الغزل . فاذا كان بعمله نقص من حيث النوع وقع عليه الجزاء ، وإذا كان المقدار دون الحد الأدنى المتفق عليه عن وقت معلوم فانه يطرد ليحل محله عامل أكفأ منه (يور — مصدر سابق ص ٣١٧) .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

وما دام الشكل الذى تدفع بمقتضاه الأجور يتحكم فى نوع العمل وحدته أصبح الإشراف عليه وقد انتفت الحاجة إليه إلى حد كبير . فمعدلات دفع الأجور بالقطعة تصير الأساس الذى يقوم عليه نظام الصناعة المنزلية الحديث والذى وصفناه فى الفصول المتقدمة ، ويصبح كذلك أساسا لنظام هرمى من الاستغلال والاستعباد . وثمت شكلان أساسيان للأمر الأخير . فمن جهة يسهل نظام الأجر بالقطعة تدخل الطفيليين فيما بين الرأسمالى والعامل الأجير ، وأرباح الوسطاء مصدرها الفرق بين ثمن العمل الذى يدفعه الرأسمالى وبين ذلك الجزء من الثمن الذى يسمح الوسطاء فعلا باستيلاء العمال عليه (١) . ويعرف هذا الأمر فى انجلترا « بنظام التعريق أو الإرهاق » (sweating system) . ومن جهة أخرى يتمكن الرأسمالى بفضل هذا النظام من أن يتعاقد على الثمن الذى يدفعه لكل عامل عن عدد معلوم من القطع مع رئيس يتولى جمع العمال ودفع الأجور لهم . وفى هاتين الحالتين يتحقق استغلال رأس المال للعامل عن طريق استغلال عامل لآخر (٢) وفى ظل نظام القطعة يرى العامل من صالحه الشخصى أن يجهد ما يملك من قوة العمل الى الحد الأقصى مما يسهل على الرأسمالى أن يزيد الدرجة العادية من حدة العمل (٣) . ويرى العامل كذلك صالحه فى إطالة يوم العمل حتى يرتفع أجره اليومى أو

---

(١) « وحين يمر العمل بين أفراد عدة لكل منهم نصيب فى الأرباح بينما لا يؤدى العمل سوى الشخص الأخير يكون الأجر الذى يصل إلى العامل غير متناسب إلى حد يدعو إلى الاشفاق (لجنة ... التقرير الثانى رقم ٤١٤ ص ٦٠) .

(٢) وحتى واتس يلاحظ بهذا الصدد ما يأتى « لو أن الذين يستخدمون فى عمل كانوا شركاء فى العقد حسب مقدرة كل منهم بدلا من أن يكون من صالح رجل واحد أن يرهق الآخرين لمصلحته الذاتية — نقول لو حدث هذا لتحسن نظام الدفع بالقطعة تحسينا عظيما » (ص ٥٣) . راجع لجنة تشغيل الأطفال، التقرير الثالث ص ٦٦ رقم ٢٢ ، ص ١١ رقم ١٢٤ ، ص ١١ رقم ١٣ ، ٥٣ ، ٥٩ الخ بشأن المساوىء الشنيعة المترتبة على Sweating System .

(٣) وغالبا ما يحدث تنشيط هذه النتيجة التلقائية بوسائل مفتعلة « ضد الحيل الشائعة فى صناعة الهندسة بلندن « اختيار رجل يمتاز بما لديه من قوة جثمانية وسرعة ليكون رئيس عمال عدة ويدفع له أجر اضافى كل ثلاثة أشهر أو خلاف ذلك على أساس أن يبذل قصارى جهده لحمل الآخرين الذين لا يتناولون سوى الأجر العادى على اللحاق به ... وهذا يفسر شكاوى العمال من حيث ارغامهم من قبل أصحاب الأعمال على بذل مقادير أكبر من النشاط والمهارة وقوة العمل » (دنتج ص ٢٢ — ٢٣) — ولما كان دنتج هذا عاملا وسكرتيرا لأحد اتحادات العمال فقد يعد كلامه مبالغة ، ولهذا نشير على القارىء بالاطلاع على مقال « العامل » فى « دائرة معارف الزراعة » التى وضعها ج . س . مورتن، وهى مؤلف « جدير بالاحترام الكبير » ، وسيرى أن الكتاب ينصح الفلاحين باستخدام تلك الطريقة المشار اليها .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

الأسبوعى[١] ، وبذا يحدث رد فعل كالذى وصفناه بصدد نظام الوقت ، مع العلم أن هذه الإطالة تهبط بثمن العمل حتى مع ثبات أجر القطعة .

وفى نظام الوقت تتشابه أجور أنواع العمل الواحدة ؛ أما فى النظام الآخر وبرغم أن وقت العمل يقاس بكمية محدودة من المنتج فإن الاجر اليومى أو الأسبوعى يتفاوت تبعا لمقدرة العامل على أن ينتج المقدار المتوسط من المنتج أو أعلى أو أدنى منه . وبهذا يتفاوت مبلغ النقود الذى يحصل عليه العامل تبعا لاختلاف مهارته وقوته ونشاطه الخ . عن الحد المتوسط من كل منها [٢] . وبالطبع لا يؤثر هذا فى العلاقة العامة القائمة بين رأس المال والعمل الأجير وذلك أولا لان الفوارق الضرورية يوازن بعضها بعضا فى المصنع بوجه عام بحيث تنتج الورشة فى فترة معاومة من وقت العمل المقدار المتوسط من المنتج ، وبحيث ان مجموع الأجور الكلى يطابق متوسط الأجور السائد فى ذلك الفرع من الصناعة . وثانيا ليس من تغيير فى النسبة بين الأجور وفائض القيمة نظرا لأن الأجر الفردى الذى يتناوله العامل الفردى يطابق مبلغ القيمة الفائضة الذى يهيئه للرأسمالى . ولكن نظام نظام القطعة يتيح مجالا أوسع للعامل تنمو فيه روح الفردية والشعور بالحرية والاستقلال وسيطرته على نفسه ، كما ان هذا المجال يعمل من جهة أخرى على تنمية المنافسة فيما بين العمال . ولذلك بينما يميل العمل بالقطعة إلى رفع أجور العمال الفرديين فوق متوسط مستوى الأجور السائد فى صناعة ما ، فإنه يعمل فى الوقت نفسه على خفض هذا المستوى بصفته الكلية العامة . ولكن إذا كان معدل أجر القطعة قد حدده العرف بحيث أن خفضه قمين أن يثير مقاومة العمال ، لهذا يعمد أصحاب العمل إلى اتباع نظام الدفع بالوقت بدلا من نظام الأجر حسب القطعة ؛ وإلى هذا يرجع سبب الإضراب الذى قام به عمال نسج الدنتلا فى كوفنترى سنة

---

(١) ينتفع جميع الذين يتناولون الأجر على حسب نظام القطعة من هذا الافتئات على حدود العمل القانونية ، وتنطبق هذه الملاحظة بنوع خاص وهى الرغبة فى العمل الى مابعد الوقت المحدود ، على النساء اللائى يشتغلن بالنسج (تقارير ... ٣٠ أبريل ١٨٥٨ ص ٩) — وهذه الطريقة الملاءمة لصالح رب العمل تميل بصفة مباشرة الى تشجيع الفخارى الناشىء على أن يجهد نفسه خلال السنوات الأربع أو الخمس التى يستخدم فيها وفق نظام القطعة ولكن بأجر منخفض . وهذا سبب كبير يعزى اليه ضعف بنية الفخاريين (لجنة تشغيل ... التقرير الأول ص ١٣) .

(٢) حيث تكون طريقة الدفع فى أى مهنة حسب القطعة أو العملية المتفق عليها فقد تختلف الأجور كثيرا من حيث مقدارها . . . أما فى نظام الأجر باليوم فعادة نجد معدلا واحدا يعترف به كل من صاحب العمل والعامل مقياسا لأجور العمال فى هذه المهنة (دنتج ص ١٧)

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

سنه ١٨٦٠ (١) وأخيرا فنظام القطعة دعامة رئيسية النظام الساعة الذى وصفناه فى الفصل السابق(٢). يتضح مما سبق أن نظام الدفع بالقطعة أصلح أشكال الأجور من وجهة نظر طريقة الإنتاج الرأسمالية . وليس هذا النظام حديث النشأة إذ نجد ذكرا له فى وثائق قوانين العمل الفرنسية والانجليزية فى القرن الرابع عشر، ولكن لم يعم استخدامه إلا بابتداء عصر الصناعة اليدوية ، كما اتخذ منه أرباب الأعمال فى بداية عصر الصناعة الكبيرة اى خلال الفترة (١٧٩٧ — ١٨١٥) وسيلة لإطالة يوم العمل وخفض الأجور . وتمدنا الكتب الزرقاء الصادرة خلال هذه الفترة بمعلومات عن تقلبات الأجور إذ ذاك ، ومنها نعلم باطراد الهبوط فى ثمن العمل بحيث أن الهبوط فى صناعة النسج كان أعظم منه قبلا برغم الزيادة فى طول يوم العمل « والأجر الحقيقى الذى يحصل عليه العامل فى صناعة نسج القطن أقل بكثير مما كان عليه ، كما لم يعد هناك وجود تقريبا لتفوقه على العامل العادى وهو التفوق الذى كان من قبل عظيما جدا ... إن الفرق فى أجر كل من العامل الحاذق والعامل العادى أقل بكثير الآن مما كان عليه فى أى فترة سابقة » (٣) ونستطيع من الفقرة التالية أن ندرك ضآلة المنفعة التى عادت على العمال الزراعيين من ازدياد حدة العمل واتساع مداه ، وهذه الفقرة مقتبسة من كتاب يعد صاحبه من المدافعين عن قضية ملاك الأراضى والفلاحين « يقوم بمعظم العمليات الزراعية

---

(١) وينظم عمل رجال المياومة باليوم أو بالقطعة .. ويعلم المعلم master تقريبا ما يستطيع العامل أداءه من عمل فى اليوم الواحد وعلى هذا الأساس يحسب الأجر، ولهذا يضطر عمال المياومة الى بذل جهد كبير دون ما حاجة الى الرقابة عليهم ، اذ ذلك فى صالحهم (كانتيون : « مقال عن التجارة بوجه عام » طبعة أمستردام ١٧٥٦ ص ١٨٥ ، ٢٠٢ (وقد ظهرت الطبعة الأولى سنة ١٧٥٥) . وتجد كانتيون هنا ، وهو الذى اقتبس منه كوينای وسير جيمس ستيوارت اودم سميث كثيرا ، يعد الأجور بالقطعة مجرد شكل معدل من أجور الوقت . ويدل عنوان الطبعة الفرنسية على أن الكتاب مترجم عن الانجليزية ولكن الطبعة الانجليزية وعنوانها The Analysis of Trade,Commerce, etc-, by Philip Cantillon فتاريخها سنة ١٧٥٩ أى بعد الفرنسية بأربع سنوات . وفضلا عن هذا تدل محتويات الطبعة الانجليزية على أنها متأخرة المهد وتناولتها يد المراجعة . فمثلا فى الطبعة الفرنسية لا ذكر لهيوم وكذلك الشأن بيتى فى الطبعة الانجليزية. وفيما يتعلق بالمسائل النظرية البحتة نجد الطبعة الانجليزية قليلة الأهمية نسبيا ولكنها تشمل تفصيلات عدة خاصة التجارة الانجليزية وتجارة السبائك الخ مما لا نجد له ذكرا فى الطبعة الفرنسية .

(٢) « ألسنا نرى كثيرا أن أصحاب الورش يستخدمون أحيانا عددا من العمال أكثر مما يتطلبه العمل ؟ وفى حالات كثيرة يستخدم عمال أكثر توقعا لعمل عرضى (قد يكون وهميا تماما) . ولما كانوا يتناولون أجورهم بالقطعة فان صاحب العمل لا يتحمل أى خطر لأن الخسارة كلها على حساب المتعطلين »

H. Grégoir : Les typographes devant le Tribunal corréctionnel de Bruxelles , Brussels, 1865, p. 9.

(٣) Remarks on the Commercial Policy of Great Britain, London, 1815.

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

هوم يؤجرون باليوم أو حسب العمل بالقطعة ، والأجر الأسبوعى حـــوالى ١٢ شلن ، وبرغم أننا قد نفترض أن الفرد يكسب فى نظام القطعة شلنا أو شلنين زيادة عن الأجر الأسبوعى ، لكن وُجد أنه إذا حسبنا دخله الكلى كان هذا الكسب أقل من العمل الذى يخسره خلال السنة بسبب التعطل . . وفضلا عن هذا وجدوا أن ثمت نسبة معينة بين أجور هؤلاء الناس وثمن وسائل العيش الضرورية بحيث أن رجلا له طفلان يستطيع تربية أسرته دون الالتجاء إلى التماس المعونة من الأبرشية » (١) . وكتب مالثس مشيرا إلى الحقائق التى نشرها البرلمان فى تاريخ متأخر يقول « أعترف أنى أنظر بعين الشك إلى اتساع نطاق عادة دفع الأجر بالقطعة . والحق يقال إن العمل الشاق خلال ١٢ أو ١٤ ساعة فى اليوم أو أكثر من ذلك أمر كثير على أى مخلوق آدمى » (٢) ويسود نظام الأجر بالقطعة فى الورش التى تخضع لفعل قوانين المصانع إذ بذلك يستطيع رأس المال الحصول على إنتاج أكبر من يوم العمل عن طريق زيادة حدة العمل (٣) .

حينما تتغير إنتاجية العمل تمثل نفس الكمية من المنتجات مقدارا مختلفا من وقت العمل وتبعا لهذا يتغير الأجر حسب القطعة إذ أنه عبارة عن الصورة التى تعبر عن ثمن مقدار محدود من وقت العمل . فى المثال السابق وجدنا أن ٢٤ سلعة تم إنتاجها فى ١٢ ساعة، وقيمة منتج هذه الفترة ٦ شلنات ، والقيمة اليومية لقوة العمل ٣ شلنـــات ، وثمن ساعة العمل ٣ بنسات ، وأجر القطعة الواحدة بنس ونصف البنس . إن القطعة الواحدة تتضمن عمل نصف ساعة ، فلو تضاعفت إنتاجيـة العمل بحيث يتم إنتاج ٤٨ سلعة فى نفس الوقت لهبط أجر القطعة من ½ ١ بنس إلى ¼ ٣ بنس ، وهذا مع بقاء الظروف الأخرى دون تغيير ما دامت كل قطعة تمثل الآن ¼ ساعة فقط بدلا من ½ ساعة . إن ½ ١ بنس × ٢٤ مرة تساوى ٣ شلنات ، وكذلك ¼ بنس × ٤٨ = ٣ شلنات وبعبارة أخرى يهبط أجر القطعة بنفس النسبة التى يزيد بها عدد القطع التى يتم إنتاجها فى فترة معاومة من الوقت (٤) أو إلى الحـد

---

(١) « دفاع عن الملاك والفلاحين فى بريطانيا العظمى » لندن ١٨١٤ ص ٤ — ٥ .

(٢) مالثس Inquiry into the Nature and Progress of Rent لندن ١٨١٥ .

(٣) « لعل أربعة أخماس العمال فى المصانع ... ممن يتناولون أجورهم بنظام القطعة » تقارير ... ٣٠ أبريل ١٨٥٨ .

(٤) « وتقاس القوة الإنتاجية لآلة الغزل بدقة ، ومعدل الأجر عن العمل الذى يتم أداؤه بها ينقص تبعا لزيادة القوة الإنتاجية ولكنه لاينقص مثلها » (يور ص ٣١٧) ، وبعد ذلك ألغى يور العبارة الأخيرة ، وهو يعترف أن إطالة (آلة) البغلة تسبب بعض الزيادة فى العمل . ونتيجة لهذا لاينقص العمل =

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

الذى يتناقص به مقدار وقت العمل المتجسم فى كل قطعة . هذا التغيير فى أجر القطعة ، وهو تغيير إسمى بحت ، يؤدى إلى نزاع دائم بين الرأسمالى والعامل إما لأن الرأسمالى يستخدمه ذريعة لخفض ثمن العمل فعلا ، وإما لأن ازدياد الإنتاجية ينطوى على زيادة فى حدة العمل . أو قد يكون السبب أن العامل يعتقد أن مايحصل عليه من الأجر هو ما ينتجه وليس هو قوته على العمل ولهذا يقاوم أى خفض فى سعر القطعة لا يكون مصحوبا بأى خفض فى ثمن بيع السلعة « إن العمال .... يراقبون بعناية ثمن المادة الخام وثمن السلع المصنوعة وبذا يستطيعون أن يحصلوا على تقدير دقيق مضبوط لأرباح صاحب العمل » (١) ويعترض الرأسمالى على مثل هذه الادعاءات التى يراها راجعة إلى أخطاء فاحشة فى إدراك طبيعة العمل الأجير (٢) ، ويحمل على عجرفة هذه المحاولة الرامية إلى فرض ضرائب على تقدم الصناعة ، ويعلن بجفاء أن ليس للعامل مطلقا أى دخل فى مسألة إنتاجية العمل (٣) .

= بنسبة زيادة إنتاجيته » بهذه الزيادة تكبر القوة الإنتاجية للآلة بمقدار الخمس . وحين يحدث هذا فان الغزال لايتناول أجره بنفس المعدل عن العمل الذى يؤديه كما كان الحال قبلا ، ولكن لما كان ذلك المعدل لاينقص بنسبة الخمس فان التحسين يزيد من مكاسبه النقدية خلال عدد معلوم من ساعات العمل » ولكن « القول السالف يتطلب بعض التعديل ... على الغزال أن يدفع شيئا إضافيا مساعدة للأحداث وذلك من البنسات الست الإضافية التى يحصل عليها ، وهو مايصحبه إحلال الصغار محل جانب من البالغين » (ص ٣٢١) وليس هذا بميل إلى رفع الأجور .

(١) H. Fawcett : The Economic Position of the British Labourer. لندن وكمبردج ١٨٦٥ ص ١٧٨) .

(٢) نقرأ فى العدد الصادر من جريدة الاستاندرد فى ٢٦ أكتوبر ١٨٦١ عن قضية رفعتها شركة جون برايت وشركاه أمام قضاة روشديل على ممثلى اتحاد نساجى الأبسطة متهمة إياهم بالالتجاء الى وسائل التخويف . لقد استخدم شركاء برايت آلات جديدة تنتج ٢٤٠ ياردة من قماش الأبسطة فى نفس الوقت وبنفس العمل (!) اللذين كانا لازمين من قبل لإنتاج ١٦٠ ياردة . ولم يكن للعمال حق فى المطالبة بنصيب فى الأرباح الناجمة عن استثمار صاحب العمل لرأس ماله فى التحسينات الميكانيكية . وتبعا لذلك اقترح السادة برايت خفض معدل الأجر من ١½ بنس لليارده الى بنس واحد على أن يظل مايكسبه العمال عن نفس العمل كما كان قبلا ؛ ولكن يقال انه كان هناك خفض اسمى لم ينذر بشأنه العمال مقدما .

(٣) « ان رغبة اتحادات العمال فى المحافظة على الأجور تدفعها الى محاولة الاشتراك فى الفوائد التى تعود من تحسين الآلات » (يالها من فكرة جريئة !) « ... ان طلب أجور أعلى بسبب اختصار العمل ، معناه بعبارة أخرى محاولة فرض رسم على التحسينات الميكانيكية » On Combinations of Trades الطبعة الجديدة ، لندن ١٨٣٤ ص ٤٢) .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

الفصل العشرون

الفوارق القومية فى الأجور

درسنا فى الفصل الخامس عشر مختلف العوامل المتحدة التى تحدث تغييرا فى الحجم المطلق لقيمة قوة العمل أو فى حجمها النسبى (أى بالقياس إلى فائض القيمة) ، وأوضحنا كيف أن كمية وسائل العيش التى يتحقق فيها ثمن قوة العمل تستطيع أن تتعرض لحركات مستقلة ومختلفة عن التغيرات فى هذا الثمن . وقد سبق أن بينت (١) أن التحول البسيط لقيمة أو ثمن قوة العمل إلى ذلك المظهر الخارجى الدال عليها أى الأجور ، يجعل من هذه القوانين جميعها قوانين متعلقة بحركة الأجور وتوضحها . إن ما يبدو فى تقلبات الأجور هذه داخل دولة واحدة على أنه سلسلة من ارتباطات متفاوتة قد يظهر فى حالة الموازنة بين بلدان مختلفة كأنه اختلافات معاصرة فى المعدلات القومية للأجور . وعلى ذلك حينما نعقد مثل هذه الموازنة بين المعدلات القومية للأجور يتعين علينا أن ندخل فى حسابنا كافة العوامل التى تعين التغييرات فى حجم قيمة قوة العمل ، ومن هذه العوامل : ثمن الضروريات الأولية للحياة ومداها ، ونفقة تدريب العمال ، والدور الذى يلعبه عمل النساء والأطفال ، وإنتاجية العمل وحجمها . وحتى الموازنة السطحية تقتضى فى البداية أن نرد متوسط الأجر اليومى (فى حالة صناعة معينة تجرى مزاولتها فى بلدان مختلفة) ، إلى يوم عمل متجانس . فإذا ما رددنا الأجور اليومية إلى نفس الأسس وجب أن نعيد تحويل الأجور التى تدفع حسب نظام الوقت إلى الأجور التى تدفع حسب نظام القطعة لأن الأخيرة وحدها هى التى يمكن أن تكون مقياسا لكل من إنتاجية العمل وكثافته (حدته) .

إن لحدة العمل معيارا متوسطا فى كل بلد بحيث أنه إذا كان العمل اللازم لإنتاج سلعة ما ينطوى على بذل مقدار أكبر من المقدار الضرورى من وقت العمل الاجتماعى ، فإن هذا العمل المبذول فى إنتاج السلعة لا يعد من النوع السادى المألوف . إن قياس قيمة العمل

---

(١) « ليس من الدقة أن نقول ان الاجور » (ويتحدث المؤلف هنا عن التعبير النقدى عن الاجور) تزداد لانها تشترى مقادير أكبر من السلعة الارخص « David Buchanan, in his edition of Adam Smith's "Wealth of Nations," London, 1814, vol. 1, P. 417, note.

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

حسب مدى وقت العمل وحده لا يتأثر فى بلد معلوم إلا إذا زادت درجة الكثافة عن المتوسط القومى . وليس هذا هو الحال فيما يتعلق بالسوق العالمية التى أجزاؤها عبارة عن البلدان الفردية . ويختلف متوسط حدة العمل من بلد إلى آخر ، وعلى ذلك فالمتوسطات القومية تكوّن موازناً وحدة القياس فيه متوسط وحدة العمل العالمى . وعلى ذلك فالعمل القومى الأكثر حدة إذا قيس بالأقل حدة منه ينتج فى فترة معلومة من الزمن قيمة أكبر يعبر عنها مقدار أعظم من النقود . وعلاوة على هذا فالتطبيق الدولى لقانون القيمة تعدّ له الحقيقة التالية وهى أنه فى السوق العالمية يعد العمل القومى الأكثر إنتاجية كعمل أكثر حدة وكثافة ما دام الشعب الأكثر إنتاجية لا يضطر بداعى المنافسة إلى خفض ثمن بيع سلعه إلى مستوى قيمتها . تزيد حدة وإنتاجية العمل القوميتان ببلد معلوم عن المتوسط الدولى منهما وذلك تبعاً لدرجة ونسبة نمو الإنتاج الرأسمالى فى ذلك البلد (١) . وعلى ذلك فالكميات المختلفة من سلع نوعها واحد والتى يتم إنتاجها فى بلدان مختلفة خلال نفس الفترة من وقت العمل ، تكون لها قيم مختلفة تعبر عنها أثمان مختلفة أى مبالغ من النقود تتفاوت طبقاً للقيم الدولية ، ولهذا فى البلد الذى يسوده نظام من الإنتاج الرأسمالى أكثر نمواً منه فى غيره ، تجد أن القيمة النسبية للنقود أقل منها فى بلد أسلوبه الرأسمالى فى الانتاج أقل تقدماً ونمواً . وهذا يستتبع أن تكون الأجور الاسمية — أى معادل قوة العمل معبراً عنه بالنقود — أعلى فى البلد الأول منه فى الثانى . ولكن لا يجوز الظن بأن هذا الأمر ينطبق كذلك على الأجور الحقيقية كما تعبر عنها كمية وسائل العيش التى تكون تحت تصرف العامل .

وحتى بصرف النظر عن هذه الاختلافات النسبية بين قيمة النقود فى البلدان المختلفة فغالباً ما سنرى أن الأجر اليومى أو الأسبوعى فى البلد الأول أعلى منه فى الأخير ، بينما يكون الثمن النسبى للعمل — إذا قيس بكلا فائض القيمة وقيمة المنتج — أعلى فى البلد الثانى منه فى الأول (٢) .

---

(١) سنبحث فى موضع آخر الظروف المتصلة بالإنتاجية والتى تستطيع تعديل هذا القانون فيما يتعلق بفروع الإنتاج الفردية .

(٢) جاء فى الحملة التى شنها چيمس أندرسن على آدم سميث مايأتى « ومما هو جدير بالملاحظة أنه برغم أن الثمن الظاهرى للعمل أقل عادة فى البلدان الفقيرة حيث منتجات التربة والحبوب عموماً رخيصة ، ألا أنه فى الحقيقة أعلى منه فى البلاد الأخرى . والسبب فى ذلك أن الثمن الحقيقى للعمل لايتكون من الأجر الذى يدفع للعامل ولو أنه ثمنه الظاهرى . إن الثمن الحقيقى هو مايتكلفه صاحب العمل من جراء إداء كمية من العمل فعلا ، وعلى ذلك إذا نظرنا إلى الأمر على هذا الوضع لرأينا أن العمل فى جميع الحالات =

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

وقد قام المسترج . و . كوول عضو لجنة المصانع سنة ١٨٣٣ بدراسة دقيقة لصناعة الغزل خرج منها بالنتيجة الآتية وهى « أن الأجور فى انجلترا أقل فعلا بالنسبة إلى الرأسمالى وأعلى بالنسبة إلى العامل منها فى بلدان القارة الأوربية(١) . وقد أثبت مفتش المصانع رد جراف فى تقرير له بتاريخ ٣١ أكتوبر ١٨٦٦ بالإحصائيات وبالموازنة بين الأحوال السائدة فى انجلترا والقارة أنه برغم أن الأجور أقل وساعات العمل أطول فإن العمل فى جهات القارة (من حيث علاقته بالمنتَج) أغلى منه فى انجلترا . ويذكر مدير أحد مصانع القطن فى أولدنبرج ، وهو رجل انجليزى ، أن وقت العمل هناك يستمر من منتصف السادسة صباحا حتى الثامنة مساء بما فى ذلك يوم السبت ، وأن العمال الذين يعملون تحت إشراف مراقبين انجليز ، لا ينتجون ما ينتجه زملاؤهم الإنجليز فى ١٠ ساعات ، وإنتاجهم أقل من هذا إذا كان المشرفون عليهم من الألمان . والأجور أقل منها فى انجلترا بنسبة ٥٠ ٪ فى حالات كثيرة ولكن نسبة العمال إلى الآلات أكبر فتصل فى بعض الأقسام ٥ : ٣ . ويورد لنا المستر رد جراف تفاصيل وافية عن مصانع القطن الروسية وقد أمده بالبيانات اللازمة والإحصائيات مدير انجليزى كان يعمل بالروسيا إلى وقت قريب . فلا تزال مساوئ نظام المصانع التى شهدتها انجلترا فى أول الأمر مزدهرة بالروسيا ، والمديرون بطبيعة الحال من الإنجليز بسبب عدم كفاية الرأسمالى الروسى فى هذا المضمار . وبرغم العمل المرهق الذى يستمر ليلا ونهاراً وبرغم ضآلة الأجور ، فلا يستطيع إنتاج المصانع الروسية إلا أن يحتفظ بمركز غير مستقر بفضل منع المنافسة الأجنبية . وفى الختام أورد جدولا مقارنا أمدنا به المستر ردجراف وفيه متوسط عدد المغازل فى المصنع وبالنسبة إلى الغزال فى بلدان أوربية مختلفة . ويرى المستر رد جراف أن ماشهدته انجلترا من ازدياد حجم المصانع وعدد المغازل منذ أن جمع هذه البيانات ، قد صحبه بلا شك تقدم نسبى مماثل فى البلدان الاوربية ، بحيث لا يزال الجدول صالحا للموازنة .

= تقريبا أعلى فى البلاد الغنية منه فى الفقيرة برغم انخفاض ثمن الحبوب والمواد الغذائية الأخرى فى البلدان الأخيرة بالنسبة إلى الأولى ... فالعمل مقدرا باليوم أوطأ فى اسكتلنده منه فى انجلترا »
Observations on the Means of exciting a Spirit of national Industry, etc, Edinburgh, 1777, pp 350 -351. وبالعكس من ذلك فانخفاض الأجر يسبب بدوره غلو ثمن العمل « فالعمل فى ارلنده أغلى منه فى انجلترا ... لأن الأجر أقل »
Royal Commission on Railways, Miuute, 1867,

(١) يور (مصدر سابق) ص ٣١٤ .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

متوسط عدد المغازل لكل مصنع

البلد	المغازل
انجلترا	١٢٫٦٠٠
فرنسا	١٫٥٠٠
بروسيا	١٫٥٠٠
بلجيكا	٤٫٠٠٠
سكسونيا	٤٫٥٠٠
النمسا	٧٫٠٠٠
سويسرا	٨٫٠٠٠

متوسط عدد المغازل للعامل الواحد

البلد	المغازل
فرنسا	١٤
روسيا	٢٨
بروسيا	٣٧
باڤاريا	٤٦
النمسا	٤٩
بلجيكا	٥٠
سكسونيا	٥٠
سويسرا	٥٥
الولايات الصغرى بألمانيا	٥٥
بريطانيا العظمى	٧٤

ويقول المستر رد جراف « هذه الموازنة ليست فى صالح بريطانيا العظمى لأن هناك عددا كبيرا من المصانع يجرى فيها النسج بالقوة البخارية إلى جانب الغزل ، بينما الجدول يشمل النساجين ، والمصانع فى الخارج فى الأغلب قائمة بالغزل . وإذا أمكن الموازنة بين الشبيهين لوجدت فى منطقة عملى كثيرا من مصانع غزل القطن يقوم فيها رجل واحد ومساعدان بملاحظة بغلات تشمل ٢٢٠٠ مغزل ، وينتجان فى اليوم الواحد ٢٢ رطلا من الغزل طولها ٤٠٠ ميل »[١] .

نعلم أن الشركات البريطانية قامت بمد خطوط حديدية فى أوربا الشرقية وآسيا ، واستخدمت عددا من العمال الإنجليز إلى جانب العمال الوطنيين . وقد دفعتهم الضرورة العملية إلى أن يحسبوا حسابا للفوارق القومية فى حدة العمل ، ولم يعد عليهم هذا بأى ضرر . وقد تعلمت هذه الشركات من التجارب أنه برغم أن ارتفاع الأجور يتماثل إلى حد كبير أو قليل مع متوسط حدة العمل ، فالثمن النسبى للعمل (أى الثمن من حيث علاقته بالمنتج) يختلف بوجه عام فى الاتجاه العكسى .

وقد حاول هـ . كارى فى أحد مؤلفاته الاقتصادية السابقة[٢] أن يثبت أن الأجور فى

(١) « تقارير مفتشى المصانع » ، ٣١ أكتوبر ١٨٦٦ ص ٣١ — ٣٣ .

(٢) Essay on the Rate of Wages, with an Examination of the Causes of the Differences in the Condition of the Labouring Population throughout the World, Philadelphia, 1865.

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

البلدان المختلفة تتناسب تناسبا مباشرا (طردياً) مع درجة إنتاجية يوم العمل القومى ، وهو يستخلص من هذه العلاقة الدولية أن الأجور — بوجه عام — تعلو وتهبط بنسبة إنتاجية العمل . وإن تحليلنا لإنتاج فائض القيمة يثبت سخافة هذه النتيجة حتى ولو أن كارى حاول على غير عادته المألوفة أن يثبت صدق المقدمات والقضايا التى بحثها . وأعظم ما يدعو إلى الضحك أنه لايرى أن الأشياء فى الواقع العملى تتفق مع ما تحدثنا عنه نظريته . فهو يحدثنا أن تدخل الدولة قد برهن على بطلان وكذب العلاقات الاقتصادية الطبيعية ، وعلى ذلك يجب علينا أن نحسب الأجور القومية المختلفة كما لو أن ذلك الجزء من كل منها والذى تأخذه الدولة على هيئة ضرائب يعود حقيقة إلى العـــامل . ألا يحسن بالمستر كارى أن يتسائل ، أليست « نفقات الدولة » هذه نفسها « الثمار الطبيعية » للتقدم الرأسمالى ؟ والمنطق جدير بذلك الرجل الذى صرح بأن علاقات الانتاج الرأسمالية قوانين خالدة أملتها الطبيعة وفرضها العقل ولا يعرقل من فعلها المتسق المنظم سوى تدخل الدولة ، ثم كشف بعد ذلك ان تأثير انجلترا الشيطانى على السوق العالمية (وهو تأثير على ما يبدو غير ناشىء عن قوانين الإنتاج الرأسمالية) تطلب تدخل الدولة — ومعنى هذا ان على الدولة ان تحمى هذه القوانين التى هى وليدة الطبيعة والعقل ، وبعبارة أخرى إن على الدولة ان تتبع نظاما حاميا . وكشف المستر كارى كذلك أن نظريات اريكاردو والآخرين والتى عبرت عن المتناقضات والعداوات الاجتماعية الموجودة ، ليست فلسفة أو آراء مذهبية تولدت عن حركة اقتصادية فعلية . إن كارى ليحدثنا العكس إذ يرى ان متناقضات الإنتاج الرأسمالى سواء فى انجلترا أم فى غيرها ، نتيجة مترتبة على نظرية ريكاردو ! وأخيرا اهتدى إلى كشف آخر ألا وهو ان التجارة هى التى تقضى على جمال وتناسق الأسلوب الرأسمالى فى الإنتاج . ولعله إن خطا خطوة أخرى قمين ان يكشف ان رأس المال هو عيب الإنتاج الرأسمالى . رجل مثل هذا لا يمتاز بطابع البحث النقدى جدير ان يكون المنبع الذى ينهل منه أمثال باستيا وسواه من أنصار حرية التجارة المتفائلين فى العصر الحالى .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

الباب السابع

تجميع رأس المال

اعتبارات عامة

إن تحويل مبلغ من النقود الى أدوات إنتاج وقوة عمل أول خطوة يخطوها مقدار من القيمة سيقوم بوظيفة رأس المال ؛ ويحدث هذا التحويل فى السوق ، أى فى مجال التداول . وتتم الخطوة الثانية أى عملية العمل بمجرد أن تتحول أدوات الانتاج الى سلع تفوق قيمتها قيمة الأجزاء التى تتكون منها السلع ، وبذا تحتوى على رأس المال الذى أنفق فى الاصل مضافاً اليه القيمة الفائضة . ويجب أن يلقى بهذه السلع فى التداول وتباع وتتحقق قيمتها فى النقود ، ويجب أن تتحول النقود ثانية الى رأس مال وهكذا . هذه الحركة الدائرية التى تتكرر فيها نفس المظاهر على الدوام يتكون منها تداول رأس المال .

وأول شرط للتجميع أن يكون الرأسمالى قد باع سلعه وحول الجانب الأكبر من النقود التى تسلمها الى رأس مال . وسنفرض فى الصفحات التالية أن رأس المال يتداول بطريقته العادية ، وسنقوم بتحليل مفصل للعملية فى الكتاب الثانى .

والرأسمالى الذى ينتج القيمة الفائضة أول من يستولى حقاً على هذه القيمة وإن لم يكن آخر مالك لها ، وعليه أن يقتسمها مع الرأسماليين الذين يؤدون وظائف أخرى فى الانتاج الاجتماعى ، أى يقتسمها مع ملاك الأراضى الخ . وعلى ذلك تنقسم القيمة الفائضة أقساماً فرعية مختلفة تذهب الى جيوب طوائف مختلفة من الأشخاص وتتخذ أشكالا مستقلة مختلفة كالربح والفائدة وريع الأرض الخ . ولا يمكن قبل الكتاب الثالث أن نبحث هذه الأشكال المتحولة من القيمة الفائضة .

هنا نفرض من جهة أن الرأسمالى الذى ينتج السلع يبيعها حسب قيمتها ، ولن نؤجل البحث بصفة شاملة كاملة فى دخوله ثانية الى السوق العالمية أو البحث فى الأشكال الجديدة التى يتخذها رأس المال خلال تداوله ، أو فحص أحوال الانتاج المادية الحسية التى تختفى

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

داخل هذه الأشكال . ومن جهة أخرى سنعامل المنتج الرأسمالى بصفته صاحب القيمة الفائضة أو بعبارة أخرى بصفته الممثل لجميع الذين يقاسمونه الأسلاب فى النهاية . ونتيجة لهذا نبدأ ببحث موضوع التجميع من الوجهة المجردة على أنه مجرد مظهر فى عملية الانتاج الفعلية .

ولكى يحدث التجميع لا بد أن يكون الرأسمالى قد نجح فى بيع سلعه وإعادة تحويل نقود الشراء الى رأس مال . وفضلا عن هذا فتقسيم القيمة الفائضة الى أجزائها المختلفة لا يؤثر فى ماهية القيمة الفائضة بأى حال من الأحوال أو فى الظروف والحالات التى تصبح فيها عنصراً للتجميع ، ومهما كانت النسبة التى استطاع المنتج الرأسمالى أن يحتفظ بها فى يده من القيمة الفائضة ، ومهما كانت النسبة التى يتعين عليه فى النهاية أن يتنازل عنها للغير ، فانه الشخص الذى يختص نفسه بها ويملكها . وعلى ذلك فالعرض الذى سنقدمه للتجميع لن يزد عن كونه وصفاً لما يحدث فعلا . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فالشكل البسيط والأساسى لعملية التجميع يحجبه تقسيم القيمة الفائضة ، وحركة التداول التى يعتمد عليها . وعلى ذلك إذا شئنا تحليل العملية بكل ما بها من بساطة وجب علينا أن نتجاهل المظاهر المختلفة التى تخفى فعل جهاز هذه العملية الباطنى .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

الفصل الحادى والعشرون

الانتاج المتجدد البسيط

Simple Reproduction

مهما كان شكل عملية الانتاج فى مجتمع ما فلا بد أن تكون مستمرة أو تمر من فترة لأخرى فى نفس المظاهر . والمجتمع لا ينقطع عن الإنتاج أو الاستهلاك . وإذا نظرنا اليه على أنه كل متصل الأجزاء وفى حالة دائمة من التجدد ، لكانت كل عملية إنتاج اجتماعية عملية انتاج متجدد أو معاد فى نفس الوقت . والأحوال التى يتم فيها الانتاج هى فى الوقت ذاته ما يلائم الانتاج المتجدد . ولا يستطيع أى مجتمع أن ينتج أى ينتج من جديد إلا اذا عمل باستمرار على اعادة تحويل جانب من منتجاته الى أدوات انتاج أو الى عناصر إنتاج جديد . واذا بقيت الظروف فى النواحى الأخرى دون تغيير فلا يستطيع المجتمع إعادة الانتاج أو المحافظة على ثروته فى نفس المستوى إلا اذا عمل على أن يحل مكان أدوات الانتاج (أدوات العمل، المواد الخام ، المواد المساعدة) التى تستهلك سنوياً مقدار مساوٍ من نفس نوع السلع ، وهذا المقدار يجب عزله عن مجموع المنتجات السنوية وإدماجه من جديد فى عملية الانتاج ؛ وعلى ذلك ينتمى مقدار محدود من المنتج السنوى الى الانتاج . ولما كان هذا الجزء معداً من أول الأمر للاستهلاك الانتاجى فانه يوجد بصفة أساسية على هيئة سلع غير صالحة إطلاقا للاستهلاك الفردى .

إذا كان شكل الانتاج رأسمالياً فكذلك يكون شكل الانتاج المتجدد . وكما أنه فى طريقة الانتاج الرأسمالية تبدو عملية العمل وسيلة لتحقيق التوسع الذاتى لرأس المال ، كذلك يبدو كأن الانتاج المتجدد لا يعدو أن يكون قيمة تتمدد بذاتها . إن الشخص لا يقال له رأسمالى إلا لأن نقوده تؤدى وظيفة رأس المال باستمرار ، فاذا تحول مبلغ ١٠٠ جنيه الى رأس مال هذه السنة وأنتج قيمة فائضة مقدارها ٢٠ جنيها ، فلا بد من تكرار نفس العملية فى السنة التالية وهكذا . والقيمة الفائضة بصفتها ثمرة يغلها من وقت لآخر رأس مال فى حالة

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

حركة وسيولة ، تكتسب شكل إيراد ناشىء عن رأس المال (١) .

إذا كان هذا الإيراد لا يخدم صاحب رأس المال إلا كرصيد للاستهلاك ، واذا كان يتم استهلاكه وكذلك انتاجه من فترة لأخرى ، فحينئذ لا يكون لدينا سوى إنتاج متجدد بسيط وهذا فى حالة بقاء الظروف الأخرى كما كانت من قبل . وبرغم أن الانتاج المتجدد البسيط مجرد تكرار لعملية الانتاج على الأساس القديم إلا أن هذا التكرار أو استمرار العملية يكسب تلك العملية خواص جديدة معينة أو بالأحرى يؤدى الى اختفاء خواص ظاهرية معينة كانت لها وهى بصفتها عملية منعزلة قائمة بذاتها .

وتبدأ عملية الانتاج بشراء قوة العمل لمدة محدودة ، ويتجدد هذا على الدوام حين ينقضى الأجل الذى اشتريت قوة العمل خلاله وحين تنتهى فترة إنتاج محدودة مثل أسبوع أوشهر الخ . ولكن العامل لا يتسلم أجره إلا بعد استعمال ما يملك من قوة عمل وبعد أن تكون قد حققت على هيئة سلع قيمة فائضة إلى جانب قيمتها . وعلى ذلك لم ينتج العامل فائض قيمة فحسب (وهو ماسنعده الآن كرصيد لاستهلاك الرأسمالى الخاص) وإنما أنتج كذلك الرصيد الذى يدفع له منه أجره أى أنتج رأس المال المتغير ، والعامل يظل يشتغل طالما يستمر فى إعادة إنتاج هذا الرصيد . وهذا يفسر الصيغة التى أوردها الاقتصاديون والتى أشرنا إليها فى الفصل السادس عشر وهى الصيغة التى طبقاً لها تعد الأجور كنصيب فى المنتج نفسه(٢). فالذى يعود إلى العامل على شكل أجر عبارة عن جزء من المنتج الذى يعيد إنتاجه باستمرار . حقيقة يدفع له الرأسمالى قيمة السلعة نقداً ، ولكن هذه النقود ليست سوى الشكل الذى تحول

---

(١) ولكن هؤلاء الأغنياء الذين يستهلكون منتجات عمل الغير لايستطيعون الحصول عليها بغير عمليات التبادل [المشتريات من السلع] . فاذا أعطوا ماحصلوا عليه وجمعوه من الثروة مقابل هذه المنتجات الجديدة التى يميلون إليها ، بدا أنهم معرضون لخطر استنفاد أرصدتهم سريعا . فلت إنهم لايشتغلون بل وأنهم عاجزون عن العمل ، وعلى ذلك قد يظن أن ثروتهم تتناقص يوما بعد آخر حتى إذا ماانتهت لما وسعهم تقديم شىء للعمال لحملهم على العمل لهم خاصة ... ولكن فى نظامنا الإجتماعى اكتسبت الثروة خاصية تجديد إنتاجها بواسطة عمل الغير بدون أن يساهم صاحبها فى ذلك العمل . فالثروة ، كالعمل بواسطة أدوات العمل ، تؤتى ثمرة سنوية يمكن القضاء عليها سنويا دون أن يصبح صاحب الثروة أفقر مما هو عليه . هذه الثمرة هى الإيراد المتولد عن رأس المال » (سيسموندى : مبادىء جديدة فى الاقتصاد السياسى ؛ باريس ١٨١٩ جـ ١ ص ٨١ — ٨٢) .

(١) « يجب أن ننظر إلى كل من الأجور والأرباح على أن كلا منهما حقيقة جزء من المنتج التام الصنع » (رمزى ص ١٤٢) — « النصيب الذى يحصل عليه العامل من المنتج على هيئة أجر » (جيمس مل : عناصر الاقتصاد السياسى ، الترجمة الفرنسية ، باريس ١٨٢٣ ص ٣٤) .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

إليه منتج العمل . فبينما يقوم العامل بتحويل جزء من أدوات الإنتاج إلى منتج ، فإن جانبا مما سبق له إنتاجه يعاد تحويله ثانية إلى نقود . فالأجر الذى يأخذه مقابل عمله اليوم أو خلال الشهور الست القادمة هو العمل الذى قام به فى الأسبوع الماضى أو الشهور الست الماضية . والوهم الذى يولده الشكل النقدى يختفى فى الحال إذا كنا ننظر إلى الطبقة الرأسمالية والطبقة العاملة بدلا من أن نقصر نظرتنا على رأسمالى واحد وعامل واحد . والطبقة الرأسمالية تعطى الطبقة العاملة أوامر شراء على هيئة النقود ، أى أوامر تمكن العمال من الحصول لأنفسهم على جزء من المنتجات التى أنتجوها بأنفسهم والتى استولى عليها أفراد الطبقة الرأسمالية . وأوامر الشراء هذه يردها العمال باستمرار إلى الطبقة الرأسمالية وبهذه الطريقة يحصلون على أى نصيب يخصهم من الأشياء التى أنتجوها ، ولكن الماهية الحقيقية للعملية يخفيها شكل السلعة الذى يتخذه المنتج والشكل النقدى الذى تتخذه السلعة . وعلى ذلك ليس رأس المال المتغير أكثر من شكل تاريخى خاص لذلك الرصيد الذى يُعد من ضروريات الحياة ، أو لرصيد العمل الذى يحتاج إليه العامل لبقائه على قيد الحياة وتوالده — وهذا الرصيد يتعين عليه نفسه أن يقوم بإنتاجه وإعادة إنتاجه مهما كان نظام الإنتاج الاجتماعى . وإذا كان رصيد العمل ينساب إليه على الدوام على هيئة النقود التى تمثل أجر عمله فما ذلك إلا لأن ماينتجه ينساب بعيداً عنه على شكل رأس مال . ولكن حقيقة كون رصيد العمل يتخذ هذا الشكل المظهرى لاتؤثر فى الحقيقة الأخرى وهى أن مايقدمه (يدفعه) الرأسمالى للعامل ليس إلا عمل العامل وقد تحقق فى منتج (١) . لنبحث حالة قن يخضع لنظام السخرة ، ولنفرض أنه يشتغل فى قطعة الأرض التى له ثلاثة أيام فى الأسبوع مستعملا ما يملك من أدوات الإنتاج بينما يؤدى خلال الأيام الثلاثة الأخرى عملا إجباريا فى أبعادية السيد . فهو يعيد باستمرار إنتاج رصيد العمل الذى يملكه وفيما يختص بهذا القن لايتخذ هذا الرصيد أبدا شكل نقود تدفع له لقاء عمله ويدفعها له شخص آخر . ومن جهة أخرى فالعمل الإجبارى الذى يؤديه بدون مقابل لسيده لايبدو عليه مطلقا مظهر عمل اختيارى لأجره . وإذا حدث يوماً أن وضع السيد يده على أدوات الإنتاج التى يملكها القن وهى قطعة الأرض والحصان أو الثور وبذور القمح ، فإن الآن فصاعداً لايبقى أمام القن إلا أن يبيع مالديه من قوة العمل للسيد . وإذا تساوت

(١) حيث يستخدم رأس المال فى دفع أجور العامل فلا تترتب عليه زيادة فى الأرصدة اللازمة للابقاء على العمل » — كازينوف فى حاشية بالطبعة التى نشرها لكتاب مالثس « تعاريف فى الاقتصاد السياسى » لندن ١٨٥٣ ص ٢٢ .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

الأشياء الأخرى فسيظل كما كان يشتغل لنفسه ثلاثة أيام فى الأسبوع ويعمل ثلاثة أخرى للرجل الذى كان سيده الإقطاعى وأصبح الآن السيد الذى يدفع له الأجر . والآن ، كما كان الحال من قبل ، سيستهلك أدوات الإنتاج كأدوات إنتاج وينقل قيمتها إلى المنتج . والآن — كما كان الحال قبلا — سيخصص جزء مخصوص من المنتج للإنتاج المتجدد أو المعاد . ولكن منذ اللحظة التى يتحول فيها العمل الإجبارى إلى عمل أجير فإن رصيد العمل (الذى يستمر الفلاح فى إنتاجه وإعادة إنتاجه ثانية) يتخذ شكل رأس مال يدفعه إليه السيد على هيئة أجور . والاقتصادى البورجوازى الذى يحول ضيق عقله بينه وبين الفصل بين الشكل الظاهرى والحقيقة المستترة تحته ، يغمض عينيه عن حقيقة وهى أنه حتى اليوم لا يتخذ رصيد العمل شكل رأس مال إلا فى حالات ومواضع متفرقة على سطح الكرة الأرضية (١) .

حقيقة يفقد رأس المال المتغير صفة كونه قيمة مدفوعة من أجل قوة العمل الرأسمالى (٢) وذلك حينما نتأمل عملية الإنتاج الرأسمالى فى حركة تجددها الدائم ، ولكن لابد أن لتلك العملية بداية فى مكان ما وفى وقت ما . ومن وجهة نظرنا الحالية من المحتمل أن الرأسمالى صار ذات مرة مالكا لنقود بفعل نوع من التجميع البدائى مستقل عن عمل الغير الذى لامقابل له ، وهذا التجميع هو الذى مكنه من دخول السوق بصفته مشترياً لقوة العمل . ومهما كان الأمر فإن مجرد استمرار عملية الإنتاج الرأسمالية أو عملية الإنتاج المتجدد البسيط ، تترتب عليه تغييرات بارزة لايقتصر تأثيرها على رأس المال المتغير بل يشمل كذلك رأس المال كله بجزئيه .

لنفرض أن رأس المال قدره ١٠٠٠ جنيه ينتج (كل سنة مثلا) قيمة فائضة تبلغ ٢٠٠ جنيه ولنفرض أنها تُستهلك كل عام . يتضح لنا إذن أنه إذا تكررت العملية خمس سنوات كان مقدار القيمة الفائضة التى استهلكت ٥ × ٢٠٠ جنيه وهذا مبلغ يعادل رأس المال الأصلى وهو ١٠٠٠ جنيه . أما لو استهلكنا النصف مثلا ، حصلنا على نفس النتيجة بعد تكرار عملية الإنتاج عشر سنوات متتالية لأن ١٠٠ × ١٠ يساوى ١٠٠٠ ألف جنيه . وللتعبير عن

---

(١) « يدفع الرأسماليون أجور العمل فى حالة أقل من ربع العمال على ظهر الأرض » Richard Jones: Textbook of Lectures on the Political Economy of Nations, Hertford, 1852, p. 16

(٢) برغم أن رجل الصناعة (أى العامل المشتغل بالصناعة) يدفع له مخدومه الأجر فانه فى الحقيقة لايسكاف الأخير شيئا ، ذلك أن قيمة هذه الأجور محفوظة مع الأرباح فى القيمة التى زادت للمادة التى بذل فيها العمل » — آدم سميث ، الكتاب الثانى ، الفصل الثالث ص ٣١١ .

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.

هذا بصفة عامة نقول إنه لو قسمنا قيمة رأس المال على القيمة الفائضة المستهلكة سنويا لحصلنا على عدد السنوات أو فترات تجدد الإنتاج التى فى ختامها يتم اختفاء رأس المال الأصلى واستهلاك الرأسمالى له . ولا يغير من هذه الحقيقة اعتقاد الرأسمالى أنه يستهلك القيمة الفائضة أى عمل الغير الذى لا يدفع مقابله . فبعد انقضاء عدد معين من السنوات تكون القيمة الرأسمالية التى استولى عليها مساوية لمجموع القيمة الفائضة الكلى الذى أخذه دون معادل خلال تلك السنوات ، ويكون المجموع الكلى لما استهلكه مساوياً لمجموع رأس ماله الأصلى . حقيقة فى يده رأس مال لم يتغير مقداره ، وأن جانباً منه (مبانى وآلات الخ) كان موجوداً فعلا حينما بدأ أعماله ؛ ولكن الذى يعنينا الآن قيمة رأس المال لا العناصر المادية التى يتكون منها . حينما يبدد امرىء ممتلكاته بأن يستدين ما يعادل قيمتها فحينئذ لا تمثل أملاكه سوى المجموع الكلى للديون . وكذلك الحال بالنسبة للرأسمالى الذى يستهلك معادل رأس المال الذى قدمه ، لأن قيمة رأس ماله الحالى لا تمثل سوى المبلغ الكلى من القيمة الفائضة التى استحوذ عليها بدون أن يدفع فيها شيئاً . لا يعود ثمت وجود لذرة واحدة من قيمة رأس ماله القديم .

وعلى ذلك فبغض النظر عن أى تجميع فإن مجرد استمرار عملية الإنتاج أو بعبارة أخرى مجرد الانتاج المتجدد البسيط لا بد حتما أن ينتهى عاجلا أو آجلا بتحويل كل رأس مال إلى قيمة فائضة متجمعة أو متراكمة . وحتى لو كان رأس المال حين دخوله عملية الانتاج عبارة عن ممتلكات أمكن لصاحبه الحصول عليها عن طريق عمله الشخصى ، فإنه يصير عاجلا أو أو آجلا قيمة يتم الاستيلاء عليها بدون معادل لها أى يصبح عبارة عن عمل الغير الذى لا أجر او مقابل له والذى اتخذ صورة مادية إما على هيئة نقود او بأى شكل آخر .

رأينا فى الفصل الرابع أن تحويل النقود إل رأس المال يتطلب شيئا أكثر من مجرد إنتاج القيمة وتداول السلع ، ورأينا ضرورة وقوف شخصين فى مواجهة بعضهما أحدهما بائع والآخر مشتر : فهنا صاحب القيمة أو النقود وهناك صاحب المادة التى تخلق القيمة ، وهنا مالك أدوات الإنتاج ووسائل العيش وهناك من لا يملك سوى قوة العمل . ورأينا أن نقطة ابتداء الإنتاج الرأسمالى تنحصر فى فصل العمل عن منتَجه أى بين قوة العمل الذاتية وأحوال العمل الموضوعية ، ولكن بفضل استمرار العملية أى الإنتاج المتجدد البسيط نجد أن ما كان فى أول الأمر نقطة ابتداء فقط أصبح النتيجة الخاصة للإنتاج الرأسمالى وهى نتيجة تتجدد على الدوام . فمن جهة تحول عملية الإنتاج الثروة المادية إلى رأس مال بدون انقطاع أى إلى وسائل

Please purchase PDF Split-Merge on www.verypdf.com to remove this watermark.